رحمة النبي الكريم ﷺ بالكفار

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ

المدرسة المدنية
(٢٨)

رحمة النبي الكريم ﷺ بالكفار

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

الأستاذ الدكتور
خليل بن إبراهيم ملا خاطر العزامي
أُستاذ الحديث وعُلُومِهِ، بجامعة طَيبة
بالمدينةِ المنوَّرة


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتَنا ، إنك أنت العليمُ الحكيمُ .

اللهم علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتَنا ، وزدنا علماً .

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت تجعل الحزنَ إذا شئت سهلاً ، فيسِّر لنا أمورَنا ، واختم لنا بالسعادة ، إنك على كلِّ شيء قدير .

أما بعد :

فقد كنت ذاهباً إلى الحرم النبوي الشريف لأداء صلاة العشاء ، ليلةَ الإثنين (١ شعبان ١٤٢٣هـ) فسمعت مُذيعاً في إذاعة لندن ينقل عن أحد رجال الدِّين النصارى في أمريكا أنه يتهم النبيَّ المصطفى الكريمَ ﷺ ـ نبيَّ الرحمة ، الذي لم تَعرف البشريةُ ولن تعرف : أرحمَ منه ـ يتهمه بالتطرف والعنف والإرهاب .

وبعد عودتي من الحرم بدأتُ بكتابة كتاب : (الرحمة المهداة ﷺ) بينتُ فيه أن رسول الله ﷺ هو الرحمة المهداة من الله تعالى الرحيم الرحمن ، وأنه تعالى جعل رسولَه الكريمَ ﷺ رحمةً للعالمين ، وأنه ﷺ لم يكن له نظير في الخَلق ؛ فلا يلحقه أو يقاربه ـ في رحمته ـ رسولٌ ولا نبيٌّ ولا مَلَك ، فقد شملت رحمتُه ﷺ جميعَ المخلوقات ؛ من نساء ورجال ، وشيوخ وأطفال ، وعبيد وإماء وأحرار ، وكفار ومؤمنين ، وعصاة ومطيعين ، وطالحين

وصالحين ، وأصدقاء وأعداء ، وحاضرة وأعراب وبادية ، وعلماء وجهال ، ومُودٍّ ومبغض ، وحاضر وغائب ، ومن وُلد ومن لم يولد ،... بل شملت تلك الرحمةُ الأموات والحيوانَ والجانَّ والنباتَ ،... وقد قارب الكتاب على الانتهاء من الطباعة .

ثم زارني وفد من أمريكا ، فحدَّثتهم بما سمعت ، فشَكَوا إلي عما يرونه ، وما يسمعونه من اتهامات باطلة ، فأخبرتهم عن الكتاب ، فألحّوا علي ، مستعجلين كتابته وإرساله إليهم ،...لذا أحببت إفرادَ هذا الفصل من الكتاب ، لأرسله إليهم ، فيكون زاداً لهم ـ ولأمثالهم من المسلمين في البلاد الغربية ، وليس لغيرهم ـ في ردِّ هذه الفرية الباطلة إن شاء الله تعالى ، وإن كان يستفيد منه غيرهم بإذن الله تعالى .

إن حال هذا الدَّعِيِّ كحال ما قال العرب قديماً : رمتني بدائها وانسلت ، ولو سكتَ لكان خيراً له ،...

وإني لا أريد أن أبيِّنَ في هذه الرسالة حال النصارى ؛ بدءاً من الحواريين ؛ الذين تعنَّتوا مع عيسى عليه السلام ، فطلبوا منه شهادةً على صدقه ؛ حتى تطمئن قلوبُهم ، وذلك بإنزال مائدة لهم من السماء ، وهل يستطيع الله تعالى أن ينزِّلها عليهم ، وكيف لم يسمعوا قولَه عليه السلام حينما طلب منهم أن يذهبوا إلى البلدان ، فعاقبهم الله تعالى ، حيث أصبحوا وكلٌّ واحد منهم يتكلم بلغة ما أُمر بالذهاب إليهم ، وكيف أن أحدَهم خانه عليه السلام ، فتواطأ مع اليهود على قتله ، فسلَّمه الله تعالى منهم ، ورفعه إليه ،... وانتهاءاً بالنصارى الحاضرين ، الذين دمَّروا العبادَ والبلادَ ، بقنابلهم وصواريخهم ودباباتهم ، ولم يسْلم منهم صغيرٌ ولا كبيرٌ ، ولا إنسان ولا حيوان ولا نبات .

كما أني لا أحب أن أبين حال اليهود من زمن نبيِّ الله وكليمِه موسى عليه السلام ؛ من تكذيبهم له ، ولربه تعالى ، وطعنهم فيه ، وقتلهم الأنبياء عليهم السلام بغير حق ،... وهم يعرفون هذا جيّداً ، وهو مكتوب في كتابهم الذي يزعمون أنه مقدس ،... وانتهاء بما فعله ويفعله اليهود من جرائم في العصر الحاضر ، سواء على المستوى الدولي ، أو في فلسطين .

كما أني لست بصدد كتابة التاريخ من جديد ، وأن أغيِّر أو أبدِّل .

إنما أردت أن أكتب بحثاً مختصراً عن النبيِّ الكريمِ ﷺ ، أُبيِّن فيه أنه ﷺ رحمةٌ مهداةٌ من الله الكريمِ الرحمنِ ، وأنه عز وجل جعله رحمةً ، وسماه تعالى رؤوفاً رحيماً ، وأنه ﷺ نبيُّ الرحمة ، بل جعل الله تعالى رسالتَه رسالةَ الرحمة ، وأنه تعالى ما أرسله إلا رحمةً للعالمين ، فالله تعالى ربُّ العالمين ، وجعل نبيَّه الكريمَ ﷺ رحمةً للعالمين ، لتشمل كلَّ المخلوقات ؛ على اختلاف أنواعها وأصنافها ـ كما هو مبيَّن في ذلك الكتاب .

وقد برزت مظاهر تلك الرحمة عملِيّاً لتشمل كلَّ الخلق ؛ من أمته ﷺ في الدنيا ، إلى الخلق كلِّهم يوم القيامة ، مع تخلّي الأنبياء عليهم السلام عن أممهم ، ذلك لأن الله تعالى جعله أماناً للناس ، فشملت رحمتُه ﷺ جميعَ المخلوقات ، ولو كانوا كفاراً ، في الدنيا والآخرة ، بل حتى في ساحة المعركة ،... فهي شاملةٌ للإنس والجن ، كما هو مبيَّنٌ في الكتاب المذكور .

ومن الخصائص التي انفرد ﷺ بها عن سائر الخلق : كونُه رحمةً للعالمين ، وأن رسالتَه رحمةٌ لهم جميعاً ، وأنه ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين .

لذا لا أعلم ـ وقد أكرمني تعالى ـ بفضله وكرمه ـ بتدريس السيرة النبوية الشريفة ـ في المسجد ، وفي مرحلتي الدراسات العليا والجامعية ، منذ

أكثر من ثنتين وأربعين سنة ، وكتبت عنه ﷺ نحواً من ثلاثين كتاباً ـ أن النبيَّ الكريمَ ﷺ قَتَل أحداً بيده الكريمة إلا أُبيَّ بنَ خلف ، مع أنه ﷺ غزا سبعاً وعشرين غزوة ، وباشر القتال بتسع منها .

فقد كان الخبيثُ يقول للنبي الكريم ﷺ في مكة : إنه يعلف فرسَه ليقتله عليها ، فقال له النبيُّ الكريمُ ﷺ : أنا أقتلك إن شاء الله تعالى .

فلما كانت غزوة أحد ، جاء الخبيثُ ، وهو يقول : أين محمد ، لا نجوتُ إن نجا . فتناول رسول الله ﷺ الحربةَ من الحارث بن الصِّمَّة رضي الله تعالى عنه ، فطعنه بها في عنقه ، فتدأدأ عن فرسه ، ثم رجع إلى قريش ، وهو يقول : قتلني محمد . فقالوا : ذهب والله فؤادُك ، والله إن يكن بك بأس . فقال : إنه قال لي بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني ، فمات عدو الله بسَرِف .

إن الخبيث يعلم أن رسول الله ﷺ صادق فيما يقول ، وأن قولَه محقّقٌ نافذ ، ومع هذا كان يعاند ويكابر ، حتى ساقته منيّتُه إلى قدره المحتوم .

فواضح أن قتْلَه ـ أبعده الله تعالى ـ كان دفاعاً عن النفس ، وإن كان معجزةً للنبي المصطفى الكريم ﷺ .

لم يكن رسول الله ﷺ يريد أن يشقى أحدٌ بسببه ، أو يشتَدَّ غضبُ الله تعالى على أحد بسببه ، وهو الرحمةُ المهداةُ القائلُ : « اشتد غضب الله على رجل يقتلُه رسولُ الله ﷺ في سبيل الله عز وجل ». متفق عليه[1].

ومما يدل على عفوه ورحمته ، وكرم خُلُقه ،... ﷺ : أنه لم يعامل من حاول قتلَه من الكفار بمثل ما أراد ، بل عفا عنهم ، وتركهم ،...

ـ كما فعل ﷺ بالأعرابي الذي اخترط سيفَه خلسةً ، يريد قتله ﷺ وهو

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب ما أصاب رسول الله ﷺ من الجراح يوم أحد . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ ، رقم (١٠٦).

نائم ، فاستيقظ ﷺ وهو فوق رأسه ، وهو يقول له : من يمنعك مني؟ فقال ﷺ : « الله » فسقط السيف من يده ، فأخذه ﷺ،... ثم قال له : « من يمنعك مني ؟ » ثم عفا ﷺ عنه .

ـ كما عفا ﷺ عن اليهودي الذي سحره ، ولم يقتله .

ـ كما عفا ﷺ عن اليهودية التي سَمَّتْه بعد خيبرَ ، ولم يقتلها . كما سيأتي بيان ذلك كله إن شاء الله تعالى .

ـ كما أنه ﷺ لم يقتل يهودَ بني النضير ، مع أنهم غدروا مرتين ، وحاولوا اغتياله ، واكتفى بإجلائهم من المدينة .

ـ كما أنه ﷺ لم يقتل يهودَ بني قينقاع ، مع أنهم نكثوا العهد والميثاق ، وغدروا بالمسلمين ، وأرادوا العمل المشين ، واكتفى منهم بإجلائهم .

ـ كما أنه ﷺ لم يقتل يهودَ بني قريظة في المرة الأولى ، بل أقرهم في بيوتهم وقراهم ، فلما تكرر غدرُهم وخيانتُهم ، وتمالؤوا مع المشركين على المسلمين ، ونقضوا العهد الذي كتبوه ، وصار وجودُهم خطراً على المسلمين ، وصار من الرحمة بالمسلمين التخلصُ من هؤلاء المجرمين حصل التخلص .

فكل ذلك وغيره كثير ـ كما سيأتي بعضُه إن شاء الله تعالى في الفصل الثاني ـ يدل على مدى رحمته ﷺ ، وإحسانه وعطفه على العباد ، الذي لم تعرفه البشرية اليوم ، إذ لو حصل بعضُ ذلك في هذا الزمان فماذا ستكون العقوبة ؟ أليست هي الإعدام ؟

ثم إن هذا الدَّعِيَّ ليس هو أول من تكلم في النبي الكريم ﷺ ، ولن يكون الآخِرَ ، فالعداءُ للنبي الكريم ﷺ من الكفار قديم ، منذ بدء الرسالة ، لكنه لن يؤثر ، ولن يغير شيئاً ، لأن الله تعالى تكفّل بظهور نبيه الكريم ﷺ ،

وعصمته من الناس ، وكبتِ عدوِّه وبتره ، وأن هذا الدين سيظهر على الأديان كلها ، وأنه سيسود الأرضَ ، ولن يبقى سواه ، بإذن الله تعالى .

أسأله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله عنده مقبولاً ، وأن يرزقني الصدق في القول ، والإخلاصَ في العمل ، وأن يثيبني على ما أكرمني ، ويجعلني ومن يلوذ بي ـ من والد وجد وولد وزوج وحفيد وأخ وشيخ وتلميذ وحبيب ،... ـ من خيار عِباده وعُبّاده ، ويحفظنا فيما بقي من العمر ، ويتولانا بما تولى به عباده الصالحين ، ويكرمنا برضاه ، ويحسن ختامَنا من غير ابتلاء ولا محنة ، ويجعل مثوانا الأخير في بلد نبيِّه الكريم ﷺ ، والحشرَ منه مع أهله ، ويشملنا بتلك الرحمة ، إنه على كل شيء قدير .

وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا محمد ، وعلى آله الطَّيِّبين الطّاهرين ، وصحبه الكرام المبجَّلين ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وسلَّم تسليماً كثيراً ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، والحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ، شهر رجب / ١٤٢٦ هـ

وكتب

أبو إبراهيم

خليل بن إبراهيم مُلّا خاطر العَزّامي

نزيل المدينة المنورة

*****

فصل

جعل رسول الله ﷺ رحمة للعالمين[1].

لقد أخبرنا الله جل شأنه أنه جعل نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ رحمةً عامة للعالمين ، وأنه رؤوفٌ رحيمٌ ، وأنه ﷺ رافعٌ الإصرَ والأغلالَ التي كانت في الأمم السابقة ،... وأن هذه الرحمةَ هي من عند الله تعالى ، وأنه ﷺ غاية الخُلق الرفيع ، والتواضع المتناهي ، ولم يكن ﷺ فظّاً ولا غليظاً ، بل هو خافض الجناح للمؤمنين ،...

كما جعل تعالى دينَه رحمةً ، دينَ اليسر والسماحة ، والعفو والصفح .

فهو ﷺ رحمة ، ونبيُّ الرحمة ، وبُعث بالرحمة ، وهو الرؤوف الرحيم ، فكان رحمةً للعالمين ؛ مهداةً من رب العالمين ، والله تعالى أعلم .

كما جاءت الأحاديث الشريفة عن النبي الكريم ﷺ في الدلالة على أنه ﷺ رحمة ، وبُعث رحمة ، وأن الله تعالى أهدى هذه الرحمة لعباده ،...

وأذكر ذلك في فقرات ، لكن بشكل مختصر جدّاً للتقريب والتنبيه ، لأن التطويل في ذلك يخرجنا عن المقصود .

ـ جعله الله تعالى رحمة للعالمين :

إن الله سبحانه وتعالى أرحم الراحمين ، وقد سبقت رحمتُه غضبَه ، ومِن رحمته تعالى أن جعل نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ رحمةً عامَّةً شاملةً للعالمين . كما جعله رحمة خاصَّةً بالمؤمنين ، ولم يجعل هذا لأحد من الخلق سواه ـ وفي هذا دلالةٌ على علوِّ قدره ﷺ ورفعة مكانته عند الله عز وجل .

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتابي (الرحمة المهداة ﷺ) لكن بتصرف كبير .

لأنه ﷺ هو النبيُّ الوحيدُ الذي أُرسل إلى الثقلين ، بخلاف الرسل الباقين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، حيث كانت رسالاتهم قوميةً ، خاصة بأقوامهم فقط . كما بينتُ ذلك في الأمانة العظمى ، والخصائص ، وغيرهما .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

ففي هذا النص الكريم أمورٌ كثيرةٌ تدل على علو مقامه الشريف ، الذي لا يدانيه أحد من الخلق ، ولا يقاربه مخلوق ، حيث بزَّهم جميعاً ، وفاقهم كلهم ، وامتاز وفضل عليهم ، كيف وقد جعله تعالى رحمةً للعالمين ، وليس للبشر فقط . لكن لا يمكن استيعاب ذلك كله في هذه الرسالة المختصرة ، لكن حسبي أن أذكر بعضَه ، مما يدل على تلك المكانة العالية ، والمنزلة السامية ، والمرتبة الكاملة الفريدة .

ـ ما يؤخذ من هذه الآية الكريمة :

يُؤخذ من هذه الآية الكريمةِ أمورٌ كثيرةٌ ، وفوائد جليلة ؛ يصعب حصرُها واستيعابها في هذه الرسالة المختصرة ، لذا فإني سأذكر ـ بإذن الله تعالى ـ بعضَ تلك الفوائد الدّالة على علو قدره ﷺ ، ورفعة مكانته عند ربه عز وجل ، وسعة رحمته ، وشمولها لجميع الخلق ، من مؤمنين وكفار ، والله تعالى هو الموفق والمعين .

أ ـ لقد جعل الله جل شأنه كلمة **(رحمة)** نكرةً ؛ لتكون عامَّةً شاملةً ، فهي عامَّةٌ في أبعادها ، شاملةٌ في جزئياتها ، لاحقةٌ لكل من يستحقها ممن هو أهل لها من المخلوقات ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بعد قليل ذكرُ بعض من تشملهم .

(١) سورة الأنبياء (١٠٧).

كما أن هذه الكلمة المباركة جاءت بعد نفي ؛ والنكرة بعد النفي تفيد العموم أيضاً .

ب ـ إن هذا النفي ﴿ وَمَآ ﴾ جاء بعده حصر ﴿إِلَّا﴾ والحصرُ بعد النفي يفيد الاستغراق ، فيكون ما بعد النفي مستغرقاً فيما بعد الحصر أيضاً . فتكون الرحمة مستغرقة كلَّ بعثته ﷺ . بالإضافة إلى شمولها لجميع ما أُرسل إليهم ، وهم العالَـمون ، والله تعالى أعلم .

ج ـ هذه الرحمة المهداة هي من الله تعالى ، ليست من صنع البشر ، ولا دخل للبشر فيها ، ولا هي مكتسبة ، ولم ينلها ﷺ باجتهاد أو مجاهدة أو تخلق ، ولا بتدريب ، وإنما هي هبةٌ من الله تعالى ، جعلها في رسوله الكريم ﷺ ، وبرزت من يوم شُقَّ صدره الشريف ﷺ وهو صغير .

قال الله عز وجل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[1].

فقوله تعالى : ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ هذه الليونة منه ﷺ إنما هي رحمة من الله تعالى . يمتن جل شأنه بها على رسوله الكريم ﷺ وعلى أمته من بعده ـ فيما ألان به قلبَه على من آمن به واتبع أمره وترك زجره ـ.

قال قتادة رحمه الله تعالى : برحمة من الله تعالى لنتَ لهم .

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : هذا خُلق رسول الله ﷺ ، بعثه الله تعالى به .

فيكون الله سبحانه وتعالى قد جعلها في حبيبه المصطفى ﷺ قبل خلقه ، والله تعالى أعلم .

د ـ هذه الرحمة التي اتصف بها النبي الحبيب ﷺ ليست مختصة في فرد

(١) سورة آل عمران (١٥٩).

معين ، أو في جماعة معينة ، أو في خَلْق معين ، أو لقوم معيَّنين ،... لكنها في كل المجالات ؛ فكما هي[1]: في الدِّين والدنيا ، هي سببٌ للسعادة في الدارين ، وموجبٌ لصلاح المعاش والمعاد ، هي موجبٌ للثواب لمن أطاع ، ورافعةٌ لعذاب الاستئصال لمن عصى وخاب ، هي هدايةٌ إلى طاعة الله سبحانه وتعالى ، أو رفعُ ما كانت تُصاب به الأمم السابقة من عذاب الاستئصال ، الذي كان يصيب الأمة كلها ، بل قد يصيب غيرَهم أيضاً ؛ من غَرَقٍ وخسفٍ ومسخٍ وصعق ،... هي لكل فردٍ من العالَمين ،...إلخ ، والله تعالى أعلم .

هـ ـ إن هذه الرحمة شاملة لكل الخلق ؛ إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم ، كبيرهم وصغيرهم ، بَرِّهم وفاجرهم ، صالحهم وفاسدهم ، عُلْويِّهم وسُفلِيِّهم ، مرئيهم ومَخفِيِّهم ،... وذلك لأن الاستثناء هنا جاء مفرغاً من كل العلل والأحوال ، أي ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة .

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى[2]: أولى القولين في ذلك بالصواب : القول الذي رُوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهو : أن الله أرسل نبيَّه محمداً ﷺ رحمةً لجميع العالَم ؛ مؤمنهم وكافرهم .

ـ فأما مؤمنهم ؛ فإن الله هداه به ، وأدخله ـ بالإيمان به ، وبالعمل بما جاء من عند الله ـ : الجنةَ .

---

(١) انظر : تفسير الطبري (١٨ : ٥٥٢) وتفسير البغوي (٣ : ٢٧١ ـ ٢٧٢) وتفسير الرازي (٢٢ : ٢٣٠) وتفسير الماوردي (٣ : ٤٧٥ ـ ٤٧٦) ونظم الدرر للبقاعي (١٢ : ٥٠٨ ـ ٥٠٩) والدر المنثور (٥ : ٦٨٧) وغيرها .

(٢) تفسير الطبري (١٨ : ٥٥٢).

ـ وأما الكافر؛ فإنه دُفع به عنه عاجلُ البلاء ؛ الذي كان ينزل بالأمم المكذِّبة رسلها من قبله .اهـ.

قلت : وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[1]: هو عام في حق من آمن ، ومن لم يؤمن . فمن آمن فهو رحمةٌ له في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن فهو رحمةٌ له في الدنيا ؛ بتأخير العذاب عنهم ، ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم ،...إلخ.

وقال الإمام البقاعي رحمه الله تعالى[2] : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ أي بعظمتنا على حالة من الأحوال ﴿ إِلَّا ﴾ على حال كونك ﴿ رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ كلهم ؛ أهل السمٰوات وأهل الأرض ؛ من الجن والإنس وغيرهم ، طائعهم بالثواب ، وعاصيهم بتأخير العقاب ،...إلخ.

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى[3]: قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يخبر الله تعالى أن الله تعالى جعل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين ، أي أرسله رحمةً لهم كلهم ، فمن قَبِل هذه الرحمةَ ، وشكر هذه النعمةَ : سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردَّها وجحدها خسر الدنيا والآخرة ،...إلخ .

والرحمةُ في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ ﴾ : إما أن تكون منصوبةً على أنه مفعول له ، أي مفعول لأجل الرحمة ، أو تكون منصوبةً على الحال ؛

---

(١) انظر : تفسير الطبري (١٨ : ٥٥٢) وتفسير البغوي (٣ : ٢٧١ ـ ٢٧٢) وتفسير الخازن (٤ : ٣٢٦) وإعراب القرآن للنحاس (٢ : ٣٨٦) وتفسير ابن كثير (٣ : ٢٠٢) والدر المنثور (٥ : ٦٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٢ : ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٠١).

مبالغةً في أن جعله الله تعالى نفس الرحمة ، أو على حذف مضاف ، أي ذا رحمة ، أو بمعنى الراحم[1].

قلت : وكلٌّ ذلك منطبق عليه ﷺ ، فهو رحمة ، وذو رحمة ، وأرسل بالرحمة ، وبُعث لأجل أن يرحم الله تعالى به ، والله تعالى أعلم .

و ـ شمولية (العالَمين):

إن كلمة **(العالَمين)** ـ هي بالمعنى العام ـ شاملة للسمٰوات والأرض وما بينهما ؛ مِن بحار وقفار ، وجبال ووديان ، ونبات وثمار ، وأنهار وأشجار ،... وما بين ذلك من الهواء والطير والماء ، والحيوان والإنس والجان ، والجامد والسائل ، والمتحرك والساكن ، والناطق والساكت ،... وما يحتوي عليه الجو وباطن الأرض ، وما نراه وما لا نراه ، وما في السماء وما على الأرض ،... كل ذلك وغيره يشمله لفظ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

ويدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون عليهما السلام : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[2].

فقولُه تعالى : ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وتفسير موسى عليه السلام ذلك بقوله : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ دلالة على شمول ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ لكل المخلوقات ، أو قل : هي دلالة على شمول هذه الكلمة على كل ما سوى الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ، ولهذا كثر في كتاب الله عز وجل ذكرُ هذه الجملة المباركة ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ تكرر ذكرها في المصحف الشريف

(١) انظر إعراب القرآن للنحاس (٢ : ٣٨٦) والدر المصون للسمين الحلبي (٨ : ٢١٤).
(٢) سورة الشعراء (١٦ ـ ٢٤).

أكثر من (٤٠) أربعين مرة .

فالله سبحانه وتعالى ربُّ هذه المخلوقات التي خلقها ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وجعل نبيَّه وصفيَّه الحبيبَ ﷺ رحمةً لها جميعاً ، فقال جل شأنه عنه : ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فكل من كان الله تعالى له ربّاً جعل الله عز وجل نبيَّه المصطفى الكريمَ ﷺ له رحمة ، والله تعالى أعلم .

ز ـ لقد عدّى الله تعالى الإرسال باللام ، فقال جل شأنه : ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يعدِّها بالباء ، فلم يقل : بالعالمين ، فما هو السرُّ في ذلك ؟

إن اللام ـ من جملة معانيها ـ تفيد الملك ـ كما قال النحاة ـ كما تفيد شبه الملك ، والذي يُعبَّر عنه بالاختصاص ، ومنه ما يُعبَّر عنه باسم الاستحقاق ، فكأن الله تعالى جعل نبيَّه الكريم ﷺ رحمة ، وجعلها ملكاً للعالَمين ، مختصين بها ، ومستحقين لها ، يعني : شمولية هذه الرحمة للعالَمين ، فهي ثابتة ثبوت الملك للمالك ، فلا تنفك ، وإن كان المقصود ثبوت المنفعة والمردود ، يعني منفعة الرحمة راجعة لعموم العالَمين ، فهي إذاً عامّةٌ شاملةٌ مستحقَّةٌ للعالمين جميعاً ، والله تعالى أعلم .

بخلاف الباء فإنها لا تفيد ذلك المعنى ، إنما تفيد ـ من جملة معانيها كما يقول النحاة ـ التبعيض ، ومعنى هذا لو كانت (بالعالمين) لكانت لبعض العالمين ـ وهم المؤمنون فقط ، ولا تشمل غيرهم ـ ولا شك فإن شمولها للجميع يتناسب مع سعة رحمة الله تعالى ، وكرمه وجوده ، والله تعالى أعلم[1] .

ح ـ السر في جمع (العالمين) :

لكن من الملاحظ أن الله عز وجل ذكر هذه الكلمة **(العالَمين)** وهي

(١) انظر أوضح المسالك (٣ : ٢٩ ـ ٣٩) لبيان معاني اللام والباء ، لأن لكلٍّ منهما اثني عشر معنى .

صيغة جَمْع لكلمة (عالَم).

وكلمةُ (عالَم) تُجمع على صيغتين :

ـ صيغة (عوالم) وهي جمع كثرة ، لكنها موضوعة لغير العقلاء .

ـ وصيغة (عالَمين) وهي جمع قلَّة ، لكنها للعقلاء من الخلق .

فقد ذكر الله تعالى تلك الصيغة ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ تغليباً للأشرف من الخلق على غيرهم ، بالإضافة لوجود الدلالة على العلم ، وهذا لا يكون إلا عند العقلاء ، مع أن غيرَ العاقل ـ من سمٰوات ونجوم وأرضين وجبال وأنهار وبحار وأشجار وحيوان ،... ـ أكثر من العاقل ، كما هو معلوم ، والله تعالى ربهم وخالقهم جميعاً ،...

وذلك راجع ـ والله تعالى أعلم ـ إما لكون الناس والملائكة والجن في جملتهم ، وفي الإنسان : الأنبياء والرسل عليهم السلام ، والعلماء والأولياء والصالحون ، وفي الملائكة الكرام ساداتهم أيضاً ، أو لأنه عنى به أصنافَ الخلائق من الملائكة والجن والإنس ، دون غيرها[1]، والله تعالى أعلم .

ولهذا لا يوجد كلمة (العوالم) في القرآن الكريم .

ط ـ هذه الرحمةُ شاملةٌ في دعوتها ، وواسعةٌ في فروعها ، عامَّةٌ في تعلقاتها ، بارزة في مظهرها ، مفردة في منشئها ،... لكنها مرتبطة بربها جل شأنه الذي خلقها ، وأرسلها ، لهذا قال تعالى في منشئها : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ ﴾ وأما شمولها واتساعها وعمومها فهذا واضح من قوله تعالى : ﴿ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

---

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز (٤ : ٩٥) وانظر خاتمة (محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد).

فإذا كانت كذلك في منشئها ، ثم في مظهرها وتعلقها ، ثم في شمولها وعمومها واتساعها ؛ فكيف يكون ارتباطها بخالقها جل وعز ؟ هذا ما أوضحتْه الآيةُ التاليةُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

ثم كيف يكون ارتباطها بالخلق الذين أُرسل إليهم ؟ هذا ما أوضحته الآية نفسُها ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ مع التنبه للضمير (اللام) فيها ، الذي يفيد التملك والشمول ، والله تعالى أعلم .

لهذا كانت هذه الرحمةُ المهداةُ ظاهرةً في إنسانية الإنسان الكامل ؛ الذي لم تعرف البشرية له نظيراً ، حيث ذابت فيه جميعُ الفوارق ، ولم تفرِّق بين لون أو جنس أو وطن أو عشيرة أو فوارق أخرى ، وربطتها جميعاً برباط واحد ، هو الرباط بالله تعالى ، لا بسواه . إنها شخصية رسول الله ﷺ ؛ الرحمة التامة الكاملة الشاملة المهداة ، الذي اصطفاه الله عز وجل، وميَّزه على جميع خلقه ، وأفرده تعالى بميزات لا توجد عند جميعهم ، فقرَّب بلالاً الحبشي ، وسلمانَ الفارسي ، وصُهيباً الرومي ،... وأمثالهم من الموالي ، على أبي لهب الهاشمي ، وأبي جهل القرشي ،... ونحوهم .

ي ـ إن الله سبحانه وتعالى جعل صفيه وحبيبه الكريم ﷺ قاسماً لما يعطيه الله تعالى .

فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، والله المعطي وأنا القاسم ،... ». متفق عليه[2]. وقد ورد عن غيره أيضاً .

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب من يرد الله به خيراً يُفقهه في الدين ، وكتاب =

ومن الملاحظ أن قوله ﷺ : « الله المعطي وأنا القاسم » قد تنوع سببه ، فجاء هنا في التفقه في الدِّين ، وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه ـ عندهما ـ في تسمية غلام ، بينما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ـ عند البخاري ـ في المال والغنائم .

فالله تعالى هو المعطي حقيقةً ، وهو الراحمُ حقيقةً ، والنبيُّ الرحيمُ ﷺ هو الذي يَقسم ، ويضع حيث يُؤمر « إنما أنا قاسم ، أضع حيث أُمرت ». رواه البخاري[1]. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، والله تعالى أعلم .

ك ـ هذا الترابط بين كونه ﷺ رحمة مهداة من الله تعالى وكونه ﷺ على خُلُق عظيم ، وكونه ﷺ قدوة حسنة . جعله ﷺ قد حاز على الفضائل كلها ، والمراتب العالية ، فماذا بقي بعد ذلك !!!

ل ـ إن حسن معاملة المصطفى الكريم ﷺ للكفار والأعداء ؛ المكابرين والمعاندين في عصره ، وما اتصف به من الرحمة الكاملة التامة ، والأخلاق العالية ، والصفات السامية ،...كل ذلك أثَّر تأثيراً كبيراً فيهم ، فجعلهم ينقادون مرغمين من داخلهم ، فأسلمت جميع تلك القبائل .

فلو نظرنا إلى قريش وما فعلت معه ﷺ ومع أصحابه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وقد فعل ، من صدٍّ وتعذيبٍ وقتلٍ ،... رأيناها قد أسلمت ـ إما طواعية ـ بعد ما اتضح لهم الحقُّ ، وبان لهم النور ، وانقدح في نفوسهم اليقين والبرهان ـ وإما رغماً ـ ثم صَدَقوا وأحسنوا ، ولم يُقتل منهم إلا نحو

= فرض الخمس : باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وفي غيرها. وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب النهي عن المسألة ، رقم (١٠٠).

(١) صحيح البخاري : كتاب الخمس : باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾.

من ثلاثين ومائة نفس تقريباً ، من أول الهجرة إلى يوم الفتح ، الذي ظهرت فيه الرحمة بأكمل صورها ، وأجمل مظهرها ، وصار أعداؤُه ﷺ بالأمس أكابرَ أنصاره ، وأعاظمَ أعوانه ، وأشدَّ المدافعين عنه ، والمفدينه ﷺ بكل غال ، بعد طول ضلال ، وغَرَقٍ في بحار الوثنية ، وإيضاع في صنوف الصد والعداوة والبهتان ، فعلموا أنه لا ناصر إلا الذي أَرسل هذه الرحمةَ ، التي شملهم بها ، وأيقنوا بجدواها ،... لذا سارعوا إلى الانطواء تحت ظلها ، والانضواء تحت جناحها ، والتفؤ بظلالها ،...

واستمر ذلك إلى اليوم ، ولله الحمد والمنة ، وسيستمر بإذن الله تعالى ، وما نراه ونسمعه عن هذه الأعداد الكثيرة التي تعلن إسلامَها يومياً ، وفي مناطق مختلفة من العالم ، وتنضم إلى جماعة المؤمنين طواعية ـ مع عدم وجود دعاة كافين ، وبعثات متخصصة ، وعلماء مهتمين ،... بالعدد الكافي ـ إلا برهان على ذلك ، والله تعالى أعلم .

ـ جعله الله تعالى نبيَّ الرحمة :

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن جعل نبيَّه المصطفى الكريمَ ﷺ نبيَّ الرحمة ، وأرسله تعالى إلى خلقه جميعاً . لذا ظهر ذلك جليّاً في شخصه الكريم ، ودعوته ، ومعاملته للخلق جميعاً ؛ العدو والصّديق ، والكافر والمؤمن ، والسهل والصعب ،...إلخ.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُسمّي لنا نفسَه أسماء ؛ فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والمقفّى ، والحاشرُ ، ونبيُّ التوبة ، ونبيُّ الرحمة ». رواه مسلم[1].

(١) صحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب في أسمائه ﷺ ، رقم (١٢٦).

ـ بعثه الله تعالى رحمة :

فكما أنه ﷺ نبيُّ الرحمة ، فقد بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وهذا ما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، وهذه الرحمة لم ينلها ﷺ باجتهاد منه ومجاهدة ومصابرة ، إنما هي من الله تعالى جبل عليها رسولَه الكريم ﷺ .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ، أدع على المشركين . قال : « إني لم أُبعث لعّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمةً ». رواه مسلم[1].

وعن سلمان رضي الله تعالى عنه ـ في قصة شرطه ﷺ على ربه تعالى ، وفيه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ...وإنما بعثني رحمةً للعالمين ». رواه أحمد وأبو داود والطبراني[2] برجال ثقات ، وأصل الحديث وارد في الصحيحين من غير طريقه . إلخ ذلك من الأحاديث .

ـ جعله الله تعالى رحمةً مهداة للعالمين :

لقد أخبر رسولُ الله ﷺ عن نفسه الشريفة بأنه رحمةٌ مهداةٌ من الله تعالى إلى جميع العالمين . لذا كيف يعاملهم وهو رحمة لهم ؟

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ ». رواه الحاكم وصححه ، وأقره الذهبي ، والطبراني والبزار برجال الصحيح ، في آخرين[3].

(١) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب النهي عن لعن الدواب ، رقم (٨٧).

(٢) مسند أحمد (٥ : ٤٣٧) وسنن أبي داود : كتاب السنة : باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ ، رقم (٤٦٥٩) والمعجم الكبير (٦ : ٣١٨ـ٣١٩).

(٣) المستدرك (١ : ٣٥) والمعجم الصغير (١ : ١٦٨) والمعجم الأوسط (٣ : ٢٢٣) وكشف الأستار (٣ : ١١٤) ومسند الشهاب (٢ : ١٨٩ ـ ١٩٠) والمعجم لابن الأعرابي (٣ : ١١٣٦ ـ ١١٣٧) ودلائل النبوة (١ : ١٥٧ ـ ١٥٨) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٥٧) ومجمع البحرين (٦ : =

لقد جعله الله تعالى رحمةً ، وخلقه كذلك ، وأهداها إلى العباد جميعاً ، وبهذا برزت تلك الرحمة في معاملته ﷺ للخلق جميعاً .

ـ جعله الله تعالى رحمة للمؤمنين :

إذا كان الله تعالى قد جعل نبيه المصطفى الكريم ﷺ رحمةً للعالمين ـ والناسُ من جملة العالَمين ـ وبعثه رحمةً ، وبالرحمة ، وقد ظهر ذلك جليّاً كما بينته في (الرحمة المهداة ﷺ) فكيف هو لأمته ؟

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى ورسولُه الرحيمُ ﷺ لنا ذلك ، وأنه ﷺ رحمةٌ لأمته ، كما هو رحمة للعالمين ، لأن أمَّتَه ﷺ من جملة العالمين . بل هي أولى بذلك من سائر العالمين ، لأن الله سبحانه وتعالى اصطفاها حتى تكون أمتَه . كما اختاره الله عز وجل ليكون نبيّاً ورسولاً لها ، والله تعالى أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ ﴾[(١)] .

ـ جعله الله تعالى رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين :

بل إن الله سبحانه وتعالى خصَّ المؤمنين من الخلق بشمولية أكثر ، حيث جعل نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ رؤوفاً رحيماً بهم . والرحيم : على وزن فعيل . وهذه الصيغة : هي مبالغة من اسم الفاعل ، وهي غايةُ المبالغة في الرحمة مع أمته .

كما أضاف الله تعالى وصفاً آخر هو غاية الرحمة أيضاً ، وهو الرؤوف ، لذا سمّاه الله تعالى رؤوفاً رحيماً .

= ١٣٢) وأمثال الحديث للرامهرمزي (٢٩).

(١) سورة التوبة (٦١).

قال الله جل شأنه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

إذا كان رسول الله ﷺ رحمةً للعالمين ، فهو ﷺ رحمةٌ لأمته من باب أولى ، بل هو أكثر ، إنه رحيمٌ بها ، فلا رحمة فوق هذا الوصف ، ولا غاية فوقها ، وهكذا عُرِف ﷺ بين الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم .

فعن مالك بن الحُوَيرث رضي الله تعالى عنه قال : أتينا رسولَ الله ﷺ ، ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلةً ، وكان رسولُ الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فظن أنّا قد اشتقنا أهلنا ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[٢].

ـ هو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم :

ومن رحمته ﷺ المتناهية بأمته المؤمنين ؛ أنه أولى بهم من أنفسهم ، وأن أزواجه ـ أمهات المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنهن بمنزلة أمهاتهم ، في الحرمة والمكانة ، والله تعالى أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾[٣].

وإذا كان أزواجه رضي الله تعالى عنهن بهذا المقام فهو بمقام الوالد ، فكيف تُعامِل الأمُّ أولادَها ؟ وكيف يعامل الوالدُ أولادَه أيضاً ؟ والجواب : هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، كما قال تعالى ، وكما أخبر ﷺ هو عن نفسه .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا

---

(١) سورة التوبة (١٢٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الأذان : باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب المساجد : باب من أحق بالإمامة ، رقم (٢٩٢).

(٣) سورة الأحزاب (٦).

أولى بالمؤمنين من أنفسهم ». متفق عليه[1].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه ـ في صفة خُطبته ﷺ ، وفيه قوله ﷺ ـ : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ». رواه مسلم[2].

وولايته ﷺ للمؤمنين ليست خاصة في الدنيا فحسب ، بل هي مستمرة وشاملة وعامة في الدنيا والآخرة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة ،... ». متفق عليه ، واللفظ للبخاري[3].

وإذا كان ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة فكيف تكون رحمتُه بهم ، وحرصُه عليهم ، وعنايتُه بهم ، وشفقتُه عليهم ، وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم ؟ لقد أخبر الله تعالى عن حرصه ﷺ بأمته ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ وصار تعالى يسليه بألّا يذهب نفسه عليهم حسرات ، وألّا يهلكها من فرط تأثره عليهم ، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى بعد قليل .

ـ هو ﷺ أولى بالأنبياء عليهم السلام من أممهم :

وإذا كان رسول الله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإن الله تعالى جعله أولى بالأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام من أممهم أيضاً ، ومن كان أولى بالأنبياء عليهم السلام من أممهم فكيف يكون هو مع أمته ؛ المؤمنين به ، والقائمين بشرعه ، والمتبعين له ؟

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الكفالة : باب الدَّين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفرائض : باب من ترك مالاً فلورثته ، رقم (١٤).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجمعة : باب تخفيف الصلاة والخطبة ، رقم (٤٣).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الاستقراض : باب الصلاة على من ترك دَيناً . وصحيح مسلم : كتاب الفرائض : الباب السابق ، رقم (١٥ ، ١٦).

ولما كان أشهر الأنبياء إبراهيم ثم موسى وعيسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، فإني أذكر ما يتعلّق بهم .

قال الله تعالى ـ عن إبراهيم عليه السلام ـ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وأما عن موسى وعيسى عليهما السلام :

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ المدينةَ ، فوجد اليهودَ يصومون يومَ عاشوراء . فسُئلوا عن ذلك ، فقالوا : هذا اليومُ الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيماً له .

فقال النبيُّ ﷺ : « نحن [أحقُّ و] أولى بموسى منكم ».

وفي لفظ : « أنا أولى بموسى منهم ». متفق عليه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى بعيسى ابن مريمَ في الدنيا والآخرة ،...». متفق عليه ، واللفظ للبخاري[3].

ـ خفض جناحه ﷺ دلالة على عموم رحمته :

لقد وصف الله تعالى رسولَه الكريمَ ﷺ بأنه رؤوف رحيم ، وأنه رحمة

(١) سورة آل عمران (٦٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب إتيان اليهود النبيَّ ﷺ حين قدم المدينة . وصحيح مسلم : كتاب الصيام : باب صوم يوم عاشوراء ، رقم (١٢٧ ، ١٢٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾. وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب فضائل عيسى ابن مريم عليه السلام ، رقم (١٤٣).

للعالمين ،... ومع هذا فقد طلب الله سبحانه وتعالى منه أن يخفض جناحَه للمؤمنين ، وقد ظهر هذا واضحاً في معاملته ﷺ لهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾(1).

وقال جل شأنه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(2).

فحال هاتين الآيتين كحال الآية السابقة في بيان أنه ﷺ رحمة . مع زيادة أمر آخر ؛ وهو أنه ﷺ نذير ، والنذير يقتضي وجود الرحمة ، إذ لولا الرحمة عنده ما أنذر قومَه ، لذا كان ﷺ لا يدانيه أو يقاربه أحدٌ من الخلق ؛ في التواضع وخفض الجناح ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في الفقرة التالية .

ـ كونه ﷺ ليس بفظٍّ ولا غليظٍ دلالة على عموم رحمته :

لقد أخبر الله تعالى عن نبيِّه المصطفى الكريم ﷺ بأنه لم يكن فظّاً غليظاً ، إذ لو كان كذلك لانفض الناس من حوله ، وأن هذا الوصف الكريم هو من جملة أوصافه الموجودة في الكتب القديمة عنه ﷺ .

وتظهر مكانة هذا الوصف إذا عرفنا حال القوم الذين بُعث إليهم ﷺ ، وخاطبهم .

---

(١) سورة الحجر (٨٧ ـ ٨٩).

(٢) سورة الشعراء (٢١٤ ـ ٢١٥).

قال الله عز وجل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾[1].

فهذا إخبار من الله تعالى عن رحمة حبيبه وخليله ﷺ، وكرم أخلاقه ، فهو في غاية التواضع والرحمة .

أما وجود هذا الوصف الكريم في الكتب السابقة فيوضحه ما يلي :

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما ـ وقد سُئل عن وصف النبي ﷺ في التوراة ـ فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ،... فأنت عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا سخّابٍ في الأسواق ، ولا يدفع السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئةِ ، ولكن يعفو ويغفر ،... الحديث ، رواه البخاري[2].

ـ حرصه ﷺ عليهم :

ومن رحمته ﷺ بالخلق عامة ـ وبالمؤمنين خاصة ـ حرصه عليهم ، وتأثره الشديد إذا ما أصيبوا بمصيبة ، ورأفته بهم ، وما كان يُكنُّه قلبُه الشريفُ على هدايتهم ونجاتهم ، وخلاصهم مما يتتابهم ، حتى إن الله تعالى صار يواسيه ويسلّيه ويلاطفه ، بألّا يُهلك نفسَه الشريفةَ ، أو يقتلها حزناً وأسى وحسرةً وجزعاً ،... عليهم . بعد أن شهد سبحانه وتعالى له بشدة حرصه على هداية الخلق ، وخاصة على أمته .

قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران (١٥٩).

(٢) صحيح البخاري : كتاب البيوع : باب كراهية السخب في الأسواق ، وفي غيرهما.

(٣) سورة التوبة (١٢٨).

وقال الله جل شأنه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(١) أي : فلعلك قاتل نفسك ، أو مهلكها حزناً وأسفاً .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾(٢). أي : فلا تهلك نفسك عليهم أسى وحزناً وحسرةً ،...

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٣).

وكل هذا دالٌّ على وجود الرحمة المتناهية ، وإلا لَمَا كان منه ﷺ ما كان من الحرص وبخع النفس عليهم ، وإذهاب النفس حسرة وحزناً ، والحزن عليهم ، فكل ذلك دالٌّ على وجود الرحمة المتناهية ، والله تعالى أعلم .

ـ تخفيفه ﷺ عنهم ما يشق عليهم :

ومن رحمة الله تعالى المتمثلة بالرحمة المهداة ﷺ أن رفع عن هذه الأمة ـ وعن غيرها ممن خاطبها ـ ما كان فيه مشقة في الأمم السابقة

قال الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ... ﴾(٤).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى من أوصاف نبيِّه الكريم ﷺ ـ في الكتب السماوية السابقة ـ أنه يرفع المشقَّةَ والتشديد في الأحكام ، والأغلالَ التي

(١) سورة الكهف (٦). وانظر : سورة الشعراء (١ ـ ٣).

(٢) سورة فاطر (٨).

(٣) سورة النمل (٧٠) وانظر سورة النحل (١٢٧).

(٤) سورة الأعراف (١٥٧).

كانت موجودةً في الأمم السابقة ،... وكلُّ ذلك نابعٌ من الرحمة ، إذ لولا الرحمةُ التي خُصَّ بها ما رُفع ذلك ، والله تعالى أعلم .

ويتضح الفارق الكبير ، بين فعله وشرعه ﷺ وبين ما كان عليه الحال في الأمم السابقة ؛ وقد ذكرت نماذج متعددة في : الأمانة العظمى ، ومكانة النبي الكريم ﷺ ، وعظيم قدره ﷺ ،...

مثل : إلغاء عقوبة القتل عن التائب ، والصلاة حيث كان ، ولا يشترط مكان مخصَّص ، ويُكتفى بالتوبة والندم ، ومشروعية التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله ، وعقوبة قرض ما أصاب البولُ من ثوب أو جلد الإنسان ، ويُكتفى بغسله بالماء ، ورفع الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، والترخيص في مخالطة الحائض ،... وغير ذلك كثير مما كان محظوراً في الأمم السابقة .

ـ دعواته ﷺ المستمرة لأمته في حال حياته وبعد وفاته :

لا أعلم رسولاً دعا لأمته ما دعا رسول الله ﷺ لأمته ، بل قد يبكي ﷺ عند دعائه لها ، دلالة على مدى حرصه ﷺ عليها ، ورحمته بها . والنصوص في دعواته ﷺ لأمته أكثر من أن تحصى .

فقد دعا ﷺ لها بالمغفرة ، والرحمة والنصر والتمكين وعدم الهلاك ؛ سواء بالغرق أو الجوع ، أو تسلّط الكفار عليها ،...

بل قد يعتذر ﷺ عما فعله معه كفار قريش ـ وهم كفّارٌ أعداء ـ يوم أحد « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ». متفق عليه ، كما سيأتي .

وقد مر قوله ﷺ ـ عندما قيل له : يا رسول الله ؛ ادع على المشركين ـ فقال : « إني لم أُبعث لعّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمة ». رواه مسلم .

ولما طُلب منه ﷺ أن يدعو على قبيلة دَوْس ، لأنهم أبطؤوا عن الدخول في الإسلام ، لم يدع عليهم ، بل دعا لهم بالهداية والإتيان ، فقال : « اللهم اهد دَوْساً ، وائتِ بها ». رواه مسلم .

بل جعل الله تعالى حياة نبيه الحبيب الرحيم ﷺ كلَّها خيراً ورحمةً لأمته ، حيث تُعرض أعمالُها عليه ، فإن وجد خيراً حمد الله تعالى ، وإن وجد غير ذلك استغفر الله تعالى لها . كما بيَّنتُه في الكتابَيْن المذكورَين ، والله تعالى أعلم .

ـ دينه ﷺ دين السماحة واليسر :

ومن رحمته تعالى التي أهداها للعالمين ؛ أن جعل هذا الدين الكريمَ دينَ الرحمة واليسر والسماحة ، فلا عسر فيه ، ولا حرج ، ولا مشقة ، ولا غلو ، ولا تعنت ،... بخلاف ما كان في الديانات السابقة .

وقد بيَّن ﷺ أنه بُعِث ميسِّراً ، ولم يُبعث معسِّراً ، والتيسير يقتضي الرحمة ، وإلا لم ييسِّر ، والله تعالى أعلم .

فعن جابر رضي الله تعالى عنه ـ في قصة سؤال أمهات المؤمنين رضي الله عنهن رسولَ الله ﷺ الزيادة في النفقة ، واعتزاله ﷺ لهن شهراً ، ونزول آية التخيير ، وقراءته ﷺ الآية على عائشة رضي الله تعالى عنها ـ وفي آخره قال ﷺ : « إن الله لم يبعثني معنِّتاً ولا متعنِّتاً ، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً ». رواه مسلم(١).

وقال جل شأنه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(٢).

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الطلاق : باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ، رقم (٢٩).

(٢) سورة البقرة (١٨٥).

بل جعل تعالى الدّين كلَّه لا حرجَ فيه ، ولا مشقَّة ، ولا تعسير فيه ، ولا تضييق ، وإنما هو حسب طاقة الإنسان .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1].

لذا حث ﷺ أُمَّتَه على التيسير وعدم التعسير ، وعلى التبشير وعدم التنفير ، وكل ذلك يقتضي وجودَ الرحمة في القلب .

وأذكر حديثين فقط ، وإلا فالأحاديث كثيرة .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يسِّروا ولا تُعسِّروا ، وبشِّروا ولا تُنفِّروا ». متفق عليه[2].

وروياه[3] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه .

لو اقتصر على قوله : « يسِّروا » لصدق على من يسَّر مرةً وعسَّر كثيراً ، فلما قال ﷺ : « ولا تعسِّروا » نفى التعسيرَ في جميع الأحوال . أفاده الإمامُ النووي رحمه الله تعالى .

لذا اتضح أن دينه ﷺ دينُ اليسر والسماحة ، والتبشير والهداية ، والمودة والتقريب ، والرحمة والعطف ،... وليس دينَ العسر والتعسير ، والإبعاد والتنفير ، والتطرف والغلو ، والعنف والإرهاب ، كما يزعم العدو ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الحج (٧٨). وانظر سورة المائدة (٦).

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب ما كان النبيُّ ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ، رقم (٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٦ ، ٧).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ـ في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ـ وفيه فقال لهم رسول الله ﷺ : « دعوه ، وأهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء ـ أو ذَنوباً من ماء ـ فإنما بُعِثتُم مُيسِّرين ، ولم تُبعثوا مُعسِّرين ». رواه البخاري[1].

ـ كونه ﷺ بشيراً ونذيراً يقتضي الرحمة للعالمين :

إن الذي يُنذر قومَه ـ خاصة من أمر خطير ـ إنما يبعثه الحرصُ والرحمةُ والشفقةُ عليهم ، حتى لا يُصابوا بأذى . ولو كان غيرَ مبال بما يحدث لهم لم ينذرهم ، ولم يُخوِّفهم .

ولما كان النبي المصطفى الكريم ﷺ رسولاً إلى البشرية كلها ، وهو رحمة للعالمين ، وهو رؤوف رحيم بالمؤمنين ؛ لذا كان نذيراً وبشيراً للبشرية كلها ، وليس للعرب خاصة ، أو لقومه قريش فقط . لذا كان ﷺ يحمل بين طيات جنباته الكريمة : الرحمةَ والرِّقةَ والشفقةَ والحنو والمحبة والعطف والرأفةَ والعفوَ والصفحَ واليسرَ ،...إلخ.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية كثيرة في هذا الباب ، أقتصر على ذكر بعضها .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[2].

وقال جل شأنه : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ ﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الوضوء : باب صب الماء على البول في المسجد ، وفي غيرهما .

(٢) سورة سبأ (٢٨).

(٣) سورة المائدة (١٩).

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا * وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾[1].

فقد جعله تعالى للخلق كافة ـ سواء كانوا كفّاراً أو أهل كتاب أو مشركين ـ بشيراً ونذيراً ، لذا شملتهم جميعاً رحمته ﷺ ، كما شملتهم بشارتُه ونذارتُه ، فمن أطاعه بشّره بالجنة والرحمة والمغفرة ،... ومن عصاه أنذره عقابَ الله تعالى ونقمتَه ونارَه ،... وهذا عين الرحمة ، إذ لولا الرحمة لما أنذر ، والله تعالى أعلم .

وأقتصر على ذكر حديثين واضحي الدلالة على الموضوع .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثل الناس ؛ كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ ويغلبنه فيتقَحَّمْنَ فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحَّمون فيها ». متفق عليه ، واللفظ للبخاري[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً ، فقال : رأيتُ الجيشَ بعَينَيَّ ، وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفةٌ فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة [فأصبحوا مكانهم] فصبَّحهم الجيشُ فاجتاحهم ». متفق عليه[3].

(١) سورة الأحزاب (٤٥ ـ ٤٧).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب الانتهاء عن المعاصي . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب شفقته ﷺ على أمته ، رقم (١٧ ، ١٨).

(٣) صحيح البخاري ، وصحيح مسلم : في الكتابين والبابين السابقين ، ورقمه عند مسلم (١٦).

فمن رحمته ﷺ أنذرهم ، ومن شفقته عليهم حذَّرهم ، ومن رأفته بهم خوّفهم ، لذا من أطاعه سعد ونجا ، ومن عصاه وخالف أمره هلك ، ولا يلومنَّ إلا نفسه ، وكان هو السبب في هلاكه نفسه ، والله تعالى أعلم .

ـ جعله الله تعالى سراجاً منيراً دلالة على رحمته بالعالمين :

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بالعالَمين أن جعل رسولَه النبيَّ الكريم ﷺ سراجاً منيراً ، فقال الله عز وجل مخاطباً نبيَّه الكريمَ ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1] .

لم يجعله سراجاً وهّاجاً ـ كما هو وصف الشمس ـ ﴿ سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾[2] وذلك لأن الوهّاج : هو الحار المضطرم الاتقاد ، المتعالي اللهب ، وهذا لا يحسن رؤيته عن قرب ، لأنه يحرق . كما لم يجعله منيراً ـ كما هو وصف القمر ـ ﴿ وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴾[3] لأن نوره يحتاج دائماً إلى منوِّر ، ثم إنه يزول بالليل .

وإنما أخذ ﷺ من الشمس وصفَ السراج ، وأخذ من القمر وصفَ الإنارة ـ فيكون قد جمع بين ضياء الشمس ونور القمر ـ وهما متضادان ـ رحمة بالخلق .

وعبَّر عنه بالسراج ؛ لأنه يزيل الظلمات ، ويَقتبس منه المهتدون إلى مناهج الرشد والهداية ، كما تزيل الشمسُ ظلَّ الأرض في الليل ، ويستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ، كما يهتدي بالسراج في الظلام .

والسراجُ يضيء من جميع الجهات الكونية ، إلى جميع العوالم ، إلا من عمي

(١) سورة الأحزاب (٤٥ ـ ٤٦).

(٢) سورة النبأ (١٣).

(٣) سورة الفرقان (٦١).

وانطفأت بصيرته ؛ كأبي جهل وأمثاله ، كما قال الله جل شأنه : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(١).

ووُصف بصيغة المبالغة ﴿مُّنِيرًا﴾ لأن الله جل شأنه هو الذي نوَّره ، بخلاف السراج ـ فهو وإن كان ضوؤه من نفسه ، وينوِّر غيرَه ، لكنه لا يُضيء إذا قلَّ سليطه ، أو دقَّت فتيلته . بينما نورُه ﷺ فمن الله تعالى ، لذا لا يخبو ، ولا ينطفئ .

ووصفه بوصفَي الشمس والقمر لأن نورهما أتم من نور السراج .

ثم سماه سراجاً ، ولم يسمِّه شمساً ولا قمراً ، لأنهما يزولان يوم القيامة ، ويُكوَّران في النار ، بينما نوره ﷺ يبقى .

وسماه سراجاً ، لأنه ينتقل عن مساره ، بخلاف الشمس والقمر ، فلا ينتقلان .

ولم يوصفه بالوهّاج ، لأن التوهج يؤذي ، والنفع أقل ، والضرر أكثر ، بعكس النور فإنه يريح .

وبهذا يكون الله جل شأنه قد اختار له وصفاً من الشمس ـ سراجاً ـ ووصفاً من القمر ـ منيراً ـ وجمع له بينهما ليقع النفع الكامل للخلق ، وتقع الهداية ، وهذا غاية الرحمة ، والله تعالى أعلم .

ـ الترابط بين الرحمة وحسن الخلق :

لقد جمع رسولُ الله ﷺ بين الرحمة والخُلق العظيم ، وظهر ذلك في حياته ﷺ ، لذا يصعب التفريق بينهما ، هذا الترابط الدقيق المتناهي بين كونه ﷺ رحمةً مهداة من الله تعالى وكونه ﷺ على خُلُق عظيم ، جعله ﷺ

(١) سورة الأعراف (١٩٨).

يحوز على الفضائل كلها ، والمراتب العالية ، لذا كان ﷺ قدوةً حسنة لجميع الخلق . فماذا بقي بعد ذلك !!!

ـ قبض الله تعالى نبيه الكريم ﷺ قبل أمته دلالة على رحمته تعالى بها .

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بهذه الأمة ، وشمولها برحمته المهداة : أن قبض الله سبحانه وتعالى نبيَّها الكريمَ ﷺ قبلها؛ ليكون لها فَرَطاً وسلفاً بين يديها . بخلاف ما إذا تُوفي بعدها ، فيشهد عذابَها ، وهذا يتنافى مع الرحمة ، وهذا الحديث من معجزاته ﷺ .

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده ؛ قبض نبيَّها قبلها ، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها ، وإذا أراد هلَكةَ أمةٍ ؛ عذَّبَها ونبيُّها حيٌّ ، فأهلكها وهو ينظرُ ، فأقَرَّ عينَه بهلَكَتِها ؛ حين كذَّبوه ، وعصوا أمرَه » . رواه مسلم[1].

ولما كان ﷺ رحمة ، ورؤوفاً رحيماً ، ورسالته كلها رحمة ، وبُعث رحمة وبالرحمة ،... فقد شملت الإنس والجن ، والحيوان والنبات ، كما سبق بيانه .

لذا لو علم الكافر حقيقةَ شمول الرحمة المهداة ﷺ له في الدنيا ؛ لعجز عن شكره وشكر مولاه ، ولبادر بالإيمان به ، وتصديقه واتباعه ، بل لعجز عن حبِّه وتوقيره ، إذ لو لم تشمله لهلك كما هلكت أقوام قبله ، ممن هم على شاكلته ومعتقده .

لذا تعددت مظاهر هذه الرحمة ،... فشملت الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ، كما شملت هذه الأمة بعدهم في الدنيا والآخرة ، شملت

(١) صحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب إذا أراد الله سبحانه وتعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها ، رقم (٢٤).

النساء ، والصبيان والكبار والصغار ، والصالحين والعصاة ، والمطيعين والمخالفين ، والحاضرة والبادية ، واللَّيِّنين والجفاة ، ولم تشمل المؤمنين فحسب ، بل شملت الكفار ، والمشركين ، وأهل الكتاب ،... وغيرهم ، وكل ذلك في الدنيا والآخرة ، لكن سأقتصر في هذه الرسالة على بيان رحمته ﷺ بالكفار عموماً ؛ بما فيهم المشركون وأهل الكتاب والمنافقون .

ـ الرحمة إنما هي من القوي[1] .

وقبل إنهاء هذا الفصل أحب أن أنبه إلى قضية مهمة ، وهي : **أن الرحمة لا تكون إلا من قوي** ، ومما يدل على ذلك :

ـ لقد أخبرنا الله تعالى أنه هو الرحمن الرحيم ، وهو مالك الرحمة ، وأن رحمته تعالى وسعت كلَّ شيء ، وأن رحمتَه سبقت غضبَه ،... ومع هذا فإنه تعالى شديد العقاب على من عصاه ، وأنزل إنذارَه الشديد على المخالفين ،...

ـ إذا كان من أسماء الله تعالى : الرحمن ، الرحيم ، الرؤوف ، الودود ، السلام ، الغفّار ،... وغيرها من الأسماء الجمالية . فإن من أسمائه تعالى أيضاً الملك ، الجبّار ، القهّار ، المنتقم ،... وغيرها من الأسماء الجلالية والقهرية .

ـ إذا كان الله تعالى خلق لمن يرحمهم الجنةَ ، ودعا عبادَه إليها ،... فإنه تعالى خلق لمن عصاه النارَ ، وفيها من ألوان العذاب ما تشيب له الرّضّع .

ـ إذا كان الله تعالى أنزل جزءاً من مائةٍ من الرحمة ؛ ليتراحم به الخلائق ، وأبقى عنده تسعة وتسعين ،... فإنه تعالى يعاقب من خالفه أشد العقوبة ، لذا أنزل الحدود والعقوبات ،...

ـ إن الله تعالى يتودد إلى عباده ، ويتقرّب إليهم أضعاف ما يتقرّبون إليه ،

---

(١) انظر : الرحمة المهداة ﷺ ، فقد اختصرته منه .

ومع هذا فقد حذّرهم الشيطان ،... ومخالفته تعالى وعقوبته ،...

والخلاصة : فبقدر ما يعطي تعالى من الرحمة ، يخوّف من العذاب ، وبقدر ما يحبب تعالى إلى خلقه من الإيمان والطاعة ، يكرِّه إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ،... فهو تعالى غفور رحيم ، وهو شديد العقاب ، وعنده من العذاب ما يخيف المؤمن التقي ، ومن الرحمة ما يطمع بها الكافر . وإن كانت رحمته قد سبقت غضبه .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وهكذا جعل الله تعالى نبيَّه المصطفى الكريمَ ﷺ أيضاً .

ـ إن النبي المصطفى الكريم ﷺ رحمةٌ مهداة للعالمين ، ونبيُّ الرحمة ، وهو رؤوف رحيم . ومع هذا فهو الشديد على المعاند حتى يؤمن ، وعلى المنتهك لمحارم الله تعالى حتى يؤوب ،...

لذا كان ﷺ يتودد إلى الناس ، ويتحرَّق على هدايتهم ، ويحرص على إيمانهم ، حتى كاد أن يذهب نفسه حسرات عليهم ،...

ـ لقد أُعطي ﷺ من الهيبة والجلال ... مما أعجز جُلّاسُه عن وصفه ، ويعجز الرجال الذين عُرفوا بقوة شكيمتهم وقوة نفوسهم النظر إليه ﷺ ،... ومع هذا فقد كان ﷺ : متواضعاً ، حليماً ، صبوراً ، شفوقاً ، رؤوفاً رحيماً ، عطوفاً حنوناً ،... رحيماً بالصبيان والعيال والنساء ، لا ينتقم لنفسه ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ،...

والخلاصة : فقد اجتمعت فيه ﷺ من الرحمة ما تفرق في الكُمَّل من الرجال ، وزاد عليهم بأنه ﷺ رحيم ، رحمة مهداة للعالمين .

(١) سورة المائدة (٩٨).

لقد جمع ﷺ بين الهيبة والرحمة ، بين القوة والرأفة .

فالهيبة : ما يقع في قلب الرائي بما فيه ﷺ ؛ من صفات الجمال والجلال والكمال ، أما الرحمة : فهي في ما سكن في قلبه ﷺ وفاض على ظاهره .

ـ لقد جمع الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ بين ما هو متنافر وجوداً ، ومتناف ظاهراً ، كما هو الحال في كونه ﷺ فرطاً لأمته وهو شاهد عليها[١].

ففي إقامته ﷺ الحدَّ على مرتكبه ، يكون ﷺ في الباطن غاية الرحمة على من يقام عليه . فهو يأمر بإقامة الحد ـ تنفيذاً لأمر الله تعالى ـ وهو في نفس الوقت غاية الرحمة والشفقة على من يقام عليه الحد . لذا لا يرضى أن يُلعن ، أو يسب ، بل يطلب الدعاء له ، والترحم عليه[٢].

لقد أخبرنا تعالى أنه أمر الناس بتوحيده وعبادته ، وحرَّم عليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأنه تعالى جعل نبيه الكريم ﷺ هو العالمي الوحيد ، وكل الرسل عليهم السلام كانت دياناتهم قوميةً محليةً لأقوامهم فقط ،... وقد جعل الله تعالى الإسلامَ ناسخاً لجميع الديانات ، وجعل تلك الديانات مقدِّمةً لهذا الدين ، وأنه تعالى أمر نبيَّه الكريم ﷺ أن يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته ، وترك كل ما يخالف ذلك . أَمرَه أن يعيد من شرد من حظيرة الإيمان إليها ، ومن هرب من ربه تعالى بالعود والفرار إليه ، فإذا أبوا وعاندوا ، ورفضوا الإيمان والطاعة والعودَ إلى ربهم : فما مصيرهم ؟؟؟

(١) انظر ما كتبته حول حديث عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه في الخصائص وعظيم قدره ﷺ ، وانظر قول الحافظ العراقي رحمه الله تعالى في طرح التثريب (٣ : ٢٩٧) حول هذا الموضوع .

(٢) انظر : الرحمة المهداة ﷺ لبيان حاله ﷺ على من يقام عليه الحد ، ومنعه ﷺ من لعنه أو سبه ، بل يطلب الدعاء له ، ويبين فضلَ من أقيم عليه الحد .

ـ إن إرساله ﷺ بالجهاد لا يتنافى مع الرحمة التي خُص بها . وذلك : لأن الأصل في الإنسان الإيمان والطاعة . وأن الكفر والمعصية طارئ . لذا فإنه ﷺ لا يقصد من الجهاد العدوانَ ، ولا رغبةً في الانتقام ، ولم يكن ﷺ متعطِّشاً لسفك الدماء ، إنما يعيد الذين شردوا إلى ربهم تعالى ، ويصحِّح من فسد حاله ، ويرمِّم من هوى دارُه . كما أمره الله تعالى بذلك ، فمن استجاب له شملته الرحمةُ في الدنيا والآخرة ، ومن عصا شملته الرحمةُ في الدنيا ـ برفع عذاب الاستئصال عنه ـ وعوقب في الآخرة على عصيانه وامتناعه وعناده . فالذي يخالف هو المسؤول عن عصيانه وشروده ، وعلى خطئه وتقصيره ، والله تعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

*****

فصل

مظاهر رحمته ﷺ بالكفار

لا أعلم في تاريخ البشرية ـ على جميع المستويات قديماً وحديثاً ـ من عامَل الكفّار المعاندين ، حتى لو كانوا أعداءَه الألداء ـ معاملةَ النبي الكريم الرحيم ﷺ للكفار . على ألّا يتعرَّضوا لعقيدة الإيمان ، والطعن في شريعة الإسلام ، والأحكام العامة ،...

والأدلة على شمول الرحمة المهداة لجميع الخلق بما فيهم الكفّار كثيرة جدّاً، لكني سأقتصر ـ في هذا الفصل ـ على ذكر ما يتعلق بالكفار.

ورحمته ﷺ بالكفار ظهرت في مكانَين عامَّين ؛ في الدنيا ، وفي الآخرة . ومظاهر ظهورها في هذين المكانين كثيرة جدّاً، لكني سأقتصر على ذكر بعضها لكثرتها أيضاً .

لذا سيكون الحديث عن شمول الرحمة المهداة ﷺ للكفار إن شاء الله تعالى في مبحثين :

المبحث الأول : مظاهر الرحمة المهداة ﷺ في الدنيا .

المبحث الثاني : مظاهر الرحمة المهداة ﷺ في الآخرة .

وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا وشفيعنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله الطَّيبين الطاهرين ، وصحابته الكرام المبجَّلين ، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين .

*****

المبحث الأول
مظاهر الرحمة المهداة ﷺ في الدنيا

إن النصوص التي تحمل بيان مظاهر الرحمة المهداة بالكفار ـ سواء كانوا أهل كتاب أو مشركين أو منافقين ـ والأعداء في الدنيا كثيرة ، ومن أراد الزيادة في معرفة شمولها لجميع الفئات فلينظر في (الرحمة المهداة ﷺ)
أما مظاهر شمولها للكفار فمن ذلك :

ـ جعله الله تعالى أماناً للخليقة كلها :

فمن رحمة الله تعالى أن جعل رسولَه المصطفى الكريمَ ﷺ أماناً للبشرية كلِّها من العذاب والهلاك الذي يستأصلهم ، فلن يُصابوا بعذاب ـ بعد بعثته ﷺ ـ يفنيهم ، ويستأصل شأفتهم ، ويزيل وجودهم ، كما كان في الأمم السابقة ، وفي زمن الأنبياء السابقين عليهم السلام ، حيث أُهلكت أقوامٌ بكاملها ؛ نتيجة دعوات أنبيائهم عليهم ، أو نتيجة تكذيبهم لرسلهم ،...

فقد كان القومُ إذا خالفوا رسولَهم وعصوه ، نزل عليهم عذابٌ من عند الله عز وجل ـ بعد إخراج رسولهم والمؤمنين معه من بين أظهرهم ـ فيستأصل شأفتَهم ، ويقضي عليهم جميعاً ، كما حصل مع أقوام نوح وهود وصالح ولوط ،... وغيرهم عليهم السلام .

كما قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت (٤٠).

أما بعد بعثته ﷺ فقد رُفع هذا النوع من العذاب ، لذا لم يُعلم وجود عذاب نزل على الخليقة ـ بعد بعثته ﷺ ـ قضى عليهم وأفناهم .

وكيف يعذبهم الله تعالى ، وقد جعل نبيَّه الكريمَ ﷺ رحمةً ، وأهداها إلى العالمين كلِّهم ، وأرسله بذلك ؟ بل حصر الله تعالى رسالةَ نبيه الكريم ﷺ بالرحمة ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[2].

لما طلب كفّار قريش من رسول الله ﷺ أن يُنزل الله تعالى عليهم عذاباً يقضي عليهم ، ويستأصل شأفتهم ؛ أخبرهم الله تعالى أن هذا قد رُفع ببعثة نبيِّه الكريم ﷺ .

قال الله جل شأنه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ نزلت عندما قال أبو جهل : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3] كما في حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، المتفق عليه[4].

فقد أعطى الله تعالى الخليقة أمانَيْن ، وجود رسول الله ﷺ ، ومن بعده الاستغفار ، ولا شك فإن هذا غاية الرحمة المهداة للخليقة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٧).

(٢) سورة الأنفال (٣٣).

(٣) سورة الأنفال (٣٣ ، ٣٢).

(٤) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة الأنفال : باب ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ... ﴾ . وصحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين : باب قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ ، رقم (٣٧).

ـ عدم دعائه ﷺ على المشركين بالانتقام :

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة : عدم دعائه ﷺ على المشركين الأعداء ، وقد صدّوه وكذّبوه وآذوه ،... وآذوا أصحابه رضي الله تعالى عنهم أشد الأذى ، ومع ما هو عليه من جروح مكلومة ، ودماء تسيل ،... كما حصل معه ﷺ يوم الطائف ، ومع هذا فلم يَدْعُ ﷺ عليهم بالهلاك والفناء ، مع أن ساعة الانتقام قد آنت ، وصار مَلَكُ الجبال تحت أمره وتصرُّفه ؛ ينتظر الأمرَ منه أن يُطبق على المشركين الجبلَين العظيمين في مكة ، وهما الأخشبان ؛ جبل أبي قُبيس ، وجبل ثور ، أو مقابله .

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : يا رسول الله ؛ هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ ؟ فقال : « ...وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة . إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن كُلال . فلم يجبني إلى ما أردتُ . فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعتُ رأسي ؛ فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل . فناداني ، فقال : إن الله عز وجل قد سمع قولَ قومِك لكَ وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال ؛ لتأمره بما شئتَ فيهم . قال : فناداني مَلَكُ الجبال ، وسلَّم عليَّ ، ثم قال : يا محمد ؛ إن الله قد سمع قولَ قومِك لكَ ، وأنا مَلَكُ الجبال ، وقد بعثني ربُّك إليكَ لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ ؟ إن شئتَ أن أُطبِق عليهم الأخشبين » [يعني : جبلي مكة] فقال له رسولُ الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ». متفق عليه[1].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق : باب إذا قال أحدكم : (آمين) والملائكة في السماء =

فما أرحمه وأشفقه وأرأفه ،... ﷺ ، إن الجراحَ ما زالت مثخنة ، والدمَ ما زال يسيل ،... وساعة الانتقام حلّت ، ومع هذا يأبى نبيُّ الرحمة المهداة ﷺ أن ينتقم ، أو يُعذِّب أعداؤه على الأقل ، بل يطلب أن يَبقَون على قيد الحياة ، فإن لم يُسلِموا هم ، لعل الله تعالى أن يُخرج من أصلابهم من يؤمن .

ومن الملاحظ أنه ﷺ لم يحدّد الجيل الذي يسلم من أصلاب أولئك الكفار ، فلربما يكون الجيل الثاني أو الثالث ،... أو غير ذلك ، ومع هذا فالأمل موجود ، والحرص قائم ، وكان له ﷺ ما أراد .

فما أوسع هذه الرحمة ، وما أشملها !!! بحيث له من الأمل الكبير أن يؤمن ما في أصلاب الأعداء ـ ولو بعدت وتأخرت ـ ويصبر هو ـ بأبي هو وأمي ـ على إيذاء الأعداء ، ويتحمّل ما يلاقيه منهم ،... وقد انفرد ﷺ عن غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يوجد من يدانيه في ذلك أو يقاربه .

لقد تحقّق ما أمَّله ورجاه ، فقد أسلم جميعُ من في مكة سواء قبل الفتح أو بعده ، سوى نحو (١٣٠) رجلاً تقريباً ؛ ممن قُتلوا في كلِّ الغزوات ، كما بينته في غير هذه الرسالة ، كما أسلم أهلُ الطائف إلا من قُتل منهم يومَ حنين ، وهم قلة . فصلوات ربي وسلامه عليه ، ما أرحمه وأحلمه وأصبره ، وأبعد نظره ، وشدة تحمله ،...

ـ دعاؤه ﷺ للمشركين بالهداية :

لما طلب بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم من رسول الله ﷺ أن يدعو على المشركين ؛ لأنهم لم يُسلموا ، أو تأخر إسلامُهم ، لم يَدعُ عليهم ،

= فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، رقم (١١١).

بل دعا لهم بالهداية ، والإتيان بهم ، وبيَّن ﷺ لهؤلاء الطالبين أنه ﷺ لم يُبعث لعّاناً ، ولكنه بُعث رحمة ، والرحمةُ تتعارض مع الدعاء على المشركين بالهلاك والفناء والإبادة ، بخلاف ما لو دعا عليهم بنوع من التقتير في الرزق والماء ؛ ليتنبّهوا ، فيؤوبوا إلى رشدهم ، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قيل : يا رسول الله ؛ ادع على المشركين . قال : « إني لم أُبعَث لعّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمةً ». رواه مسلم[1].

وعنه رضي الله تعالى عنه قال : قدم طُفَيلُ بنُ عَمْرٍو الدوسيُّ وأصحابُه على النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ؛ إن دَوساً عصت [وعند مسلم : قد كفرت] وأبت ، فادع اللهَ عليها . فقيل : هلكت دَوسٌ [فظن الناس أنه يدعو عليهم] فقال : « اللهم اهد دَوساً ، وائتِ بهم ». متفق عليه[2].

لم يدع ﷺ عليهم - كما طلب أصحاب الطُّفَيل - وإن كانوا قد ظنوا أنه ﷺ سيدعو عليهم لما تهيّأ للدعاء - ولكنه ﷺ دعا لهم بالهداية والهجرة إليه . فاستجاب الله جل شأنه له دعاءه ، وأسلمت دَوسٌ بأجمعها ، وهم قبيلةُ أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

كما دعا ﷺ بإقبال قلوب البعيدين عنه جدّاً وهدايتهم ، كأهل الشام ، واليمن ، والعراق ،... وغيرها ، فقال : « اللهم أقبل بقلوبهم ». كما بينتُه في (فضائل المدينة المنورة) وَ (فضائل بلاد الشام).

---

(١) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ، رقم (٨٧).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل غفار ،... ودوس وطيء ، رقم (١٩٧).

فما أوسع هذه الرحمة ؟ وما أعم هذه الرأفة ؟ وما أكمل هذه الروح العالية ؟

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام - وهي مشركة - فدعوتها يوماً ، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي . قلت : يا رسول الله ؛ إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام ، فتأبى عليَّ ، فدعوتُها اليومَ فأسمعتني فيك ما أكره . فادع الله أن يهديَ أمَّ أبي هريرة . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اهد أُمَّ أبي هريرة » فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئت ، فصرتُ إلى الباب ، فإذا هو مجافٍ . فسمعَتْ أمي خشفَ قدَمَيَ . فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعتُ خضخضةَ الماء . قال : فاغتسَلتْ ، ولبستْ درعَها ، وعجلتْ عن خمارها ، ففتحتْ البابَ ، ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . قال : فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ ، فأتيتُه وأنا أبكي من الفرح . قال : قلتُ يا رسول الله ؛ أبشر ، قد استجاب الله دعوتَك ، وهدى أمَّ أبي هريرة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال خيراً .

قال : قلتُ يا رسول الله ، ادع الله أن يُحبِّبني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم حبِّب عُبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمَّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبِّب إليهم المؤمنين ». فما خُلق مؤمن يسمع بي ، ولا يراني ، إلا أحبني . رواه مسلم[1].

ما أوسع هذه الرحمة ، وما أعمها ، حيث إنه لم يأمر بقتلها ، ولا ضربها ،

---

(١) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه ، رقم (١٥٨).

ولم يسبها ، ولم يلعنها ،... بل دعا ﷺ لها بالهداية ، فلما استجاب الله تعالى دعوتَه وهداها ، فرح ﷺ ، وحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم دعا أن يحببها الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وأن يحبب المؤمنين إليها وإلى ولدها رضي الله تعالى عنهما ، أسأله جل شأنه أن يكرمنا بحبِّهما ، ويحشرنا معهما تحت لواء سيد المرسلين ﷺ .

ـ دعاؤه ﷺ بمسامحة مَن آذاه وحاول قتله :

بل بلغ الأمر غايتَه ، وهو أكبر مما مر ، حيث ظهرت الرحمة بأعلى أحوالها ، وأجمل مظاهرها ، حين فعل المشركون ـ يومَ أُحد ـ ما فعلوا ، حيث كسروا رباعيتَه الشريفة ، وشجّوا وجنتَه الكريمة ـ بأبي هو وأمي ـ وأسالوا دمَه الزكيَّ ، وأوقعوه في الحفرة ، وحاولوا قتله ، ومع كلِّ هذا لم يَدْعُ ﷺ عليهم بالهلاك ، بل اعتذر عنهم ، ودعا لهم بالعفوِ والمغفرة ، وأن يسامحهم الله تعالى ، إذ لو علموا أنه رسول الله ﷺ ؛ ما فعلوا فيه ما فعلوا ، ولو كان الذي حصل له حصل بعضُه لغيره ماذا سيفعل ؟؟؟

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : كأني أنظر إلى النبي ﷺ ؛ يحكي نبيّاً ضربه قومُه ، وهو يمسح الدمَ عن وجهه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ». متفق عليه [1].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ». رواه الطحاوي والفسوي وابن حبان والطبراني والبيهقي برجال الصحيح[2].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب (٥٤) حدثنا أبو اليمان . ومسلم (١٧٩٢)

(٢) شرح مشكل الآثار (٣ : ١٨٩) والمعرفة والتاريخ (٣ : ٣٣٨) وصحيح ابن حبان (٣ : =

قال الحافظ ابنُ حجر رحمه الله تعالى[1]: المراد بالمغفرة في الحديث : العفو عما جنوه عليه في نفسه ، لا محو ذنوبهم كلها ، لأن ذنب الكفر لا يمحى . أو المراد بقوله : « اغفر لهم » اهدهم إلى الإسلام الذي تصح معه المغفرة . أو المعنى : اغفر لهم إن أسلموا ، والله تعالى أعلم.اهـ.

قلت : ولو قيل : سامحهم ، واعف عنهم عما فعلوا ، وذلك لجهلهم أنه ﷺ رسول الله ، كما قال سُهيل بن عمرو ـ قبل إسلامه ـ وقت الحُدَيْبِيَةِ ـ كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة كالبراء بن عازب وأنس بن مالك وغيرهما رضي الله تعالى عنهم[2]ـ : لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولاتبعناك[3].

لذا لما عرفوه أنه رسول الله ﷺ ؛ أسلم كثير منهم قبل الفتح .

وهذا كله يدلّ على مدى رحمته ﷺ ، ورأفته وشفقته ، حيث أسقط حقّه فيما جنوه عليه في نفسه ، وسأل الله تعالى أن يعفو عنهم ، ويسامحهم في ذلك أيضاً ، وأما ما يتعلّق بذنب الكفر فلم يتعرّض له ، لأنه راجع إلى الله تعالى ، وهو الذي يملك العفو عنه لا سواه ، والله تعالى أعلم .

= ٢٥٤) والمعجم الكبير (٦ : ١٤٦) وشعب الإيمان (٢ : ١٦٤) ودلائل النبوة (٣ : ٢١٥) ومجمع الزوائد (٦ : ١١٧).

(١) فتح الباري (١١ : ١٩٦).

(٢) انظر صحيح البخاري : كتاب الشروط : باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ،... وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب صلح الحديبية في الحديبية ، رقم (٩٠ ـ ٩٣).

(٣) انظر : أمية النبي الكريم ﷺ .

ـ **إعطاؤه ﷺ قريشاً ما طلبوا من الشروط يومَ الحُدَيْبِيَة :**

ومن مظاهر الرحمة المهداة بالكفار : ما حصل يوم الْحُدَيْبِيَة ، لما بركت راحلتُه ، وقال الصحابةُ الذين معه رضي الله تعالى عنهم : خلأت القصواءُ ، قال ﷺ : « ما خلأت ، وما ذلك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل » ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »(١).

فلما قدم سُهيل بن عمرو ـ مندوبُ قريش ، وكان يومها كافراً ثم أسلم بعد ذلك ـ ليفاوض رسول الله ﷺ على الصلح ، أعطاه رسول الله ﷺ كلَّ ما شرط ، مع أن ظاهر تلك الشروط كانت مجحفةً في حق المسلمين ، ولكن رسول الله ﷺ ما كان ليخالف أمرَ ربه تعالى ، ولعله ﷺ أُخبر بما سيكون من إلغاء تلك الشروط ، كما هو مبيَّن في الحديث ، إضافة إلى أن رحمته ﷺ غلبت على عقول كثير من المسلمين ، ممن أنكر تلك الشروط ، وأذكر بعضَ الأحاديث الشريفة ، مما ورد في الصحيحين أو أحدهما للتنبيه .

فعن المِسْوَر بن مَخْرَمة رضي الله تعالى عنه ومروان ـ يَصدِّق كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه ـ قالا : فذكرا الحديث بطوله في قصة صلح الحُدَيْبِيَة ، وفيه : فجاء سُهيل بنُ عَمْرو فقال : هاتِ اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتب [وهو عليٌّ رضي الله تعالى عنه] فقال النبيُّ ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أمّا (الرحمن) فوالله ما أدري ما هي ، ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنتَ تكتب . فقال المسلمون : والله لا

(١) صحيح البخاري : كتاب الشروط : باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط .

نكتُبُها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال النبيُّ ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله » فقال سُهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدَدْناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب (محمد بن عبد الله) فقال النبيُّ ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذَّبتُموني ، اكتب : محمد بن عبد الله » ... فقال له النبيُّ ﷺ : « على أن تُخلّوا بيننا وبين البيت ، فنَطوفَ به » فقال سُهيل : والله لا تتحدَّث العربُ أنا أُخذنا ضغطةً ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سُهيل : وعلى أن لا يأتيك منّا رجلٌ ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددتَه إلينا . الحديث بطوله ، رواه البخاري(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال : لما أُحصِر النبيُّ ﷺ عند البيت ؛ صالحه أهلُ مكة على أن يدخلَها فيُقيمَ بها ثلاثاً ، ولا يدخلَها إلا بجُلُبّان السلاح ؛ السيف وقِرابه ، ولا يَخرجَ بأحدٍ معه من أهلها ، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه . [وفي رواية للبخاري : على أن من أتاه من المشركين ردَّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردّوه] قال لعليٍّ : « اكتب الشرطَ بيننا . بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ، ولكن اكتب : محمد ابن عبد الله . فأَمَر عليّاً أن يمحاها ،... فأقام بها ثلاثةَ أيام ، فلما كان يوم الثالث قالوا لعليٍّ : هذا آخرُ يومٍ من شرط صاحبك ، فأْمُره فليخرج ، فأخبره بذلك ، فقال : « نعم » فخرج . متفق عليه ، واللفظ لمسلم(٢).

(١) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الصلح : باب كيف يكتب : هذا ما صالح فلانُ بنُ فلانٍ =

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ . فيهم سُهيل بنُ عَمْرو . فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » قال سُهيل : أمّا باسم الله ، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب ما نعرف ؛ باسمك اللهم . فقال : « اكتب من محمد رسول الله » قالوا : لو علمنا أنك رسول الله لاتّبعناك ، ولكن اكتب اسمَك واسمَ أبيك . فقال النبيُّ ﷺ : « اكتب من محمد بن عبد الله » فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم . ومن جاءكم منّا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله ؛ أنكتبُ هذا ؟ قال : « نعم . إنه من ذهب منا إليهم ؛ فأبعده الله . ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » . رواه مسلم[1] .

وعن سهل بن حُنَيف رضي الله تعالى عنه قام يوم صِفّين ، فقال : أيها الناس ؛ اتّهموا أنفسَكم . لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحُدَيْبِيَة ، ولو نرى قتالاً لقاتلْنا ، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين . فجاء عمرُ بنُ الخطاب ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ ؟ قال : « بلى » قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : « بلى » قال : ففيمَ نعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا ، ونرجعُ ولـمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : « يا ابن الخطاب ، إني رسولُ الله ﷺ ، ولن يضيِّعَني الله أبداً » .

قال : فانطلق عمرُ [بنُ الخطاب] فلم يصبر متغيِّظاً . فأتى أبا بكر ،

= فلانَ بنَ فلان ، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه ، وباب الصلح مع المشركين . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب صلح الحديبية في الحديبية ، رقم (٩٠ ـ ٩٢) .

(١) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٩٣) .

فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا ، ونرجعُ ولـمّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ، ولن يضيِّعَه الله أبداً . قال : فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر ، فأقرأه إياه . فقال : يا رسول الله ، أَوَفَتْحٌ هو ؟ قال : « نعم » فطابت نفسُه ورجع . رواه مسلم(١).

فما قام به رسول الله ﷺ إنما هو وحيٌ ، وما كان ليخالف أمر ربِّه تعالى .

ثم انظر كيف أعطاهم رسول الله ﷺ من الشروط التي طلبوها ـ وهو الغازي المنتصر ـ أن يرجع ذلك العام ، ولا يدخل مكة ، ويأتيها في السنة القادمة ، ولمدة ثلاثة أيام ، ولا يحملون من السلاح شيئاً ، إلا السيوف في القُرُب ، وألّا يُخرِج ﷺ معه من المسلمين ممن يسكن مكة أحداً ، وأن لا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها ، وأن من أتى رسولَ الله ﷺ من قريش يُرَدُّ إليهم ـ ولو كان مسلماً ـ ومن أتى قريشاً من المسلمين ـ مرتدّاً ـ لا يُرد إليهم ،...

فمثل هذه الشروط المجحفة ، والتي لم يرض بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد عبّر الفاروق رضي الله تعالى عنه عن ذلك بقوله : (فلِمَ نعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا) ولكن المؤيَّد بالوحي لا يخالف أمر ربه تعالى ، وينظر ما لا يراه الناظرون ، وإن كانوا مُلهَمين مُحَدَّثين ، والله تعالى أعلم .

ـ عفوه ﷺ عمن حاول الغدر بالمسلمين يوم الحديبية :

ومن مظاهر رحمته ﷺ بمشركي قريش : عفوُه ﷺ عمَّن حاول الغدرَ

(١) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٩٤).

بهم يومَ الحُدَيْبِيَة ، ذلك أن بعض شباب قريش نزلوا من الجبال يوم الحُدَيْبِيَةِ ، يلتمسون غِرّةَ المسلمين ؛ ليغدروا بهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأبصارهم ، وقَبض عليهم المسلمون ، ولم ينج منهم أحد ، فعفا عنهم ، ولم يَقتل أحداً منهم ، مع أنهم جاؤوا بغير عهد ولا ميثاق ولا جِوار ، بل إنهم حاولوا الغدرَ بالمسلمين ، وكان عددُهم نحواً من ثمانين رجلاً ، ونزل مصداق ذلك في سورة الفتح .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة ؛ هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه [فدعا عليهم] فأخذهم سَلَماً [يعني أسرهم من غير قتال] فاستحياهم [يعني : أبقاهم أحياء ولم يقتلهم] فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ... ﴾[1] رواه مسلم[2].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال : قدمنا الحُدَيْبِيَةَ مع رسول الله ﷺ ، ونحن أربعَ عشرةَ مائةً ، وعليها خمسون شاةً لا تُرويها ، قال : فقعد رسول الله ﷺ على جبا الرَّكِيَّة ، فإما دعا وإما بسق فيها . قال : فجاشت ، فسقينا واستقينا ،... الحديث بطوله في قصة الصلح ، وفيه : قال : فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيتُ شجرةً ، فكسحتُ شوكَها ، فاضطجعتُ في أصلها ، قال : فأتاني أربعةٌ من المشركين

(١) سورة الفتح (٢٤).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ ، رقم (١٣٣).

من أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأَبغضتُهم . فتحوَّلتُ إلى شجرة أخرى ، وعلَّقوا سلاحَهم ، واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قُتل ابنُ زُنَيم . قال : فاخترطتُ سيفي ، ثم شددتُ على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذتُ سلاحَهم ، فجعلتُه ضغثاً في يدي . قال : ثم قلت : والذي كرَّم وجهَ محمد ، لا يرفعُ أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه . قال : ثم جئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ . قال : وجاء عمي ـ عامر ـ برجل من العَبَلات يقال له : مِكرِز . يقوده إلى رسول الله ﷺ ، على فرس مجفَّف ، في سبعين من المشركين . فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : « دعوهم ، يكن لهم بدءُ الفجور وثِناه » فعفا عنهم رسولُ الله ﷺ . وأنزل الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ الآية كلها . رواه مسلم[1] .

وعن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالحُدَيْبِيَةِ ؛ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعَليُّ بنُ أبي طالب وسُهيلُ بنُ عَمْرٍو بين يديه ،... ثم ذكر قصة كتابة الوثيقة في الصلح ، وفي آخره قال : فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابّاً عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ ، فأخذ الله عز وجل بأبصارهم ، فقدمنا إليهم ، فأخذناهم ، فقال رسولُ الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحدٌ أماناً ؟ » فقالوا : لا. فخلّى سبيلَهم ،

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب غزوة ذي قرد وغيرها ، رقم (١٣٢).

فأنزل الله عز وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾. رواه أحمد والنسائي والبيهقي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي[1].

لم يقتلهم رسول الله ﷺ، مع أنهم أعداء جاؤوا يتحينون فرصةً للقضاء على المسلمين، أو ينالون منهم غِرّةً، ولكن الله تعالى سلّم، لذا عفا عنهم، وأطلق سراحَهم من غير مقابل، دلالة على أنه ﷺ لا يحب سفك الدماء، وليس هو متعطش لرؤيتها، إنما هو الرحمة التي أكرم الله تعالى بها العِباد، ولو كانوا كفاراً.

- ما حصل يوم فتح مكة:

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة ما حصل يوم فتح مكة؛ حيث حصلت عدّةُ مظاهر لتلك الرحمة المهداة ﷺ، كل واحد منها يدل على مدى رحمته ﷺ، وأنه مسالمٌ يحبُّ السلمَ، ولا يريد الانتقام، وليس هو - بأبي هو وأمي - متعطِّشاً لسفك الدماء ورؤيتها، مع ما فعله به الكفار، حيث أخرجوه ﷺ وأصحابَه من مكة، وقتلوا بعضَهم، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، وشتّتوا شملهم، وأسالوا دماءَهم،... إضافة إلى التعذيب الجسدي والنفسي الذي ارتكبوه معهم، ومع كلِّ هذا لم يقابلهم ﷺ بجرمهم، ولا بمثل فعلهم، بل ظهر منه العفو والصفح والرحمة والشفقة،...

(١) مسند أحمد (٤ : ٨٧ - ٨٨) والسنن الكبرى للنسائي (٦ : ٤٦٤ - ٤٦٥) وتفسير النسائي (٢ : ٣١٢ - ٣١٤) والمستدرك (٢ : ٤٦٠ - ٤٦١) والسنن الكبرى للبيهقي (٦ : ٣١٩) وتفسير الطبري (٢٢ : ٢٣٦ - ٢٣٧) ومجمع الزوائد (٦ : ١٤٥) وفتح الباري (٥ : ٣٥١).

ابتداء بما قاله ﷺ قبل دخوله مكة ، وانتهاء بالعفو عن الجميع ، مروراً بالنهي عن القتال .

أ ـ إخباره ﷺ أن هذا اليوم هو يوم المرحمة .

لقد أخبر رسولُ الله ﷺ أبا سفيان أن هذا اليوم ـ يوم الفتح ـ هو يومُ المرحمة ، هو يومٌ يعظِّم الله تعالى فيه الكعبةَ ، ويُعز فيه أهلَها ، على خلاف ما كان الحال قبل الفتح ، لأن الشركَ بالله تعالى ذلّةٌ ومهانةٌ ، ولو ظن الإنسان أنه في عزة ومنعة ، لأنه مهان عند الله تعالى ، معذَّب في النار يوم القيامة .

لما أمر النبي المصطفى الكريم ﷺ عمَّه العباسَ بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه بحبس أبي سفيان ـ بعد إسلامه ـ عند خطم الجبل ليستعرض الجيشَ الإسلاميَّ الداخلَ إلى مكة يومَ الفتح ، ومرت به كتائبُ الرحمن ـ كتيبة إثر كتيبة ، كل قبيلة أو أكثر تحت رايتها ، لم تثر عنده ساكناً ، فلما مرّت به كتيبةُ الأنصار عليهم سعدُ بن عبادة رضي الله تعالى عنهم معه الراية ـ قال سعدُ بن عبادة : يا أبا سفيان ؛ اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الكعبة . فلما مر رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان ، قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال ﷺ : « ما قال ؟ » قال : قال كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : كذب سعد [يعني : أخطأ ؛ بلغة أهل الحجاز] هذا يومٌ يعظِّمُ الله فيه الكعبةَ ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة ». رواه البخاري(١).

وعند أهل المغازي : قال ﷺ : « يا أبا سفيان ؛ اليومُ يومُ المرحمة ، اليوم يُعزُّ الله فيه قريشاً »(٢).

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح .

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٤ : ٦٩) ودلائل النبوة (٥ : ٤١ ـ ٤٤) وعيون الأثر (٢ : ١٧٢) وسبل الهدى والرشاد (٥ : ٢٢١) وفتح الباري (٨ : ٩).

ب إعفاؤه ﷺ سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه عن الراية .

ومن الرحمة التي برزت يوم الفتح : أن أبا سفيان رضي الله تعالى عنه لما أخبر رسول الله ﷺ بما قال سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه ـ كما مر في رواية البخاري قبل أسطر ـ نزع رسول الله ﷺ الرايةَ من سعد ، وأعطاها إلى ولده قيس ، وقيل : بل أعطاها لعليٍّ ، وقيل للزبير رضي الله تعالى عنهم(١). حيث دخلته رحمةٌ لقريش ، ورأفة بهم ، والله تعالى أعلم .

ج ـ إعطاؤه ﷺ الأمانَ للجميع ، إلا للذي يبدأ القتال .

لما دخل رسول الله ﷺ مكة يومَ الفتح ، ووبَّشت قريش أوباشاً ليمنعوا رسولَ الله ﷺ والمسلمين رضي الله تعالى عنهم من الدخول ، وتصدَّوا لهم ، فقَتل المسلمون بعضَهم . قال أبو سفيان رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ؛ أُبيدت خضراءُ قريش ، لا قريش بعد اليوم . قال رسول الله ﷺ : « من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ ، ومن ألقى السلاحَ فهو آمِنٌ ،

---

(١) ويقال : عارضته ﷺ امرأة حين قال سعد ما قال . وأنشأت تقول :

يا نبيَّ الهدى إليكَ لجا ... حَيُّ قريشٍ ولاتَ حينَ لجاء
حين ضاقت عليهم سعةُ الأر ... ضِ وعاداهم إلهُ السماء
إنَّ سعداً يريدُ قاصمةَ الظه ... ر بأهل الحُجون والبطحاء
خزرجِيٌّ لو يستطيع من الغي ... ظ رمانا بالنسر والعوّاء

إلى آخر الأبيات ، كما في الروض وابن كثير والفتح وغيرها نقلاً عن تاريخ دمشق لابن عساكر .

فرقَّ ﷺ لها ، وأخذته الرأفةُ بهم ، لذا نزع الراية منه ، وأعطاها ولده قيساً ، فشكا سعد رضي الله تعالى عنه أن يكون من ولده قيس بعض ما يكره ، فأخذها وأعطاها الزبير رضي الله تعالى عنه ، وقيل : بل أعطاها علياً رضي الله تعالى عنه ، والله تعالى أعلم .

ومن أغلق بابه فهو آمنٌ » فقالت الأنصار : أما الرجلُ [يريدون رسولَ الله ﷺ] فقد أخذته رأفةٌ بعشيرته ، ورغبة بقريته ،... الحديث ، رواه مسلم[١].

فلو كان ﷺ يرغب في القتال لما قال هذا القول ، ولو كان يحب سفك الدماء لما منع من القتال ، ولكنه ﷺ رسولُ الرحمة ، وهو الرحمة المهداة ، وهو الرؤوف الرحيم .

د ـ نهيه ﷺ عن القتال .

لقد نهى رسول الله ﷺ عن القتال يوم دخول الجيش إلى مكة ـ مع أن الله عز وجل أباحها له ـ لأنه ﷺ يريد تطهيرها من الشرك والوثنية ، وعودة أهلها إلى ما كانوا عليه من الحنيفية السمحة التي سوّل الشيطان في نفوس أهلها حتى أفسدوها ، ولا يريد قتل أهلها ، وسفك دمائهم ، لأن هذا يتنافى مع الرحمة العامة المهداة ، وحرصِه ﷺ على هداية الخلق ، وخاصة من يرنو إليه بصلة ، وكثرة الأمة ، والرأفة بهم . ولذا أعطى الأمان لمن دخل بيته وأغلق عليه بابه ، أو ألقى السلاح ولم يقاتل ، أو دخل المسجد ولم يقاتل ،...إلخ.

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن هذا البلدَ حرَّمه الله يومَ خلق السمٰوات والأرض ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، ولم تحلَّ لأحد قبلي ، ولن تحلّ لأحد بعدي ، وإنما أُحلَّت لي ساعةً من نهار ». متفق عليه[٢].

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب فتح مكة ، رقم (٨٤ ، ٨٦).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الحج : باب لا يُنفَّر صيدُ الحرم ، وباب فضل الحرم ، وفي غيرها . وصحيح مسلم : كتاب الحج : باب تحريم مكة ، رقم (٤٤٥).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكةَ ، قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الله حبس عن مكةَ الفيلَ ، وسلَّط عليها رسولَه والمؤمنين ، وإنها لن تحلَّ لأحد كان قبلي ، وإنها أُحلِّت لي ساعةً من نهار ، وإنها لن تحلَّ لأحد بعدي ،... ». متفق عليه[1].

وعن أبي شُرَيح الخزاعي رضي الله تعالى عنه ، أنه قال لعَمْرو بن سعيد ـ وهو يبعث البعوث إلى مكة ـ : ائذن لي أيها الأمير ، أحدْثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغدَ من يوم الفتح ، سمعتْه أُذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرتْه عيناي ، حين تكلَّم به . أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن مكةَ حرَّمها الله ولم يُحرِّمها الناسُ ، فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضِد بها شجرةً . فإن أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحُرمتها بالأمس ،... ». متفق عليه[2].

فهذه النصوص ـ وغيرها ـ تدل على إباحة مكة ذلك اليوم ـ وهو من الصباح حتى العصر ـ لرسول الله ﷺ ، ومع ذلك لم يقاتل ﷺ ، ولم يأذن لعامة الجيش بالقتال ، اللهم إلا إذا قوتلوا ، وهذا ما أخبر به رسولُ الله ﷺ من نكْثِ بعض قريش ، فقاتلهم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ، ومع هذا لما رأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف ، قال : ألم أنه عن القتال .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب اللقطة : باب كيف تُعرَّف لقطةُ أهل مكة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٤٤٧ ، ٤٤٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب ليبلِّغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٤٤٦).

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال ـ رسول الله ﷺ ـ : « اهتف لي بالأنصار » قال : فأطافوا به ، ووبَّشَت قريشٌ أوباشاً لها وأتباعاً ، فقالوا : نقدِّم هؤلاء ، فإن كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أُصيبوا أعطينا الذي سُئلنا . فقال رسول الله ﷺ : « ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ » ثم قال بيديه ؛ إحداهما على الأخرى . ثم قال : « حتى توافوني بالصفا » قال : فانطلقنا ، فما شاء أحدٌ منّا أن يقتل أحداً إلا قتله [وفي رواية : فما أشرف يومئذ لهم أحدٌ إلا أناموه] وما أحدٌ منهم يوجِّه إلينا شيئاً . قال : فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أُبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم . ثم قال : [قال رسول الله ﷺ] : « من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن [ومن ألقى السلاحَ فهو آمن ، ومن أغلق بابَه فهو آمن] » الحديث بطوله ، رواه مسلم(١) .

فمن رحمته ﷺ أعطى الأمان لجميع من لم يقاتل ، مع أن الجيش كان يرغب أن يشفي صدره ممن كادوا لهم ، وعذّبوهم وقتلوا إخوانهم ، ولكن العفو من شيم الكرام . خاصة من الرحمة المهداة ﷺ ، ولا يريد أن تُنتهك حرمة الحرم .

وهذا ما حصل فعلاً حيث ذكر أهل السير أن صفوان بن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهيل بن عَمرو قد جمّعوا ناساً بالخندمة ، وتصدّوا لجيش خالد رضي الله تعالى عنه ، فقاتلهم ، فقتل بعضهم ، وولّى الباقون هاربين .

كما ذكر أهلُ السير أن رسول الله ﷺ عهد إلى أمرائه ألّا يقاتِلوا إلّا مَن قاتلهم . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في فقرة قادمة .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب فتح مكة ، رقم (٨٤ ـ ٨٦).

ومع هذا ؛ لما قُوتل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه من قبل أوباش قريش ، ورأى رسول الله ﷺ بارقةَ السيوف ، قال : «ما هذا وقد نهيتُ عن القتال ؟ » فقالوا : نظن أن خالداً قُوتل ، وبُدئ بالقتال ، فلم يكن له بدٌّ من أن يقاتل . فقال رسول الله ﷺ لخالد : « لِمَ قاتلتَ وقد نهيتُك عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ، ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففتُ يدي ما استطعت . فقال ﷺ : « قضاء الله خير »[1].

هـ ـ عفوُه ﷺ عن الجميع ، مع إطلاق سراحهم .

لما دخل رسولُ الله ﷺ مكةَ ـ منتصراً ـ بعد الفتح ، وجمع قريشاً ـ وهم يتوقعون القتلَ ، لِما فعلوا به ﷺ وبأصحابه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وقد فعل ـ أعلن ﷺ العفو العام عنهم ، وعدم التعرض لهم كلّيّاً ، مع نسيان الماضي ، فقال ﷺ لهم : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخٌ كريم وابن أخ كريم . قال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولهذا سمى ﷺ هذا اليومَ يوم المرحمة .

لقد قالوا مستعطِفين مسترحِمين . وهم يشيرون إلى الرحم (أخ كريمٌ ، وابنُ أخ كريم) ألا قالوا هذا قبل هذا التاريخ ؟ وهم يعلمون ما فعلوا به وبأهله ﷺ ، حيث قتلوا ابنَ عمه عُبيدة رضي الله تعالى عنه في بدر ، وعمَّه حمزة رضي الله تعالى عنه في أُحد ، وفعلوا فيه من التمثيل في جسده الشريف ما فعلوا يوم أحد . ولكن العفو من شيم الكرام ، لذا عفا ﷺ عنهم جميعاً ، باستثناء عشرة ، كما سيأتي في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر فتح الباري (٨ : ١١) وانظر : المعجم الأوسط (٤ : ١٦٠) ومجمع البحرين (٣ : ٢٦٥) ومجمع الزوائد (٢٨٤) لبيان سبب آخر .

و ـ قبوله ﷺ إسلام من كان قد أهدر دمه :

ومن مظاهر تلك الرحمة التي ظهرت يوم الفتح : قبولُه ﷺ إسلامَ من كان قد أهدر دمه ، مع أنهم كانوا قد ارتدّوا عن الإسلام ، أو قَتلوا بعضَ المسلمين ، أو آذوا المسلمين ،... أو فعلوا الجميع .

لقد كان النبي المصطفى الكريم ﷺ قد أهدر دماءَ بعض كفار قريش ؛ إما لشدة إيذائهم للمسلمين ، أو لأنهم ارتدوا عن الإسلام ، أو لأنهم كانوا قد قَتلوا بعضَ المسلمين غدراً ، أو كانوا يؤذون الله ورسوله ﷺ ، لذا وجب قتلُهم قصاصاً أو حدّاً ، ولم يَقتل أو أمر بقتل من حاول الغدرَ به ﷺ ، أو حاول اغتيالَه ، أو آذاه شخصيّاً ، إنما كان ﷺ أمر بقتل من كان عدوانُه على المجتمع المسلم عامة (يعني : ما يقال : الحق العام) وكان عدد من أهدر دمَهم (٩) وقيل (١٠) وهم ثمانية رجال وامرأتان .

ولم يُقتل من العشرة إلا أربعة ، ثلاثة رجال وامرأة ، وهم : عبد الله ابن خطل ، والحويرث بن نُقَيد ، ومِقيس بن صبابة ، وإحدى جاريتَيْ ابن خطل ، وأما الباقي فقد قَبل إعلانَهم لإسلامهم ، كعكرمة ابن أبي جهل ، وهبّار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وغيرهم[1].

وفي هذا دلالة على شمول تلك الرحمة المهداة لجميع الخلق ، بما فيهم الكفار ، والله تعالى أعلم .

ز ـ إسقاطه ﷺ حقوقه الخاصة .

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة التي ظهرت يوم الفتح : إسقاطه ﷺ حقوقَه الخاصة التي استولى عليها كفار قريش ، من أموال وبيوت وأراض ،...

(١) انظر فتح الباري (٨ : ١١ ـ ١٢) وفي بعضهم خلاف .

لذا لم ينزل في بيته الذي تركه ، ونزل في خيف بني كنانة ، بل لم يُطالب أحداً من قريش بما كانوا قد استولوا عليه ، من دور أو أموال أو أراض أو غيرها .

فعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما ، أنه قال : يا رسول الله ؛ أين تنزل غداً إن شاء الله ؟ وذلك زمن الفتح ، قال : « وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ». متفق عليه(١).

فما أراد أن يرزئ عقيلاً فيما أخذه من ماله ﷺ ومال أبي طالب .

ح ـ إعطاؤه ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة ولم يعطه لبني هاشم .

لا يوجد في الناس من يقارب رسول الله ﷺ في الوفاء ، وحسن العهد ، وأداء الأمانة ،... وقد عُرف ﷺ منذ صغره في مكة بالصادق الأمين ، وأخّر ﷺ سيدنا عليّاً رضي الله تعالى عنه بعده ولم يدعه يهاجر معه ليؤدي الأمانات إلى أهلها بعد سفره ﷺ ، فإذا كان هو ـ بأبي وأمي ـ بهذه الحالة من أداء الأمانة ، وهو خارج من مكة مهاجراً ، وقد استولى كفار قريش على ماله ومال أصحابه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وقد فعل ، فكيف لا يرد الأمانة إلى صاحبها ، وقد نصره الله تعالى عليهم ، وأعاده إليهم فاتحاً ، وإن كان فيها فخر الدنيا ؟

وهذا ما فعله ﷺ بعد الفتح ، حيث ردَّ مفتاح الكعبة المشرفة لأحفاد عبد الدار ، رحمةً ورأفة بهم ، وشفقة عليهم ،... ولم يعطها ﷺ لبني هاشم ـ مع ما في ذلك من الشرف الذي لا يخفى ـ مع استشراف عليٍّ والعباس رضي الله تعالى عنهما لها ، وطلبهما لها ـ .

(١) صحيح البخاري : كتاب الحج : باب توريث مكة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الحج : باب النزول بمكة للحاج ، وتوريث دورها ، رقم (٤٣٩ ـ ٤٤٠).

وكيف لا يردّها ﷺ وقد جعلها الله تعالى بأيديهم ، فهي في أيديهم منذ أخذوها بعد قصي إلى يومنا هذا ، وأخبرهم النبي الكريم ﷺ أنه لا ينزعها منهم إلا ظالم .

وذلك أن قصي بن كلاب ـ وهو الجد الرابع للنبي الكريم ﷺ ، بعد أن طرد خزاعةَ من مكة ـ جمع بين يديه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء ، فلما توفي انتقل ذلك إلى أولاده ، فصار لعبد الدار : الحجابة والندوة واللواء ، ولعبد مناف : الرفادة والسقاية ، واستمر ذلك في أولادهم من بعد إلى زمن النبي المصطفى الكريم ﷺ .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته ، مردفاً أسامة بن زيد ، ومعه بلال ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة ، حتى أناخ في المسجد ، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت ، ففتح ، ودخل رسول الله ﷺ ، ومعه أسامة وبلال وعثمان ، فمكث فيها نهاراً طويلاً ، ثم خرج . لفظ البخاري .

وعند مسلم : ثم دعا عثمان بن طلحة فقال : « ائتني بالمفتاح » فذهب إلى أمه ، فأبت أن تعطيه . فقال : والله لتُعطِينِيه أو ليَخرجن هذا السيف من صلبي . قال : فأعطته إياه ، فجاء به إلى النبي ﷺ ، فدفعه إليه ، ففتح الباب ،... الحديث بطوله . متفق عليه ، واللفظ لمسلم[1].

ثم إن رسول الله ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان ، وقال : « خذها

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير : باب الردف على الحمار ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الحج : باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره ،... رقم (٣٨٩ـ ٣٩٠).

خالدة تالدة ، إني لم أدفعها إليكم ، ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم ».

وفي رواية : أن علياً رضي الله تعالى عنه قال للنبي ﷺ : اجمع لنا الحجابة والسقاية ، فنزلت : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ فدعا عثمان فقال : « خذوها يا بني شيبة ؛ خالدةً تالدةً ، لا ينزعها منكم إلا ظالم »[1].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » يعني : حجابة الكعبة . رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفي إسناده عبد الله بن مؤمل[2].

وعن أبي محذورة رضي الله تعالى عنه قال : جعل رسول الله ﷺ الأذان لنا ولموالينا ، والسقاية لبني هاشم ، والحجابة لبني عبد الدر . رواه أحمد والحاكم والفاكهي وابن قانع والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن[3].

---

(١) انظر : مصنف عبد الرزاق (٥ : ٨٣ ـ ٨٥ من طرق) ومجمع الزوائد (٣ : ٢٨٥) (٦ : ١٧٦ ـ ١٧٧) وفتح الباري (٨ : ١٨ ـ ١٩) فقد ذكر روايات متعددة ومصادرها . وانظر أخبار مكة للأزرقي (١ : ١١٠ ـ ١١١ ، ٢٦٥ ـ ٢٦٨) فقد ذكر طرقاً متعددة في ذلك .

(٢) المعجم الكبير (١١ : ١٢٠) والمعجم الأوسط (١ : ١٥٥ ـ ١٥٦) ومجمع البحرين (٣ : ٢٦٩ ـ ٢٧٠) ومجمع الزوائد (٣ : ٢٨٥) وعبد الله بن مؤمل : وثقه ابن معين ـ في رواية ـ وابن سعد وابن حبان ، وقال : يخطئ .

(٣) مسند أحمد (٦ : ٤٠١) والمعجم الكبير (٧ : ٢٠٨) والمعجم الأوسط (١ : ٢٣٠) والمستدرك (٣ : ٥١٤ ـ ٥١٥) ومعجم الصحابة (١ : ٣٠٧) وأخبار مكة للفاكهي (٢ : ١٣٦ ـ ١٣٧) وتاريخ بغداد (١٤ : ٧٦) ومجمع البحرين (٣ : ٢٦٩) ومجمع الزوائد (٣ : =

وقد استفيض إعطاؤه ﷺ المفتاح لعثمان بن طلحة ، واشتهر ، وما زال في يد بني شيبة إلى يومنا هذا ، ويقال لهم الآن : (الشيبي).

لذا فإن مفتاح الكعبة منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا وهو بأيدي بني شيبة ، مع تداول الدول والحكام ، لم ينزعه منهم أحد ، وهم الذين يفتحون الكعبة ، وهذه منقبة لهم ، رزقنا الله وإياهم رضاه .

ط ـ نهيه ﷺ عن أن يقتل قرشي صبراً .

لقد أخبر رسول الله ﷺ أن قريشاً ـ بعد إسلامهم ـ لن يرتد منهم أحدٌ عن الإسلام ، ولن يحارَبوا عليه من جديد ، ولن يُقتلوا صبراً ، وهذا ما حصل فعلاً ، حيث كانوا من القبائل القليلة التي ثبتت بعد وفاة رسول الله ﷺ ، ولم تحصل فيها ردة ، كما حصل في غيرهم من القبائل ، بل ثبتوا وسيستمرون عليه إلى يوم القيامة ، ولله الحمد والمنة ، ولا يراد ألّا يقع عليهم ظلم ، فقد وقع عليهم ، كما وقع على غيرهم من المسلمين ، والله تعالى أعلم .

فعن مطيع بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول ـ يومَ فتح مكة ـ : « لا يُقتلُ قرشيٌّ صبراً بعد هذا اليوم ، إلى يوم القيامة ». رواه مسلم[1].

ي ـ شفقته على أبي قحافة رضي الله تعالى عنه .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي ظهرت يوم الفتح : شفقته ﷺ على أبي

= ٢٨٥) وانظر تاريخ بغداد (١٤ : ٧٦ وما بعد) لترجمة هذيل بن بلال الأشعري . فهو مختلف فيه ، وشاهده ما سبق .

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب لا يُقتل قرشي صبراً بعد الفتح ، رقم (٨٨).

قحافة والد أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنهما ، وقد جاء به أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، يقوده إلى رسول الله ﷺ ـ وهو رجلٌ كبير السن جدّاً ، ثم هو أعمى ـ ليعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ ، فظهرت الرحمة بكل مظاهرها : هلا أبقيت الشيخ في بيته ، ونحن نأتيه.

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى . قال أبو قحافة لابنةٍ له من أصغر ولده : أي بُنيَّة ، أظهري بي على أبي قُبيس ـ قالت : وقد كفَّ بصره ـ قالت : فأشرفتُ به عليه . فقال : يا بُنيّة ، ماذا تَرَين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد ، مقبلاً ومدبراً . قال : يا بُنيَّة ، ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ، ويتقدّم إليها ـ ثم قالت : قد ـ والله ـ انتشر السواد . فقال : قد ـ والله ـ إذاً دفعت الخيلُ ، فأسرعي بي إلى بيتي . فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . وفي عنق الجارية طَوق من وَرِق ، فتلقّاها رجل فاقتلعه من عنقها .

قالت : فلما دخل رسول الله ﷺ ، ودخل المسجد ؛ أتى أبو بكر رضي الله عنه بأبيه يقوده . فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ » قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ؛ هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه . قال : فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : « أسلِم » فأسلم ،... الحديث بطوله ، رواه أحمد والطبراني وابن سعد وإسحٰق برجال ثقات ، وصححه ابن حبان والحاكم[1] .

(١) مسند أحمد (٦ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠) ومسند إسحٰق (٥ : ١٣١ ـ ١٣٢ رقم ٢٢٤٥) وصحيح ابن حبان (١٦ : ١٨٧ ـ ١٨٨) والمستدرك (٣ : ٤٦ ـ ٤٧) والطبقات الكبرى (٥ : ٤٥١) =

فما هذه الرحمة ؟ وما هذه الرأفة ؟ جيش فاتح منتصر ، وهو يقول : « هلّا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه؟ » ولكن لا يُستغرب ذلك من رحمة العالمين ، والرؤوف الرحيم ، وإن كان ذلك تكريماً لأبي بكر رضي الله تعالى عنه . علماً بأن النبي المصطفى الكريم ﷺ قد قال ذلك قبل أن يسلم أبو قحافة رضي الله تعالى عنه ، والله تعالى أعلم .

فكل هذا دال على شمول تلك الرحمة لجميع الخلق بما فيهم الكفار ، والله تعالى أعلم .

ك ـ إعلانه ﷺ حقوق الإنسان .

ومن مظاهر تلك الرحمة في البشرية كلها ؛ التي ظهرت يوم الفتح : إعلانُه ﷺ إسقاطَ العصبية القبلية ، والنخوة الجاهلية ، والكِبْر والفخر بالأحساب والأنساب ، وإعلانُه ﷺ أن الناس كلَّهم بنو آدم ، وأنهم سواء ، لا فرق بين لون أو جنس ،... إنما الفرق بالتقوى ، وما يقدّمه الإنسان .

فعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ خطب يومَ الفتح بمكة ـ وهو على درج الكعبة ـ فكبّر ثلاثاً ، ثم قال : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحدَه ، أَلا إن كلَّ مأثُرة كانت في الجاهلية ودمٍ ودعوى ومال : تحت قدميَّ هاتين ، إلّا ما كان مِن سقاية الحاجِّ وسِدَانة البيت ، أَلا إن قتيل الخطأ شبه العمد ؛ ما كان بالسوط أو العصا : فيه مائة من الإبل [مغلظة] فيها أربعون خَلِفة ؛ في بطونها أولادها ». رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه في آخرين ،

= والسيرة النبوية لابن هشام (٤ : ٦٧ ـ ٦٨) والمعجم الكبير (٢٤ : ٨٨ ـ ٨٩) ودلائل النبوة (٥ : ٩٥ ـ ٩٦) ومجمع الزوائد (٦ : ١٧٣ ـ ١٧٤).

بإسناد صحيح[1]. وقد رواه بعضهم مقتصراً على الدية .

وقد رواه الشافعي والحميدي وأحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي في آخرين من حديث عبد الله بن عُمَر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما .

وعن عبد الله بن عُمَر رضي الله تعالى عنهما قال : طاف رسول الله ﷺ على راحلته القصواء يوم الفتح ، واستلم الركن بمِحجنِه ، وما وجد لها مُناخاً في المسجد حتى أُخرجت إلى بعض الوادي ، فأُنيخت ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية . يا أيها الناس ، إنما الناسُ رجلان ؛ بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على ربِّه ، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على ربِّه » ثم تلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ حتى قرأ الآية ، ثم قال : « أقول هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ». رواه ابن حبان وابن خزيمة بإسناد صحيح ، ورواه الترمذي وأبو يعلى بسندين ضعيفين ، هما بالأول حسن أيضاً[2].

زاد في رواية أحمد وأبي داود وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله

(١) مسند أحمد (٢ : ١٦٤ ، ١٦٦) وسنن أبي داود : كتاب الديات : باب في الخطأ شبه العمد ، رقم (٤٥٤٧ ، ٤٥٤٨) وسنن النسائي : كتاب القسامة (٨ : ٤٠ ـ ٤٣) وسنن ابن ماجه : كتاب الديات : دية شبه العمد مغلظة ، رقم (٢٦٢٧ ، ٢٦٢٨) والمنتقى (٢٦١) وشرح معاني الآثار (٣ : ١٨٥ ـ ١٨٦) وسنن الدارقطني (٣ : ١٠٣ ـ ١٠٥) وصحيح ابن حبان (١٣ : ٣٦٤) والسنن الكبرى (٨ : ٤٤ ، ٤٥ ،٦٨) وذكره بعضهم مختصراً .

(٢) سنن الترمذي : كتاب التفسير : باب ومن سورة الحجرات ، رقم (٣٢٧٠) وصحيح ابن حبان (٩ : ١٣٧) وصحيح ابن خزيمة (٤ : ٢٤٠) ومسند أبي يعلى ـ مختصراً ـ (١٠ : ١٣٤ ـ ١٣٥) وشعب الإيمان (٥ : ٢٨٦) ومجمع الزوائد (٣ : ٣٤٣).

تعالى عنه[1] - بإسناد على شرط مسلم ، وحسنه الترمذي - قوله ﷺ : « لينتهين أقوام فخرَهم برجال ، أو ليكونن أهونَ عند الله من عدتهم من الجعلان التي تَدفع بأنفها النتن ».

وروى أحمد والطيالسي وابن حبان وغيرهم[2] من حديث عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله ﷺ : « لا تفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية ، فوالذي نفسي بيده لما يُدَهْدِه الجُعْلُ بمنخرَيه خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية ». وإسناده صحيح .

ل - ديته ﷺ الرجل الذي قتلته خزاعة .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : دفعه ﷺ ديةَ الرجل الذي قتلته خزاعة . وذلك أن هُذيلاً كانوا قد قتلوا رجلاً من خزاعة في الجاهلية ، فلما فتح رسولُ الله ﷺ مكة ، رأى نفرٌ من خزاعة قاتلَ الخزاعي في مكة ، فعمدوا إليه فقتلوه ، فلما سمع رسولُ الله ﷺ

(١) مسند أحمد (٢: ٣٦١ ،٥٢٣ - ٥٢٤) وسنن أبي داود :كتاب الأدب : باب في التفاخر بالأحساب ، رقم (٥١١٦) وسنن الترمذي : كتاب المناقب : باب في فضل الشام واليمن ، رقم (٣٥٩٥ ، ٣٥٩٦) [لكن في تحفة الأشراف (١٠ : ٣١١): التصحيح] ومسند الطيالسي (٤ : ٨٨ من الطبعة الجديدة لأنه سقط من القديمة) وشرح مشكل الآثار (٩ : ٨٠) والسنن الكبرى (١٠ : ٢٣٢) وشعب الإيمان (٥ : ٢٨٥ - ٢٨٦ من طرق) والآداب له (٢٦٢ - ٢٦٣ ، ٢٦٣) وذكر أخبار أصبهان (٢ : ٦٠ - ٦١) وتاريخ بغداد (٦ : ١٨٧ - ١٨٨) وقال البوصيري (إتحاف الخيرة ٧ : ٤٤٣ : هذا إسناد رواته ثقات).

(٢) مسند أحمد (١ : ٣٠١) ومسند الطيالسي (٣٤٩ رقم ٢٦٨٢) وصحيح ابن حبان (١٣ : ٩١) والمعجم الكبير (١١ : ٣١٧ ، ٣١٧ - ٣١٨) والمعجم الأوسط (٣ : ٨٧) وشعب الإيمان (٥ :٢٨٦) ومجمع البحرين (٥ : ٣٠٤ - ٣٠٥) ومجمع الزوائد (٨ : ٨٥) وقال : رجال أحمد رجال الصحيح .

بذلك غضب غضباً شديداً ، وخطب الناسَ ، مبيناً شؤمَ القتل ، وأدّى ديةَ المقتول . ونبه ﷺ أن من قتل بعد كلمته تلك فوليُّه بين أمرين ؛ إما قتل القاتل ، وإما الدية .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتلوه . فأُخبر بذلك رسولُ الله ﷺ . فركب راحلتَه ، فخطب فقال : « إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسولَه والمؤمنين . ألا وإنها لم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، ولن تحلَّ لأحدٍ بعدي . ألا وإنها أُحلَّت لي ساعةً من النهار . ألا وإنها ساعتي هذه حرامٌ ... فمن قُتل له قتيلٌ فهو بخير النَّظرين ؛ إما أن يُعطى [يعني الدِّيَّةَ] وإما أن يُقادَ [أهلُ القتيل] ... » الحديث بطوله ، متفق عليه(١).

وفي الحديث التالي ما هو أوضح في الدلالة .

فعن أبي شُرَيح الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال : إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة ، فلما كان الغدُ من يوم الفتح عَدَت خزاعةُ على رجل من هُذيل ، فقتلوه - وهو مشرك - فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن الله عز وجل حرَّم مكةَ يوم خلق السمٰوات والأرض ، فهي حرامٌ من حرام الله تعالى إلى يوم القيامة ؛ لا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد بها شجراً ،... فمن قال لكم : إن رسول الله ﷺ قد قاتل بها ؛ فقولوا : إن الله عز وجل قد أحلَّها لرسوله ولم يحللها لكم . يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر أن يقع .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب كتابة العلم ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الحج : باب تحريم مكة وصيدها ،... رقم (٤٤٨).

لئن قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه . فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهلُه بخير النظرين ؛ إن شاؤوا فدَم قاتله ، وإن شاؤوا فعقْله » ثم وَدى رسول الله ﷺ الرجلَ الذي قتلته خزاعة ،... الحديث رواه ابن إسحٰق وأحمد والفسوي وأبو داود والترمذي وصححه ، والطحاوي والطبراني والبيهقي في آخرين[1] . وأصل الحديث وارد في الصحيحين .

فمن رحمته ﷺ لم يرض أن يهدر دم هذا القتيل ، فقد وداه من عنده ، ليجبر خاطر هذيل ، ويزيل الوحشة ، وليقطع النزاع فيما بين القبيلتين ، والله تعالى أعلم .

ـ ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة : دعاؤه ﷺ للكفار بالإغاثة .

لما طال صدودُ قريش ، وعظم بلاؤها ، واشتد خطرها ، وزاد عدوانها ، ومنعوا الناسَ من الدخول في الإسلام ـ دين الله تعالى ، الذي لم يرتض غيره ـ واشتد تعذيبُهم للمسلمين المستضعفين ، وحاولوا إفتان من بقي من المسلمين في مكة ،... دعا عليهم رسول الله ﷺ بالقحط والجوع ، ولم يدع عليهم بالهلاك والفناء ،... وكيف يدعو ﷺ عليهم بالهلاك ، وقد مَنَع ملَكَ الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، حين أرسله الله تعالى إليه ، وجعله

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤ : ٨٢ ـ ٨٣) ومسند أحمد (٤ : ٣١ ـ ٣٢ ، ٣٢) والمعرفة والتاريخ (١ : ٣٩٧ ـ ٣٩٨) وسنن أبي داود : كتاب الديات : باب ولي العمد رضي بالدية ، رقم (٤٥٠٤) وسنن الترمذي : كتاب الديات : باب ما جاء في حكم ولي القتيل في القصاص والعفو ، رقم (١٤٠٦) وشرح معني الآثار (٣ : ١٧٤) وسنن الدارقطني (٣ : ٩٦) والسنن الكبرى (٨ : ٧١) ودلائل النبوة (٥ : ٨٣ ـ ٨٤) والمعجم الكبير (٢٢ : ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ١٩١ ـ ١٩٢) وإتحاف المهرة (١٤ : ٢٩٩ ـ ٣٠٠) وعزاه لأبي عوانه وابن خزيمة . وانظر فتح الباري (١٢ : ٢٠٦) لبيان الجمع بين اسمي المقتول والقاتل .

تحت تصرفه ، حين منصرفه من الطائف !

إنه ﷺ يريد إسلامَهم وصلاحَهم ، ولا يريد هلاكَهم وفناءَهم ، يريد أن يرجعوا إلى الله تعالى ، ولا يريد القضاء عليهم ، يريد أن يُبتَلوا ويُمتحَنوا حتى يؤوبوا إلى ربهم ،...

فلما حبس الله تعالى عنهم القطر ، وأصابهم القحط والجهد والشدة ـ حتى رأوا الدخان في النهار ، وأكلوا العظام من الجوع ، وأيقنوا بالهلاك ،... وجاءه أبو سفيان ـ قبل إسلامه ـ وسأله الدعاء لهم ؛ أخذت النبيَّ المصطفى الكريمَ ﷺ الشفقةُ ، وأدركتهم الرحمةُ ، وقربت منهم الرأفة ، وتحرّك الرّحم ، فدعا ﷺ لهم بالغيث ، واستسقى لهم الله تعالى ، فسُقوا ، وأُغيثوا ، ونزل المطر ، وفرّج الله تعالى عنهم الكرب ، ورفع عنهم الشدّة ، بعد ما حل بهم العقاب ، مع ما كانوا عليه من الكفر والعدوان .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجَهدٌ ؛ حتى جعل الرجلُ ينظرُ إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، وحتى أكلوا العظام ، فأتى النبيَّ ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ؛ استغفر الله لمضر .

[وفي رواية لهما : فأتاه أبو سفيان فقال : أي محمد ، إن قومك قد هلكوا ، فادع الله أن يكشف عنهم .

وفي رواية أخرى عند البخاري : يا رسول الله ، استسق لمضر ؛ فإنها قد هلكت] فقال : « لمضر ؟ إنك لجريء » قال : فدعا الله لهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الدخان (١٥).

قال : فمُطِروا [وفي رواية للبخاري : فاستسقى ، فسُقوا] متفق عليه[1] .

لو كان ﷺ يريد الانتقام لم يدع لهم ، ولم يستسق لهم ، ولم تأخذه الشفقة والرحمة والرأفة فيهم ، بل كان قد زاد في الدعاء عليهم ، بل لدعا عليهم بالهلاك ، بل ـ على الأقل ـ لوافق على أن يطبق عليهم مَلَكُ الجبال الأخشبين ، ولكنه الرحمة المهداة التي يرغب بخلاص الناس من العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، لذا دعا لهم ، واستسقى لهم فسُقوا .

فما أرحمه وأشفقه وأحلمه وأرأفه وأصفحه ﷺ ؛ حيث تناسى ما فعلوا به ، ودعا لهم بالنجاة من عذاب الدنيا ، الذي حلّ بهم ، فاستجاب الله تعالى له دعاءه فيهم ، فمُطروا ، والله تعالى أعلم .

ـ إغاثته ﷺ لهم حينما مُنعت عنهم الميرة

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : إغاثته ﷺ قريشاً لما مَنع عنها ثمامةُ بنُ أثال رضي الله تعالى عنه بعد إسلامه ، أن يأتيها شيء من الحنطة والشعير من اليمامة ، فاستغاثوا برسول الله ﷺ أن يطلب من ثمامة أن يرفع الحصار عنهم فقد هلكوا ، وناشدوا رسول الله ﷺ الرحم ، فأدركتهم الشفقة ، وشملتهم الرحمة ، فأرسل ﷺ إلى ثمامة أن يرفع الحصار عنهم فرفعه ، ومع هذا بقوا على ضلالهم وعنادهم ، حتى كان الفتح ، اللهم إلا من أدركته العناية الربانية ، فأسلم قبل الفتح .

ففي قصة إسلام ثمامة رضي الله تعالى عنه ـ وسيأتي ذكرها في باب

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الاستسقاء : باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ، وكتاب التفسير : سورة الدخان : من الباب الثاني حتى الخامس . وصحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين : باب الدخان ، رقم (٣٩ ، ٤٠).

العفو عن الأسير - والحديث متفق عليه[1]. لكن أذكر ما زاده الإمام البيهقي رحمه الله تعالى بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وفيه[2]:

فلما قدم مكة، وسمعتْه قريش يتكلم بأمر محمد من الإسلام. قالوا: صبأ ثمامةُ. فأغضبوه، فقال: إني والله ما صبوتُ، ولكني أسلمتُ، وصدَّقتُ محمداً، وآمنتُ به، وأيم الذي نفسُ ثمامة بيده، لا تأتيكم حبةٌ من اليمامة - وكانت ريفَ مكة - ما بقيتُ حتى يأذن فيها محمد ﷺ. وانصرف إلى بلده، ومنع الحملَ إلى مكة، حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم؛ أن يكتب إلى ثمامة يُخَلّي حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ.

لقد أخذته ﷺ الرحمة حين كتبوا له يزعمون أن الأطفال يموتون جوعاً، وأنهم قد أكلوا العلهز. ومن أولى منه ﷺ بالشفقة والرحمة والعطف والحنان، وقد أخبر الله تعالى عنه ﷺ أنه رحمة للعالمين؟

- حثه ﷺ على إسقاط أعمال الجاهلية.

ومن مظاهر الرحمة المهداة التي ظهرت في مكة: أنه ﷺ أبطل أعمال الجاهلية، خاصة التي كانت سبباً في الفرقة والشحناء والتباغض، وأول ما أسقط ﷺ من الحقوق: حقوق أهل بيته الأقربين، من دماء وأموال وبيوت، ومعاملات باطلة، بالإضافة إلى الوصية بالنساء، مع بيان السبب في ذلك.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد: باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه، رقم (٥٩ - ٦٠).

(٢) دلائل النبوة (٤ : ٧٨ - ٨٠) وذكر الحديث من رواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بنحوه. وانظر سيرة ابن هشام (٤ : ٣٨١).

فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ـ الحديث بطوله في صفة حجة النبي المصطفى الكريم ﷺ ، وفيه : فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفةَ ، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمسُ أمر بالقصواء فرُحِلت له ، فأتى بطن الوادي . فخطب الناسَ ، وقال : « إن دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم كحرمةِ يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ ، وإن أولَ دم أضعُ من دمانا دمُ ابن ربيعةَ بن الحارث ـ كان مسترضِعاً في بني سعد ، فقتلته هُذيل ـ وربا الجاهلية موضوعٌ ، وأول رباً أضعُ ربانا ؛ ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوعٌ كلُّه . فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجَهن بكلمة الله ،... » الحديث بطوله ، رواه مسلم[1].

فيلاحظ في هذا الحديث الشريف :

ـ تحريم الدماء والأموال تحريمًا مؤبّداً ، لا يجوز انتهاكها بحال ، إلا بحقٍّ .

ـ وضع كل أمور الجاهلية مما لا يقره الشرع ، ومما كانوا يتفاخرون به ، أو هو مخالف للحكمة الربانية ، كالوأد والبيوع الفاسدة ونحو ذلك .

ـ تحريم الأخذ بالثأر ، وأول دم أسقط حق المطالبة به دم ابن ابن عمه ؛ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

ـ تحريم الربا ، وعدم التعامل به ، لما فيه من امتصاص أموال المحتاجين

(١) صحيح مسلم : كتاب الحج : باب حجة النبيِّ ﷺ ، رقم (١٤٧).

والضعفاء ، وأول رباً وضعه ﷺ ربا عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه .

ـ الوصية بالنساء ، مع بيان حريتها ، وبيان العلاقة بينها وبين الرجل ، وأن لها من الحقوق ما للرجل عليها من حقوق ،...إلخ ، والله تعالى أعلم .

ـ حثه ﷺ على اليسر وعدم التعسير .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي أهداها الله تعالى للعالمين ؛ أن جعل هذا الدين الكريمَ دينَ الرحمة واليسر والسماحة ، فلا عسر فيه ، ولا حرج ، ولا مشقة ولا غلو ،... بخلاف ما كان في الديانات السابقة .

كما بيَّن ﷺ أنه بُعِث ميسِّراً ، ولم يُبعث معسِّراً ، والتيسير يقتضي الرحمة ، وإلا لم ييسِّر ، والله تعالى أعلم .

قال جل شأنه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه ـ في قصة سؤال أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن رسولَ الله ﷺ الزيادةَ في النفقة ، واعتزالِه ﷺ لهن شهراً ، ونزول آية التخيير ، وقراءته ﷺ الآية على عائشة رضي الله تعالى عنها ـ وفي آخره قال ﷺ : « إن الله لم يبعثني معنِّتاً ولا متعنِّتاً ، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً ». رواه مسلم[2].

بل جعل الله عز وجل الدِّينَ كلَّه لا حرجَ فيه ولا مشقَّة ، وإنما هو حسب طاقة الإنسان ، وقد توسعت في الرحمة المهداة ﷺ ، فانظره .

(١) سورة البقرة (١٨٥).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الطلاق : باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ، رقم (٢٩).

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1].

ولذا حث رسول الله ﷺ أمتَه على التراحم والتيسير وعدم التعسير ، والتبشير وعدم التنفير ، والتسامح ، سواء كان بين المسلمين ، أو كان عند مخاطبته للكفار ، وكل ذلك يقتضي وجود الرحمة في القلب . وأذكر ثلاثة أحاديث فقط ، وإلا فالأحاديث كثيرة .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يسِّروا ولا تُعسِّروا ، وبشِّروا ولا تُنفِّروا ». متفق عليه[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أموره قال : « بشِّروا ولا تُنفِّروا ، ويسِّروا ولا تعسِّروا ».

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه ، أن النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن ، فقال : « يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ». متفق عليه[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه - في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد - وفيه فقال لهم رسول الله ﷺ : « دعوه ، وأهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء - أو ذَنوباً من ماء - فإنما بُعثتم مُيسِّرين ، ولم تُبعثوا مُعسِّرين ». رواه البخاري[4].

(١) سورة الحج (٧٨). وانظر سورة المائدة (٦).

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب ما كان النبيُّ ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ، رقم (٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٦ ، ٧).

(٤) صحيح البخاري : كتاب الوضوء : باب صب الماء على البول في المسجد ، وفي غيرهما .

لو اقتصر على قوله : « يسِّروا » لصدق على من يسَّر مرةً وعسَّر كثيراً ، فلما قال : « ولا تعسِّروا » نفى التعسيرَ في جميع الأحوال . أفاده الإمامُ النووي رحمه الله تعالى ، والله تعالى أعلم . وسيأتي التنبيه لذلك .

ـ مسامحته ﷺ لعدوه .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي أكرم الله تعالى بها الخلق : أن جعل الله عز وجل رسوله الكريم ﷺ يسامح كل المخلوقات ، حتى الذين آذوه وعذّبوه ونالوا منه ، بل حتى الذين أرادوا قتله ـ بأبي هو وأمي ـ وهذا بلغ القطع ، ولم يخف على قريب أو بعيد . وأذكر بعض النماذج في ذلك :

ـ إن **أهل مكة** لم يتركوا وسيلة للإيذاء برسول الله ﷺ إلا سلكوها ، ولم يتركوا موطناً إلا نالوا منه ﷺ ، وتنوعت مظاهر عداواتهم عليه ، فمن شتم وسبٍّ وتهكُّمٍ وتهجُّمٍ وتكذيبٍ ، واتهامٍ بالسحر والكهانة والجنون ،... بل تطوّر الأمر إلى النيل من جسده الشريف في مكة ، من محاولة خنقه ﷺ ، وإلقاء القاذورات على ظهره الشريف وهو ساجد ، وعلى بابه إذا دخل بيته ، ومنعه من تبليغ دعوته ، وتشويه صورته عند القبائل ،... ثم ما حصل له ﷺ في غزوة أُحُدٍ ، من كسر رباعيته ، وشج وجنته ، وكسر بيضته على رأسه الشريف ، ثم محاولة قتله مراراً ، ثم محاولة اغتياله ، وفي الخندق ، وصده عن البيت يوم الحديبية .

ومع هذا ماذا قال ﷺ لهم حين حانت ساعة الانتقام منهم يوم الفتح ؟

إنه لم يقتلهم يومها ، بل منّ عليهم ، وقال ﷺ لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

ـ كما أنه ﷺ **لم يعاقب أهلَ الطائف** على ما فعلوا معه حين أتاهم قبل

الهجرة ، وحرّضوا عليه السفهاء والصبيان ، فضربوه حتى أدموه ، وسال الدم من عراقيبه ، مع ما ناله من أذى شديد في جسده الشريف .

وإذا كان ﷺ رفض أن يطبق عليهم مَلَكُ الجبال الأخشبين ، فإنهم حين أتوه ﷺ طائعين استقبلهم أحر استقبال ، وأكرمهم غاية الإكرام .

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : يا رسول الله ؛ هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ ؟ فقال : «... وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة . إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن كُلال ». الحديث بطوله ، وفيه : « إن الله قد سمع قولَ قومك لك ، وأنا ملَكُ الجبال ، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ ؟ إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلي مكة) ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً ». متفق عليه[1].

فلم يعاملهم بما فعلوا ، بل على العكس تماماً ، لأنه ﷺ الرحمة المهداة ، لذا أسلم عامتهم بعد فترة .

ـ **كما أنه ﷺ لم يقتل بني النضير** ، بل عفا عنهم ، واكتفى بإجلائهم ، مع أنهم ـ أخزاهم الله تعالى ـ حاولوا اغتياله ، مرتين .

الأولى : عندما اتفقوا أن يلقوا عليه حجراً كبيراً ـ حجر الرحى ـ من فوق السطح الذي كان يجلس تحته ، فأعلمه الله تعالى ، ونجاه .

والثانية : حين اتفق عدد من أحبارهم أن يغدروا به ﷺ ، وذلك بأن يطعنوه بخناجرهم المسمومة ، والتي اشتملوا عليها تحت أرديتهم ، ولكن

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق : باب إذا قال أحدكم : (آمين) والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى ؛ غفر له ما تقدّم من ذنبه . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب ما لقي النبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، رقم (١١١).

الله تعالى فضحهم ، وسلَّم نبيَّه الكريمَ ﷺ .

وهكذا يقال في بقية اليهود ، حيث لم يقتلهم عندما غدروا وخانوا العهد ، كبني قينقاع ، وقريظة ، واكتفى بإجلاء بني قينقاع ، ولما تكرر غدرُ بني قريظة ، وطفَّ الصاع ، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه عاملهم بما في دينهم ، وهو قتلهم ، فكان الموافق لقضاء الله تعالى ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ـ والله تعالى أعلم .

كما لم يقتل ﷺ من حاول اغتيالَه في المدينة أو في مكة أو في حنين ، بل تبسَّم في وجوههم ، ولـمّا أخبرهم بما في نفوسهم ؛ أسلموا ، وحسن إسلامُهم ، كما سيأتي في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى .

ـ لم يقتل ﷺ من سمَّه أو سحره أو حاول قتله أو أساء إليه .

ومن مظاهر هذه الرحمة التي شملت الكفار ؛ أن رسول الله ﷺ لم يقتل ـ ولم يعاقب ، بل لم يُعنِّف ـ من أراد قتله أو اغتياله أو سمّه أو سحره ـ سواء كانوا من العرب الكفار الأعداء أو من اليهود الحاقدين ـ بل عفا عنهم جميعاً ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً ، أقتصر على ذكر بعضها وإن كثرت . والله تعالى هو المعين والحافظ والمؤيد .

أ ـ لم يقتل اليهودي الذي سحره .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : أنه ﷺ لم يقتل لبيد بن الأعصم المنافق حليف اليهود ، الذي سحره في إتيانه ﷺ أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، ولم يكن السحر عامّاً ، شاملاً قلبَه الشريفَ وعقله واعتقاده ، لا ، إنما هو مرض[1]. تسلَّط على جسده الشريف ، وجوارحه ،

(١) يوضحه روايات البخاري في كتاب بدء الخلق والطب والأدب والدعوات قوله ﷺ : « أما الله فقد شافاني » كما أنه ﷺ احتجم .

وهو في جزئية ، هي إتيان أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها في الفراش ، ولم يُقبَض عن غيرها[1] لذا لم يشتهر عن غيرها ، لعدم علمهن به ، كما بينته في رسالة خاصة . ولم يقتله مع اعترافه بذلك[2].

وقد جاءه الملَكان ، وأخبراه بمن طبّه ، وفي أي شيء ، وأين يوجد في البئر ، فجاءه ﷺ مع بعض الصحابة ، والحديث متواتر عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، صاحبة القصة .

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سحر رسولَ الله ﷺ يهوديٌّ من بني زُريق ، يقال له : لبيد بن الأعصم . قالت : حتى كان رسول الله ﷺ يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيءَ وما يفعله ، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة ؛ دعا رسول الله ﷺ ، ثم دعا ، ثم دعا ، ثم قال : « يا عائشة ، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه ، جاءني رجلان ، فقعد أحدُهما عند رأسي ، والآخرُ عند رجليَّ ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليَّ - أو الذي عند رجليَّ للذي عند رأسي - : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : من طبَّه ؟ قال : لبيد بنُ الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلعة ذَكَر . قال : فأين هو ؟ قال في بئر ذي أروان [بئر ذروان] ».

قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه . ثم قال : « يا عائشة ؛ والله لكأن ماءَها نُقاعةُ الحنّاء ، ولكأن نخلَها رؤوسُ الشياطين ».

قالت : فقلت يا رسول الله ؛ أفلا أحرقتَه ؟ قال : « لا ، أما أنا فقد عافاني

---

(١) لرواية البخاري في كتاب الأدب : عنها قالت : مكث النبيُّ ﷺ كذا وكذا يخيَّل إليه أنه يأتي أهلَه ولا يأتي . وقولها : مكث كذا وكذا ؛ يوضحه رواية الإسماعيلي (٤٠ يوماً). انظر فتح الباري (١٠ : ٢٢٦).

(٢) انظر فتح الباري (١٠ : ٢٣١) حيث ذكر الروايات في ذلك .

الله ، وكرهت أن أثير على الناس شرّاً ، فأمرتُ بها فدُفنت ». متفق عليه[1].

ب ـ لم يقتل ﷺ اليهودية التي سمته .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار ؛ أن رسول الله ﷺ لم يقتل اليهودية ـ ومن تواطأ معها من اليهود ـ الذين سعوا في القضاء عليه ﷺ ، بأن قدّموا له شاةً مسمومة ، ولكن الحافظ الكريم الذي تكفّل بحفظ نبيه الكريم ﷺ لم يتركه ، بل أنطق الذراع ، فأخبر رسول الله ﷺ بأنه مسموم ، لذا سلّم الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ ، ولم يتأثر من ذلك السم . والأحاديث في ذلك كثيرة ، أقتصر على ذكر بعضها .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ ، فسألها عن ذلك؟ فقالت : أردتُ لأقتلك . قال : « ما كان الله ليسلِّطكِ على ذلك » ـ قال : أو قال « عليَّ » ـ قالوا : ألا نقتلُها؟ قال : « لا ». متفق عليه ، واللفظ لمسلم[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : لما فُتحت خيبرُ ، أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ [زاد في رواية أبي داود والبيهقي فقال ﷺ : « ارفعوا أيديكم ، فإنها أخبرتني أنها مسمومة »] فقال النبيُّ ﷺ : « اجمعوا لي من كان ههنا من يهود » فجُمعوا له . فقال : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ عنه ؟ » فقالوا : نعم . فقال لهم النبيُّ ﷺ : « من أبوكم ؟ » قالوا :

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق : باب صفة إبليس وجنوده ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب السلام ، باب السحر ، رقم (٤٣ ، ٤٤).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الهبة : باب قبول هبة المشرك . وصحيح مسلم : كتاب السلام : باب السم ، رقم (٤٥).

فلان . فقال : « كذبتم ، بل أبوكم فلان » قالوا : صدقتَ ، قال : « فهل أنتم صادِقِيَّ عن شيء إن سألتُ عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبنا عرَفتَ كذبَنا كما عرفتَه في أبينا . فقال لهم : « من أهلُ النار ؟ » قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها . فقال النبيُّ ﷺ : « اخسؤوا فيها ، والله لا نخلُفُكم فيها أبداً » ثم قال : « هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتُكم عنه ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم . قال : « هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » قالوا : نعم . فقال : « ما حملكم على ذلك ؟ » فقالوا : إن كنتَ كاذباً نستريح منك ، وإن كنتَ نبيّاً لم يضرك . رواه البخاري[1].

فقوله في رواية أنس رضي الله تعالى عنه ـ قالوا : ألا نقتلها ؟ قال ـ : « لا » صريح في أنه ﷺ لم يقتلها ، بل عفا عنها . وقد جاء نحو ذلك عن عدد من الصحابة ؛ كأُبي بن كعب وجابر وأبي هريرة ،... رضي الله تعالى عنهم . وقيل : إنها أسلمت بعد ذلك ، وقيل قتلها قصاصاً بعد عام عندما مات بشر بن البراء رضي الله تعالى عنه[2]، والله تعالى أعلم .

ج ـ لم يقتل الأعرابي الذي أراد اغتياله ﷺ وهو نائم .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : أنه ﷺ لم يقتل الأعرابيَّ الذي تسلّل خفية ، وأخذ سيف رسول الله ﷺ وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ ، والأعرابيُّ واقف فوق رأسه ، وبيده السيف صلتاً ، يريد اغتيال النبي الكريم ﷺ ، وهو يقول له : من يمنعك منّي ؟ فلما أجابه ﷺ

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجزية : باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ؟ وفي غيرهما . وسنن أبي داود : كتاب الديات : باب من سقى رجلاً سمّاً أو أطعمه فمات ،... رقم (٤٥١٢).

(٢) انظر فتح الباري (٧ : ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

بقوله : « الله » سقط السيف من يد الأعرابي ، فأخذه رسول الله ﷺ ، ثم عفا عنه .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاهِ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرَّق الناس يستظلون بالشجر ، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة ، وعلّق بها سيفَه ، ونمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، وإذا عنده أعرابيٌّ فقال : « إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم ، فاستيقظتُ وهو في يده صلتاً ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله (ثلاثاً) ولم يعاقبه ، وجلس . متفق عليه ، زاد مسلم في روايته : ثم لم يَعرِض له رسول الله ﷺ[1].

رجل حريص على قتل رسول الله ﷺ ، وهو نائم ، فلما استيقظ ، صار يخاطبه : من يمنعك مني ؟ فلما أجابه ﷺ بقوله : « الله » أُسقط في يده ، فوقع السيف من يده ، وهو لا يدري أن الله تعالى عاصم نبيه الكريم ﷺ ، وحافظه من الناس ، ثم ما هذه الشجاعة وعدم الخوف التي اتصف بها ﷺ ، وإن كان السيف مصلتاً فوق رأسه .

ثم ما هذه الرحمة ؟ ما هذه الشفقة ؟ ما هذه الرأفة ؟ ما هذا العطف ؟ رجل يريد قتله ﷺ ، ومع هذا يمنُّ عليه ، فلم يقتله ، بل لم يعاقبه أو يعنِّفه !!! لذا أسلم الرجل بعد ما عفا عنه رسول الله ﷺ ، ورجع إلى قومه ، وقال

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب من علَّق سيفَه بالشجر في السفر عند القائلة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس ، رقم (١٣ ، ١٤).

لهم : لقد جئتكم من خير الناس ، وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ - كما ذكر ابن إسحٰق - إنه ﷺ الرحمة المهداة التي أهداها الله تعالى لخلقه ، والله تعالى أعلم .

د - لم يقتل ﷺ فَضالة بن عُمير الليثي الذي أراد اغتياله عند الكعبة .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : أن رسول الله ﷺ لم يقتل فضالة بن عُمير الليثي ، الذي حاول اغتياله ﷺ وهو يطوف حول الكعبة عام الفتح . بل ضحك في وجهه ، ووضع يده الشريفة على صدره ، فأخرج الله عز وجل منه حظ الشيطان ، وصار رسول الله ﷺ أحبَّ الخلق لديه .

فقد ذكر أهلُ السير أن فَضالةَ بنَ عُمير الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه ، قال رسول الله ﷺ : « أفَضالة ؟ » قال : نعم ، فَضالة يا رسول الله ؛ قال : « ما ذا كنتَ تحدِّث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنتُ أستغفر الله . قال : فضحك النبيُّ ﷺ ، ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يدَه على صدره ، فسكن قلبُه . فكان فَضالةُ يقول : والله ما رفع يدَه عن صدري حتى ما من خلقِ الله شيء أحب إليَّ منه[1].

لم يقتله ، بل تبسم في وجهه ، وأمره أن يستغفر الله تعالى ، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبُه ، وزال حظ الشيطان منه . وصار ﷺ أحبَّ الناس إليه .

هـ - لم يقتل ﷺ شيبة بن عثمان الذي حاول اغتياله يوم حنين .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : أنه ﷺ لم يقتل شيبة بن عثمان بن طلحة الحجبي الذي حاول اغتياله ﷺ يوم حنين . مع

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤ : ٨٥) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ٥٨٣ - ٥٨٤).

أن الوقت وقتُ قتال ، وأراد شيبة اغتياله أثناء المعركة ، ومع هذا لم يقتله رسول الله ﷺ ، بل دعاه ، ومسح على صدره ، ودعا له ، فعرف شيبة أن لا سبيل إلى ذلك ، وأنه ﷺ ممنوع ، مما ثبّت الإيمانَ في قلبه ، وثبت معه في المعركة ، وقاتل أشد القتال ، حتى تم النصر من السماء .

فعن شيبة بن عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : لما رأيت رسول الله ﷺ يومَ حنين قد عَرِي ، ذكرتُ أبي وعمي ، وقتلَ عليٍّ وحمزة إياهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأري من محمد . قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائم عليه درع بيضاء ؛ كأنها فضة ، يكشف عنها العجاج ، فقلت : عمُّه ولن يخذله . قال : فجئتُه عن يساره ، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقلتُ : ابنُ عمِّه ولن يخذله . قال : ثم جئتُه من خلفه ، فلم يبق إلا أن أُسوّره سَورةً بالسيف ، إذ رُفع لي شواظٌ من نار بيني وبينه ؛ كأنه برق ، فخفتُ تمحشني ، فوضعتُ يدي على بصري ، ومشيتُ القهقرى ، والتفت رسولُ الله ﷺ . وقال : « يا شيب ، يا شيب ، أدن مني ، اللهم أَذهِب عنه الشيطان » [فوضع رسول الله ﷺ يده على صدري ، فاستخرج الله عني الشيطان من قلبي] قال : فرفعتُ إليه بصري ، ولهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري . وقال : « يا شيب قاتل الكفارَ ». رواه البيهقي في الدلائل ، والطبراني في الكبير ، والبغوي في معجمه[1].

(١) دلائل النبوة (٥ : ١٤٥) ومعجم الصحابة (٣ : ٢٩١ ـ ٢٩٢) والمعجم الكبير (٧ : ٥٣٧ ـ ٥٣٨) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ٦٣٢) ومجمع الزوائد (٦ : ١٨٤) وذكره ابن إسحٰق مختصراً ، وانظر سيرة ابن هشام (٤ : ١٢٤) وانظر كنز العمال (١٠: ٥٤٥) وأسد الغابة والإصابة في ترجمته . وله شاهد بنحوه رواه البيهقي والطبراني وأبو نعيم .

فلم يقتله ﷺ ، بل عفا عنه ، ومسح على صدره ، فكان ذلك كافياً في ثبوت الإيمان في صدره ، وخروج حظ الشيطان منه ، والله تعالى أعلم .

و ـ لم يقتل ﷺ عُمير بن وهب الذي حاول اغتياله في المدينة .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار الأعداء : أنه ﷺ لم يقتل عُمير بن وهب ، الذي قدم المدينة بقصد اغتيال النبي المصطفى الكريم ﷺ ، فلما كاشفه ﷺ بحقيقة مجيئه ، وما اتفق عليه هو وصفوان بن أمية ، وذكر له ما دار بينهما ، وكأنه ﷺ كان جالساً معهما : أسلم ، ولم يقتله ـ مع أن عقوبةَ القادم على القتل : القتلُ ـ لكن ذلك لا يستغرب عليه ﷺ ، وقد أطلعه الله تعالى على المغيبات ، بالوحي النازل عليه ، وإن خفي على غيره ، والله تعالى أعلم .

فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كان وهب بن عُمير[1] شهد أحداً كافراً ، فأصابته جراحة ، فكان في القتلى ، فمر به رجل من الأنصار ، فعرفه ، فوضع سيفَه في بطنه حتى خرج من ظهره ، ثم تركه ، فلما دخل الليل ، وأصابه البرد ؛ لحق بمكة ، فبرأ ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحِجْر .

فقال وهب [كذا هنا ، والصواب : عُمير بن وهب ، وهو أبو وهب] : لولا عيالي ودَينٌ عليَّ لأحببتُ أن أكون أنا الذي أقتل محمداً بنفسي .

فقال صفوان : فكيف تصنع ؟ فقال : أنا رجلٌ جواد لا أُلحق ، آتيه فاغتره ، ثم أضربه بالسيف ، ثم ألحق بالخيل ، ولا يلحقني أحد .

فقال له صفوان : فعيالُك مع عيالي ودَيْنُك عليَّ . فخرج ، فشحذ سيفه وسمَّه ، ثم خرج إلى المدينة ، لا يريد إلا قتل النبي ﷺ .

---

(١) هو ابن عمير ، شهد بدراً مشركاً ، ووقع في الأسر .

فلما قدم المدينة ، رآه عمر بن الخطاب ، فهاله ذلك ، وشقَّ عليه . وقال لأصحاب النبي ﷺ : إني رأيت وهباً قدم ، فرابني قدومه ، وهو رجل غادر ، فأطيفوا بنبيكم ﷺ ، فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ ، فجاء وهبٌ ، فوقف على النبيِّ ﷺ ، فقال : أنعم صباحاً يا محمد . فقال : « قد أبدلنا الله خيراً منها » فقال : عهدي بك تحدث بها ، وأنت معجب .

فقال له النبيُّ ﷺ : « ما أقدمكَ ؟ » قال : جئت أفدي أساراكم . قال : « ما بال السيف ؟ » قال : أما إنا قد حملناها يوم بدر فلم نفلح ، ولم ننجح .

قال : « فما شيء قلتَ لصفوان ، وأنتما في الحِجْر ؛ لولا عيالي ودَيني لكنتُ أنا الذي أقتلُ محمداً بنفسي » فأخبره النبيُّ ﷺ الخبرَ . فقال وهب : هاه . كيف قلتَ ؟ فأعاد عليه . قال وهب : قد كنتَ تخبرنا خبرَ أهل الأرض فنكذِّبك ، فأراك تُخبرُ خبرَ أهل السماء . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقال : يا رسول الله ، أعطني عمامتك . فأعطاه النبيُّ ﷺ عمامته ، ثم رجع إلى مكة .

فقال عمر : لقد قدم وإنه لأبغض إليَّ من الخِنزير ، ثم رجع وهو أحبُّ إليَّ من ولدي . رواه الطبراني برجال الصحيح . ورواه من وجهين آخرين مرسلاً ، وإسناده حسن[1].

مؤامرة اغتيال ، ومع هذا لم يقتله ﷺ ، بل لم يعنِّفه ، ولكن فاتحه بحقيقة ما جاء لأجله ، بما أوحاه الله تعالى إليه ، فكانت النتيجة أن أسلم ، وهذا ما يريده ﷺ ، لذا جاء في الرواية المرسلة قوله ﷺ : « فقِّهوا أخاكم في

(١) المعجم الكبير (١٧ : ٥٦ ـ ٦٢) مجمع الزوائد (٨ : ٢٨٤ ـ ٢٨٧) وانظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ٣٧١ ـ ٣٧٤) وأسد الغابة (٣ : ٧٩٧ـ٧٩٨) والإصابة (٤ : ٧٢٦ـ٧٢٨).

دينه ، وأقرؤوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » وقال عمر رضي الله تعالى عنه ما قال .

كما أنه ﷺ لم يقتل صفوان بن أمية ـ المحرِّض الرئيسي ـ حين ظفر به في مكة ، بل تركه ، وأمهله مدة ، وأعطاه مائة من الإبل يوم حنين ، فأسلم ، وحسن إسلامه أيضاً ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في قصة إسلامه .

ز ـ لم يقتل ﷺ حبر اليهود ؛ زيدَ بنَ السعنة الذي أساء إليه ، بمحضر الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : كونه ﷺ لم يقتل حبر اليهود ـ زيد بن السعنة ـ الذي تهجّم على النبي المصطفى الكريم ﷺ أمام الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ، وأساء إليه ﷺ بحضرتهم ، وقد همَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بقتله ، لكن رسول الله ﷺ أمره بعكس ما همَّ به ، فكانت النتيجة أن أسلم هذا الحبر ، وأخبر أنه ما حمله على فعل ما فعله بالنبي الكريم ﷺ بحضرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلا ليكتشف بعض الخصال المذكورة في النبي الموعود ، فتحقَّقها فيه ﷺ ، لذا أسلم .

فعن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال : إن الله تبارك وتعالى لما أراد هُدَى زيد بن سعْنَة ، قال زيد بنُ سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيءٌ إلا وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه ، إلا اثنتين لم أَخبَرهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيده شدَّةُ الجهل عليه إلا حلماً . فكنتُ أتلطَّف له لأن أخالطه فأعرف حلمَه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات ، ومعه عليُّ بنُ أبي طالب ،

فأتاه رجل على راحلته كالبدوي ، فقال : يا رسول الله ، قريةُ بني فلان قد أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وكنتُ أخبرتُهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزقُ رغداً ، وقد أصابهم شدةٌ وقحطٌ من العيش ، وأنا أخشى يا رسول الله ، أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيتَ أن ترسلَ إليهم من يُغيثُهم به فعلتَ . قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه ، أُراه عمر ، فقال : ما بقي منه شيء يا رسول الله .

قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه ، فقلت : يا محمد ، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ؟ فقال : « لا ، يا يهودي ، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجلِ كذا وكذا ، ولا أسمّي حائطَ بني فلان » قلت : نعم ، فبايعني ﷺ ، فأطلقتُ همياني ، فأعطيتُه ثمانين مثقالاً من ذهب في تمرٍ معلومٍ إلى أجلِ كذا وكذا . قال : فأعطاها الرجلَ ، وقال : « اعجل عليهم ، وأغثهم بها » .

قال زيد بنُ سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ في جنازةِ رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ونفرٌ من أصحابه ، فلما صلّى على الجنازة ، دنا من جدارٍ ، فجلس إليه ، فأخذتُ بمجامع قميصه ، ونظرتُ إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : ألا تقضيني يا محمد حقّي ؟ فوالله ما علمتُكم بني عبد المطلب إلا مطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم . قال : ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلَك المستدير ، ثم رماني ببصره ، وقال : أي عدوَّ الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتفعل به ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوتَه لضربتُ بسيفي هذا عنقَك . ورسول الله ﷺ ينظر إلى

عمر في سكون وتؤدة ، ثم قال : « إنا كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر . أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقَّه ، وزده عشرين صاعاً من غيره ، مكانَ ما رعتَه » .

قال زيد : فذهب بي عمر ، فقضاني حقي ، وزادني عشرين صاعاً من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتُك . فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ قلت : أنا زيدُ بنُ سعنة . قال : الحبر ؟ قلتُ : نعم ، الحبرُ .

قال : فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلتَ ، وتفعلَ به ما فعلتَ ؟ فقلت : يا عمر ، كلُّ علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتين ؛ لم أخبرهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيدُه شدةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُهما ، فأُشهدك يا عمر أني قد رضيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً . وأُشهدك أن شطرَ مالي - فإني أكثرها مالاً - صدقةٌ على أمة محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضها ، فإنك لا تسعهم كلَّهم . قلت : أو على بعضهم .

فرجع عمر وزيدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال زيدٌ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ . فآمن به وصدَّقه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة ، ثم تُوُفِّي في غزوة تبوك ، مقبلاً غير مدبر . رواه ابن حبان والحاكم وصححاه ، وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل ، والطبراني برجال ثقات ، وأبو الشيخ وغيرهم ، وحسنه الحافظ المزي ، وللحديث شاهدان[1] .

---

(١) صحيح ابن حبان (١ : ٥٢١ - ٥٢٤) والمستدرك (٣ : ٦٠٤ - ٦٠٥) والمعجم الكبير (٥ : ٢٥٣ - ٢٥٥) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ١٠٨ - ١١٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٧٨ - =

حبر يهود فعل برسول الله ﷺ ما فعل ، وأساء إليه بحضرة صحابته رضي الله تعالى عنهم ، وأتى قبل موعد الأجل ، ليختبر بعض الصفات التي لا تُعرف إلا بالمخالطة ، ومع هذا لم يعنِّفه رسول الله ﷺ ، ولم يقتله ، مع أنه عدو ، والأرض للمسلمين ، وخاطب عمرَ رضي الله تعالى عنه أن يتصرف بخلاف ما صدر منه ، وطلب منه أن يقضي زيداً حقه ـ مع أن الأجل لم يحن ـ وأن يزيده عشرين صاعاً مقابل ما روّعه .

فما أحلمه وأشفقه وأكرمه وأرحمه وأرأفه ﷺ التي جعلت الحبرَ يسلم ، ويتصدّق بشطر ماله ، ويلازم رسول الله ﷺ ، حتى قُتل في سبيل الله رضي الله تعالى عنه مقبلاً غير مدبر .

ح ـ لم يقتل ﷺ المنافقين الذين آذوه .

لقد أخبرنا الله تعالى أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وأنهم مخلَّدون فيها ، وأن الجنة محرَّمة عليهم ، لأنهم أخس من الكفار ، ومع هذا فإنه ﷺ لم يقتلهم ، ولم يطردهم ،... بل أحسن إليهم ما داموا بين ظهراني المسلمين ، ويشهدون الصلاةَ معهم . مع معرفته ﷺ بهم وبأسمائهم ، وبمخططاتهم ، وقد كان ﷺ قد أخبر حذيفةَ بن اليمان رضي الله تعالى عنهما بأسماء جميع المنافقين . وأقتصر على ثلاثة مواقف للمنافقين ، منها اثنان عن ابن أُبي ابن سلول ، ومع هذا لم يقتلهم .

= ٢٨٠) وأخلاق النبيّ ﷺ : باب ما ورد في كظمه الغيظ وحلمه ﷺ (٧٢ ـ ٧٤) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠) والإصابة (١ : ٥٦٦) وتهذيب الكمال (٧ : ٣٤٤ ـ ٣٤٧) والاستيعاب (٢ : ١٢٢) وأسد الغابة (٢ : ١٣٦ ـ ١٣٧) وانظر : دلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٨٠ ـ ٢٨١) والطبقات الكبرى (١ : ٣٦١) لبيان الشاهدين .

١ ـ لم يقتل عبدَ الله بنَ أُبيٍّ ابنَ سلول الذي هيج الناس يوم بني المصطلق

لقد قام عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول ـ كبير المنافقين ـ يوم عودتهم من غزوة بني المصطلق بأعمال غاية في الخسة ، حيث استغل حادثة وقعت بين راعيين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، كسع أحدُهما عجيزةَ الآخر ، فقال عبدُ الله قولته ، فلما أُخبر رسول الله ﷺ بذلك ، ودعاه أنكر ، وحلف اليمين المغلظة أنه ما قال ، حتى صدَّقه المسلمون ، وتحاملوا على من نقل الخبر . فأنزل الله تعالى تكذيبَ ابن أُبي ، وتصديقَ الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، وهو زيد بن الأرقم .

ومع هذا لم يقتله النبيّ الكريم ﷺ ، ورفض قتلَه عندما طلب منه عمرُ رضي الله تعالى عنه ذلك ، وطلب ولدُه [عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن أُبي رضي الله تعالى عنه] أن يقتله بنفسه ، فأبى النبي المصطفى الكريم ﷺ ذلك ، وقال له : « نحسن إليه ما دام بين أظهرنا ».

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : كنا مع النبيِّ ﷺ في غزاة ، فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاريُّ : يا للأنصار . وقال المهاجريُّ : يا للمهاجرين . فسمعها رسول الله ﷺ . قال : « ما هذا؟ [ما بال دعوى الجاهلية ؟ »] فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجريُّ : يا للمهاجرين . فقال النبيُّ ﷺ : « دعوها ، فإنها منتنةٌ » ـ

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبيُّ ﷺ أكثرَ ، ثم كثر المهاجرون بعد ـ فقال عبد الله بنُ أُبي : أَوَقد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . فقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه :

دعني يا رسول الله ، أضربُ عنقَ هذا المنافق . قال النبيُّ ﷺ : « دعه ، لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابَه ». متفق عليه[1].

وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأصاب الناسَ فيه شدة . فقال عبدُ الله بنُ أُبيٍّ لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَن الأعزُّ منها الأذلَّ . قال : فأتيت النبيَّ ﷺ فأخبرتُه بذلك . فأرسل إلى عبد الله بن أُبي فسأله ، فاجتهد يمينَه ما فعل . قالوا : كذَب زيدٌ رسولَ الله ﷺ . قال : فوقع في نفسي مما قالوا شدةٌ ، حتى أنزل الله عز وجل تصديقي : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ [زاد في رواية للبخاري : وأرسل إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأها عليَّ وقال : « إن الله قد صدَّقك »] قال : ثم دعاهم النبيُّ ﷺ ليستغفر لهم . قال : فلوَّوا رؤوسَهم . متفق عليه[2].

فما أرحمه وأكرمه وأرأفه ﷺ ، يزعم المنافقُ عن نفسه أنه العزيز ، وأن غيره هو الذليل ، ويحرص على إخراج النبي المصطفى الكريم ﷺ من المدينة ، ومع هذا لم يهيجه ﷺ ، ولم يقتله ،... حتى صار ولدُه وأتباعُه هم الذين يعنِّفونه . بحيث إن ولدَه رضي الله تعالى عنه ـ وهو صحابيٌّ جليل ـ لم

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة المنافقين : باب ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، رقم (٦٢ ـ ٦٤).

والكسع : أن يضرب دبر الآخر بظهر قدمه .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة المنافقين : باب ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ... ﴾ وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين ، رقم (١).

يسمح له دخولَ المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ ، وقال عن نفسه : هو الذليل ، وأن رسول الله ﷺ هو العزيز .

٢ ـ كما استغل هذا المنافق حادثة ثانية ـ **والمعروفة بحادثة الإفك** ـ والتي وقعت في غزوة غزاها مع رسول الله ﷺ ، فاستغل تلك الحادثة ، وتولّى كبره ، واتهم أم المؤمنين ـ حاشاها وبرأها الله تعالى وصانها ورضي الله عنها ـ بالفاحشة ، فصار يؤذي رسول الله ﷺ في عِرضه ـ حقداً وحسداً ونفاقاً ـ ويستجمع الأخبار وينشرها ، مع علمه بكذبها ، وعدم صحتها .

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ ـ وذلك بعدما أُنزل الحجاب ،... الحديث بطوله في حادثة الإفك ، وفيه : وكان الذي تولّى كِبره عبد الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول . فقدمنا المدينة ،... قالت : فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فاستعذر من عبد الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول. قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ؛ من يعذِرُني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ فقال : أنا أَعذِرُك منه يا رسول الله ؛ إن كان من الأوس ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتَنا ففعلنا أمرك ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

لقد اتهم هذا المنافقُ أمَّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها ـ حاشاها وسائر

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة النور : باب ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا... ﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب التوبة : باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، رقم (٥٦ ـ ٥٨).

أمهات المؤمنين ـ بالفاحشة ، وبرجل لم يكشف كنف امرأة قط ، لأنه رضي الله تعالى عنه حصور ، وآذى رسولَ الله ﷺ ، وكادت أن تقع فتنة ،... فأنزل الله تعالى براءتها في كتاب يتلى إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] الآيات .

فأقام رسول الله ﷺ الحدَّ على المسلمين ، ولم يُقم الحدَّ على عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابن سلول ، وذلك لأن إقامة الحد في الدنيا تمنع من العقوبة في الآخرة ، وقد أخبر الله تعالى عنه ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فلو أقيم عليه الحدُّ لخفف عنه ذلك العذاب ، فلم يجلده رسول الله ﷺ حتى يبقى عليه العذاب العظيم في الآخرة ، كما ذكر الله تعالى ، إضافةً إلى ما ذكر من حكم أخرى .

٣ ـ لم يقتل المنافقين الذين حاولوا اغتياله ﷺ يوم تبوك .

كما أنه ﷺ لم يقتل الذين حاولوا الغدر به يوم رجوعهم من غزوة تبوك ، عند العقبة ، حيث أرادوا أن يزحموه من فوق ، ويلقونه من فوق العقبة إلى الوادي ، ولكن الله تعالى سلّم .

فعن أبي الطُّفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة[2] وبين حذيفة

---

(١) سورة النور الآيات العشرة أو الأربعة عشر . وانظر فضائل الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ، فقد أطلت النفس في بيان ما يؤخذ من آيات الإفك في بيان فضل البيت النبوي .

(٢) ليس المراد بها العقبة الموجودة في منى ، والتي كانت عندها بيعة الأنصار المشهورة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، إنما المراد بها : العقبة الموجودة عند تبوك ، والتي حاول المنافقون اغتيال النبي الكريم ﷺ عندها ، عند عودته ﷺ من غزوة تبوك ، فعصمه الله تعالى منهم .

بعضُ ما يكون بين الناس . فقال : أنشدك بالله ، كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك . قال [حذيفة] : كنا نُخبر أنهم أربعة عشر . فإن كنتَ منهم فقد كان القومُ خمسةَ عشر . وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله ﷺ في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . وعذر ثلاثةً . قالوا : ما سمعنا مناديَ رسول الله ﷺ ، ولا علمنا بما أراد القومُ... الحديث ، رواه مسلم[1].

وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال : « في أمتي اثنا عشر منافقاً ؛ لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحَها حتى يلج الجملُ في سمِّ الخياط . ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ ؛ سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم ، حتى ينجمَ من صدورهم ». رواه مسلم[2].

ورواه[3] عن عمار ، أخبرني حذيفة ، عن النبيّ ﷺ قال : « في أصحابي اثنا عشر منافقاً ،... » الحديث .

والمراد بقوله ﷺ في هذه الرواية : « في أصحابي » : الذين يُنسبون إلى صحبتي ، وهم ليسوا منها ، بدلالة الرواية الأولى « في أمتي ،... ».

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما قال : كنتُ آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمارٌ يسوقه - أو أنا أسوقه ، وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة ، فإذا أنا باثني عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهتُ رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم ، فولّوا مدبرين . فقال لنا رسول الله

---

(١) صحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين ، رقم (١١).

(٢) صحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين ، رقم (١٠).

(٣) صحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين ، رقم (٩).

ﷺ : « هل عرفتم القومَ ؟ » قلنا : لا ، يا رسول الله ؛ كانوا متلثّمين ، ولكنا عرفنا الرِّكاب . قال : « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا : لا . قال : « أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة ، فيلقوه منها ».

قلنا : يا رسول الله ، أوَلا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كلُّ قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا ، أكره أن تَحدَّث العربُ بينها ؛ أن محمداً قاتَل بقوم ، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ». ثم قال : « اللهم أرمهم بالدُّبَيْلة » قلنا : يا رسول الله ، وما الدُّبَيْلة ؟ قال : « شهابٌ من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك ». رواه البيهقي[1].

فما عقوبة الغادر المتآمر على قتل رئيس الدولة ؟ أليست هي الإعدام ؟ فإن خُفف فالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة ، فإن خُفف فالسجن لمدة طويلة ، ومع هذا فلم يقتلهم ﷺ ، وكره أن يتحدث الناسُ بقتلهم . فما أكبر هذا القلب الذي وسعهم ، وما أرحم تلك النفس التي رحمتهم ، وما أوسع تلك الرحمة التي شملتهم ، ثم يزعم الدَّعِيُّ : أنه ﷺ إرهابيٌّ متطرِّف !!!

فإذا أضيف إلى ذلك وجود بعض المنافقين الذين بقوا إلى آخر حياته ﷺ ، وقد أخبر ﷺ حذيفةَ بنَ اليمان رضي الله تعالى عنهما عنهم وبأسمائهم ، حتى عُرف بصاحب سر رسول الله ﷺ ، ومع هذا لم يقتلهم ، ولم يجابههم ، إنما أخبر حذيفة بهم للمصلحة ، والله تعالى أعلم .

ط ـ لم يقتل ﷺ اليهود الذين حاولوا اغتياله في بني النضير .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : أنه ﷺ لم يقتل من

(١) دلائل النبوة (٥ : ٢٦٠ ـ ٢٦١).

حاول اغتياله ﷺ من يهود بني النضير ، عندما أتاهم ليأخذ منهم ما يُدفع إلى دية الرجلين اللَّذَين قتلهما عَمرو بنُ أمية رضي الله تعالى عنه ، مقابل قتْل القرّاء رضي الله تعالى عنهم من قِبَل حلفاء الرجلين ، ولم يعلم بعهدهما الذي معهما من رسول الله ﷺ . فلما جلس ﷺ ومعه بعض أصحابه رضي الله تعالى عنهم تآمر اليهود على اغتياله ، فجاءه الوحي بذلك ، وقام من مكانه ، فسلّمه الله تعالى .

فقد ذكر أهل السير أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر ؛ اللَّذَين قتلهما عَمْرو بنُ أمية ، للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف . فلما أتاهم ﷺ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نُعينك على ما أحببت .

ثم خلا بعضُهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجلَ على مثل حاله هذه ـ ورسولُ الله ﷺ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم قاعد ـ فمن رجلٌ يعلو على هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه . فانتدب لذلك عَمْرو بن جِحاش بن كعب ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ـ ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ؛ فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم ـ فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة .

فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحابُ رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به . وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

ثم سار رسول الله ﷺ حتى نزل بهم ، وحاصرهم ستَّ ليال ، فتحصّنوا منه بالحصون ،... وكان رهط من المنافقين ، منهم : عبد الله بن أُبيٍّ ابنُ سلول في آخرين ... قد أرسلوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نُسلمكم ، إن قُوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نَصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعبَ ، وسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُجليهم ، ويكفَ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من إموالهم إلا الحَلْقة ، ففعل ،... فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام[1]. فأنزل الله تعالى في حقهم سورة الحشر .

لم يقتلهم ، مع أنهم يستحقون القتل ، لأنهم غدّارون ، أرادوا اغتياله ﷺ ، ولكنه ﷺ رضي بما عرضوه عليه من حقن دمائهم على أن يخرجوا من جواره ، لأن المدينةَ ليست موطنهم الأصلي ـ كما بينتُه في غير هذه الرسالة ـ إنما قدموها من بلاد الشام بعد المحن التي حلت بهم ، ولكنهم لم يراعوا حرمة الجوار ، وأنهم غرباء في محيط عربي .

ي ـ لم يقتل ﷺ عامر بن الطفيل وأربد بن قيس حين تآمرا على قتله ﷺ .

ذكر أهلُ السير أن عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبّار بن سلمى قدموا في وفد بني عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم .

فقدم عامرُ بنُ الطفيل ـ عدو الله ـ على رسول الله ﷺ ، وهو يريد الغدرَ به ، وقد قال له قومه : يا عامر ؛ إن الناس قد أسلموا فأسلِم . قال : والله

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣ : ٢٦٧ ـ وما بعد) والطبقات الكبرى (٢ ـ ٥٧ ـ ٥٨) ودلائل النبوة للبيهقي (٣ : ٥٥١ ـ ٥٥٢) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ١٤٥ وما بعد).

لقد كنتُ آليت أن لا أنتهي حتى تتبعَ العربُ عقبي ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ! ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل ، فإني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت فاعْلُه بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامرُ بن الطفيل : يا محمد خالِني[1]. قال : « لا ، والله حتى تؤمن بالله وحده » قال : يا محمد خالِني . وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به . فجعل أربد لا يحير شيئاً . قال : فلما رأى عامر ما يصنع أربد ، قال : يا محمد خالِني . قال : « لا ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . فلما ولّى قال رسول الله ﷺ : « اللهم اكفني عامرَ بن الطفيل ».

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : ويلك يا أربد ، أين ما كنتُ أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجلٌ هو أخوف عندي على نفسي منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً . قال : لا أبا لك ، لا تعجل عليَّ ، والله ما هممتُ بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلتَ بيني وبين الرجل ، حتى ما أرى غيرَك ، أفأضربُك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ؛ بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه ، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول ، فجعل يقول : يا بني عامر ؛ أغُدَّةٌ كغدَّة البَكر في بيت امرأة من سلول .

---

(١) ضبطت بصيغتين ؛ بالتخفيف ، يعني تفرّد لي خالياً حتى أكلمك على انفراد ، وبتشديد الدّال . يعني : اتخذني خليلاً لك .

ثم خرج أصحابه حين واروه ، حتى قدموا أرض بني عامر شاتين ، فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن ، فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين ، معه جمل له يبيعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقةً فأحرقتهما[1].

لما رجع عامر غدر بأهل بئر معونة رضي الله تعالى عنهم ، وأخفر ذمة عمه أبي براء ، فدعا عليه النبي المصطفى الكريم ﷺ ، ولم يقتله ، لأن القتلَ أشرفُ له ـ كفارس ـ ولكن النبيّ الرحيم ﷺ لم يحدِّد نوعية الكفاية ، فمات بما يحتقره العرب .

ك ـ لم يقتل ﷺ أبا محذورة الذي كان يستهزئ بالأذان مع كفره .

إن الاستهزاء بشعيرة من شعائر الإسلام كفر ، والعياذ بالله تعالى ، فكيف إذا انضم إلى ذلك الكفرُ وكراهية رسول الله ﷺ وشعائر الإسلام ؟ وهذا ما حصل مع أبي محذورة قبل إسلامه حيث جمع تلك الموبقات كلها .

فعن عبد الله بن مُحيريز رحمه الله تعالى ـ وكان يتيماً في حِجر أبي محذورة ـ حين جهَّزه إلى الشام ـ قلت لأبي محذورة : أي عمّ ، إني خارجٌ إلى الشام ، وإني أُخشى أن أُسألَ عن تأذينك ، فأَخبرني أبا محذورة . قال : نعم .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤ : ٢٨٤ وما بعد) ودلائل النبوة (٥ : ٣١٨ وما بعد) والطبقات الكبرى (٣ : ٣١٠ ـ ٣١١) وتاريخ الطبري (٣ : ١٤٤ ـ ١٤٥) وعيون الأثر (٢ : ٢٩٥) والبداية والنهاية (٥ : ٥٦ ـ ٦٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠ : ٣٧٩ ـ ٣٨١) والمعجم الأوسط (٩ : ٦٠ ـ ٦٢) ومجمع البحرين (٦ : ٤٠ ـ ٤٢) ومجمع الزوائد (٧ : ٤١ ـ ٤٢) وانظر صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب غزوة الرجيع ، لبيان تخيير عامرٍ رسول الله ﷺ بين ثلاث خلال ، وموته بالغدة في رقبته في بيت السلولية .

خرجتُ في نفر ، وكنا ببعض طريق حُنين ، فقفل رسول الله ﷺ من حُنين ، فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق ، فأذَّن مؤذِّنُ رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوتَ المؤذِّن ، ونحن متنكِّبون ، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به ، فسمع رسول الله ﷺ الصوتَ ، فأرسل إلينا ، إلى أن وقفنا بين يدي رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « أيُّكم الذي سمعتُ صوتَه قد ارتفع ؟ » فأشار القوم كلُّهم إليَّ ، وصدقوا ، فأرسل كلَّهم ، وحبسني . قال : « قم فأذِّن بالصلاة » فقمتُ ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به . فقمت بين يدَي رسول الله ﷺ ، فألقى عليَّ رسولُ الله ﷺ التأذين هو بنفسه فقال : « قل : الله أكبر الله أكبر ،... » الحديث في ألفاظ الأذان ، وفي آخره :

ثم دعاني حين قضيتُ التأذين ، فأعطاني صرَّةً فيها شيءٌ من فضة ، ثم وضع يدَه على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرَّها على وجهه ، ثم من بين ثدييه ، على كبده ، ثم بلغت يدُ رسول الله ﷺ سُرَّةَ أبي محذورة . ثم قال رسول الله ﷺ : « بارك الله فيك ، وبارك عليك ».

فقلت : يا رسول الله ؛ مُرني بالتأذين بمكة . قال : « قد أمرتُك » وذهب كلُّ شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية ، وعاد ذلك كلُّه محبة لرسول الله ﷺ . الحديث .

وفي رواية عن أبي محذورة رضي الله تعالى عنه قال : خرجتُ في عشرة فتيان مع النبيِّ ﷺ ـ وهو أبغضُ الناس إلينا ـ فأذَّنوا ، فقمنا نؤذِّن ؛ نستهزئ بهم ، فقال النبيُّ ﷺ : « ائتوني بهؤلاء الفتيان » الحديث في الأذان ، رواه الشافعي وأحمد ، والأربعة والطحاوي ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان

وابن حزم في آخرين[1].

كفرٌ وبغضاءُ واستهزاءٌ ، ومع هذا لم يقتله رسولُ الله ﷺ ، بل لم يعنّفه ، بل داواه ﷺ بالحس والمعنى ، أعطاه مالاً ، ومسح على ناصيته فصدره حتى سرته ، ثم دعا له بالبركة ، فكانت النتيجة : أن انقلب الكفر إلى إيمان ، والبغض إلى محبة ، والبعاد إلى قرب ، والهجر إلى وصال ، والكراهية إلى تفاني ، والاستهزاء إلى تعظيم وتكريم ، وهذا هو المطلوب ، فلو أمر ﷺ بقتله لخسر أبو محذورة دنياه وآخرته ، ولكن عامله ﷺ بهذا العطف والحنان والشفقة والإحسان ، فصار مؤذنَ الحرم المكي حتى مات ، بعد أن أنقذه الله تعالى به من النار ، رضي الله تعالى عنه .

ل ـ لم يأخذ ﷺ بثأر المسلمين الذين قتلهم الكفار ثم أسلموا.

لقد قُتل بعض المسلمين في بدر وأحد والخندق وفي غيرها من قبل بعض كفّار قريش ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وأعلن الناس إسلامهم ،

---

(١) الأم (١ : ٧٣) والسنن (١: ٣٥٣ ـ ٣٥٥ رقم ٢٧٩) والمسند (٣٠ ـ ٣٢) ومسند أحمد (٣ : ٤٠٨ ، ٤٠٩) وسنن أبي داود : كتاب الصلاة : باب كيف الأذان : باب الترجيع ، رقم (٥٠١ ـ ٥٠٥) وسنن الترمذي : كتاب الصلاة : باب ما جاء في الترجيع في الأذان ، رقم (١٩١ ، ١٩٢) وسنن النسائي : كتاب الأذان : باب كيف الأذان ، وباب كم الأذان ، وباب خفض الصوت في الترجيع في الأذان (٢ : ٣ ـ ٨) والسنن الكبرى (١ : ٤٩٧ ـ ٤٩٩ وسنن ابن ماجه : كتاب الأذان : باب الترجيع في الأذان ، رقم (٧٠٨ ، ٧٠٩) وصحيح ابن حبان (٤ : ٥٧٤ ـ ٥٧٦) وصحيح ابن خزيمة (١ : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ـ ٢٠٢) وشرح معاني الآثار (١ : ١٣٠) والسنن الكبرى للبيهقي (١ : ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، ٤١٧ ـ ٤١٩) وسنن الدارقطني (١ : ٢٣٣ ـ ٢٣٥ من طرق) ورواه مسلم من غير ذكر أوله ، كما رواه كثيرون ، كعبد الرزاق وابن أبي شيبة والطيالسي وابن الجارود وأبي عوانة .

لم يقتل ﷺ قتَلَةَ أولئك الذين قُتلوا في تلك الغزوات ، حتى لو كان قتلهم غدراً . كما مر ذكره في فقرة مسامحته ﷺ لأعدائه .

فعن أُبي بنِ كعب رضي الله تعالى عنه قال : لما كان يومُ أُحُدٍ أُصيب من الأنصار أربعةٌ وستون رجلاً ، وأصيب من المهاجرين ستةٌ ـ فيهم حمزة ـ فمثَّلوا بهم . فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر لنربيَنَّ عليهم . فلما كان يومُ فتح مكة ، نادى رجلٌ من القوم لا يُعرف : لا قريش بعد اليوم . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]. فقال نبيُّ الله ﷺ : « كُفّوا عن القوم غير أربعة ».

وفي رواية : فنادى منادي رسول الله ﷺ : « أَمِن الأسودُ والأبيضُ » إلا فلاناً وفلاناً ؛ ناساً سمّاهم . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « نصبر ولا نعاقب ». رواه الترمذي وحسنه ، والنسائي ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وصححه ابن حبان والحاكم والضياء ، وأقره الذهبي[2].

م ـ لم يقتل من أرسل إلى قريش بمسيره ﷺ إليهم .

إن إفشاء أسرار الدولة ـ خاصة الأسرار العسكرية ، وخطط الحروب ـ يعتبر جريمة كبرى ، تعاقب عليها جميع قوانين العالم ، وإذا كان الأمر أثناء

---

(١) سورة النحل (١٢٦).

(٢) مسند أحمد (٥ : ١٣٥) وسنن الترمذي : كتاب التفسير : سورة النحل ، رقم (٣١٢٩) وسنن النسائي الكبرى (٦ : ٣٧٦) وتفسير النسائي (٢ : ٦٤٠ ـ ٦٤١) وصحيح ابن حبان (٢ : ٢٣٩) والمستدرك (٢ : ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ، ٤٤٦) والمختارة (٣ : ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ٣٥١ ـ ٣٥٢) ودلائل النبوة (٣ : ٢٨٩) وانظر الدر المنثور (٥ : ١٧٨ ـ ١٧٩) ففيه زيادة عزو .

الحرب ، وأفضى إلى خسارة كبيرة للبلد كانت العقوبة هي الإعدام بالخيانة العظمى ، وتُجرى له محاكم عسكرية ، وليست مدنية .

ومع كل هذا لما حصل لأحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم مثلُ هذا لم يأمر ﷺ بقتله ، وذلك لسابقته في الإسلام ، وما فعله يوم بدر ، وأنه لم يكن يريد خيانة المسلمين ، ولصدقه فيما فعل .

فعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « ائتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ، معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا تَعادى بنا خيلُنا ، فإنا نحن بالمرأة . فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب . فقلنا : لتُخرِجِنَّ الكتاب أو لتُلقِيَن الثياب . فأخرجتْه من عِقاصها ، فأتينا به رسولَ الله ﷺ . فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة ؛ يخبرُهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « ياحاطب ، ما هذا ؟ » قال : لا تعجل عليَّ يا رسول الله ؛ إني كنتُ امرأً ملصَقاً في قريش ، ولم أكن من أَنفُسهم ، وكان ممن معك من المهاجرين لهم قرابات يَحمون بها أهليهم [وأموالَهم] فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كُفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام . فقال النبيُّ ﷺ : « صدق » فقال عُمرُ : دعني يا رسول الله ؛ فأضرب عنقَ هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله عز وجل اطَّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم ». فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ متفق عليه[1].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة الممتحنة : باب ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر رضي الله =

لم يعاقبه ﷺ لما له من سبق فضل - وهو شهود غزوة بدر . وإذا كان قد شفع هذا الموقف له ، فإنه لا يصح الاعتماد عليه بعد ذلك ، ويكون دليلاً لمن خان ، أو أفشى سِرَّ الدولة العليا ، لأن النبي المصطفى الكريم ﷺ أقر عُمر رضي الله تعالى عنه على قتله لولا المانع ، وهو شهوده غزوة بدر ، وهذا منتف في غير حاطب ، ثم إن رسول الله ﷺ مؤيَّد بالوحي ، ومن ثم لم يصل الكتاب إلى قريش ، لذا عُمِّي عليهم مسيرُ رسول الله ﷺ إليهم ، فلو كانوا علموا لما يبعد من جريان الدماء ، ولكن رسول الله ﷺ أحب أن يفاجئ قريشاً من غير قتال ، حرصاً على هدايتهم وليس على قتلهم ، وهذا كله من رحمته ﷺ بهم ، والله تعالى أعلم .

ن - لم يعاقب ﷺ من انهزم يوم حنين .

إن عقوبة الفار من الزحف كبيرة من الكبائر ، فكيف إذا كان عن رسول الله ﷺ ، وتركه وحده ، وإسلامه إلى الكفار ؟! لذا لما انتهت معركة حنين بالنصر الساحق للمسلمين ، طلب بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم من النبي المصطفى الكريم ﷺ أن يقتل من فرّ من المسلمين ، وكأنهم يرونهم من المنافقين ، ولكن الرحمة المهداة ﷺ رفض هذا الطلب ، مكتفياً بكفاية الله تعالى وإحسانه عليهم .

فعن أنس رضي الله تعالى عنه ، أن أمَّ سُليم اتخذت يوم حُنين خنجراً ، فكان معها ، فرآها أبو طلحة ، فقال : يا رسول الله ؛ هذه أم سُلَيم معها خنجر . فقال لها رسول الله ﷺ : « ما هذا الخنجر؟ » قالت: اتخذته ، إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقرتُ به بطنه . فجعل رسول الله ﷺ يضحك .

= تعالى عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة ، رقم (١٦١).

قالت : يا رسول الله ؛ اقتل مَن بعدَنا من الطلقاء ، انهزموا بك . فقال رسول الله ﷺ : « يا أُمَّ سُلَيم ، إن الله قد كفى وأحسن ». رواه مسلم[1].

لقد طلبت رضي الله تعالى عنها منه ﷺ أن يقتل الطلقاء ، معتقدة أنهم منافقون ، لذا استحقوا القتل بانهزامهم ، لكن الرحمة المهداة ﷺ رفض هذا الطلب ، طالما أن الله تعالى كفاه الأعداء ، وأحسن إلى المسلمين ، فكان النصر .

وقولها : (انهزموا بك) الباء بمعنى عن ، أي انهزموا عنك . على حد قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾ أي عنه . وقد تكون للسببية ، أي انهزموا بسببك لنفاقهم ، والله تعالى أعلم .

س ـ لم يقتل ﷺ أُس الخوارج ذا الخويصرة ومعتب بن بشر .

لما كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم قام رجل من بني تميم ، وأغلظ القولَ لرسول الله ﷺ ، فطلب بعضُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلَه ، فرفض ﷺ طلبهم ، مع أنه توعّد أمثال ذلك الرجل ، وبيَّن أنهم يمرقون من الدِّين كما يمرق السهمُ من الرمية ، مخترقاً أحشاءَه ، من غير أن يَعلق به دمٌ ولا فرث ، لسرعة نفاذه من جسد الصيد .

فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال : أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ بالجعرانة ـ منصرفَه من حُنين ـ وفي ثوب بلال فضةٌ ، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس . فقال : يا محمد ؛ اعدل . قال : « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : دعني يا رسول الله ؛ فأقتلَ هذا المنافق . فقال : « معاذ

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب غزوة النساء مع الرجال ، رقم (١٣٤).

الله أن يتحدَّث الناسُ أني أقتلُ أصحابي . إن هذا وأصحابَه يقرؤون القرآن ؛ لا يجاوز حناجرَهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ». متفق عليه[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بعث عليٌّ رضي الله عنه ـ وهو باليمن ـ بذَهَبة في تربتها إلى رسول الله ﷺ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر ... فجاء رجل كثُّ اللحية ، مشرف الوجنتين ، غائرُ العينين ، ناتئ الجبين ، محلوق الرأس ، فقال : اتق الله يا محمد . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فمن يطع الله إن عصيتُه ! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ » قال : ثم أدبر الرجل ، فاستأذن رجل من القوم في قتله (يرون أنه خالد بن الوليد) فقال رسول الله ﷺ : « إن من ضئضئ هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرَهم ، يقتلون أهلَ الإسلام ، ويَدَعون أهلَ الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة . لئن أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قتلَ عاد ».

وفي رواية : فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقَه ؟ فقال : « لا ، لعله أن يكون يصلي » قال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال رسول الله ﷺ : « إني لم أُومر أن أُنقِّب عن قلوب الناس ، ولا أشقَّ بطونهم ».

وفي رواية أخرى : فقام إليه عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقه؟ قال : « لا » قال : ثم أدبر فقام إليه خالد ـ سيف الله ـ فقال : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقه ؟ قال : « لا ».

(١) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب من الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ما سأل هوازن النبيَّ ﷺ برضاعة فتحلّل من المسلمين . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم (١٤٢).

وفي رواية : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قَسماً ، أتاه ذو الخُوَيْصِرة ـ وهو رجلٌ من بني تميم ـ فقال : يا رسول الله ، اعدل (وفي رواية : يا محمد ؛ اعدل) قال رسول الله ﷺ : « ويلك ، ومن يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ؛ ائذن لي فيه أن أضربَ عنقه ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[1] وللحديث روايات متعددة لا يخرج مجموعها عما ذكرتُ .

فمثل هذا الإنسان هو ليس بكافر في الأصل ، لكن هذا الموقف منه وفي مثل ذلك الموقف ـ وعند تقسيم الغنائم بعد الانتصار ـ يحتاج إلى عقوبة شديدة ، خاصة وقد قال هذا القولَ أمام الخلق من غير احترام ولا تقدير ، إنما هو الجفاء والغلظة ، ومع هذا لم يعاقبه ﷺ ، ولم يرض بقتله ، مع أنه ﷺ أخبر عن جماعته بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، وأنهم شر الخلق والخليقة ـ كما في حديثي أبي ذر ورافع بن عَمْرو الغفاري وإحدى روايات أبي سعيد رضي الله تعالى عنهم عند مسلم ، والله تعالى أعلم .

ـ عدم تخليه ﷺ عن عمه أبي طالب ، واستغفاره ، وشفاعته له .

لم تعرف البشرية صاحبَ وفاء ورد الجميل مثل النبي المصطفى الكريم الرحيم ﷺ ، لذا فإنه لم يتخلّ عن عمه أبي طالب ، لما كان قد قدَّمه له من إيواء ونفقة وسكن ونصرة وحماية ،... مع أنه رفض أن يقول : لا إله

(١) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب علامات النبوة في الإسلام ، وفي غيرهما . حيث رواه في فضائل القرآن ، والأدب ، واستتابة المرتدين ، في أبواب عدة فيها . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج ، رقم (١٤٣ ـ ١٥٣).

إلا الله . ولكنه الوفاء والعرفان بالجميل[1]. وقد برز ذلك الوفاء ورد الجميل في أمرين ، في الدنيا ، حيث قرر ﷺ أن يستغفر لعمه ما لم يُنه عن ذلك ، وفي الآخرة ، حيث شفع له ﷺ ، وقد حصل ذلك ، كما سيأتي :

ـ **في الدنيا** : حيث حرص ﷺ على إيمانه ـ وهو في آخر حياته ـ فلما أبى أن ينطق بالشهادتين ، وقال : إنه على ملة عبد المطلب ـ[2]. التي بطلت ببعثته ﷺ ـ لم يتخل عنه ، بل أعلن ﷺ أنه سيستغفر له ما لم يُنه عن ذلك .

فعن المسيِّب بن حَزْن رضي الله تعالى عنهما قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ ؛ جاءه رسولُ الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بنَ هشام وعبدَ الله بنَ أبي أمية بن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : « يا عم ؛ قل لا إله إلا الله ، كلمةً أشهد لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية : يا أبا طالب ؛ أترغبُ عن ملةِ عبد المطلب ؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسولُ الله ﷺ : « أما والله لأستغفرن لكَ مالم أُنْهَ عنك » فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ ... ﴾. متفق عليه[3].

فقد نهاه الله جل شأنه عن الاستغفار له فامتنع، لأن مغفرة الذنوب لا تكون إلا للمؤمنين .

---

(١) انظر ما كتبته في بر الوالدين من معاملته ﷺ لعمه أبي طالب .

(٢) إن جميع الملل والأديان والمذاهب بطلت ببعثته ﷺ ، ولم تعد تقبل ، لأن دينه ﷺ نسخها كلها .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، رقم (٣٩ـ٤٠).

ـ **شفاعته ﷺ له يوم القيامة** ، بأن أخرجه ﷺ من العذاب الشديد إلى أخف عذاب يقع على من فيها .

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه أنه قال : يا رسول الله ؛ هل نفعتَ أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضبُ لك ؟ قال : « نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار ». متفق عليه[1].

وفي رواية لمسلم[2]: « نعم ، وجدتُه في غمراتٍ من النار ، فأخرجتُه إلى ضحضاح ».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمُّه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيُجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه ». متفق عليه[3].

لذا صار أهونَ أهل النار عذاباً بشفاعة النبي المصطفى الكريم ﷺ

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب ،... » الحديث ، رواه مسلم[4].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأدب : باب كنية المشرك ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب شفاعة النبيِّ ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببها ، رقم (٣٥٧ـ٣٥٩).

(٢) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٥٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب صفة الجنة والنار ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٦٠).

(٤) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب أهون أهل النار عذاباً ، رقم (٣٦٢).

وسيأتي بيان الفارق بين رسول الله ﷺ وبين إبراهيم عليه السلام ، حيث يتخلى إبراهيم عليه السلام عن أبيه آزر .

ولولا أن دخولَ المشرك الجنةَ مستحيلٌ شرعاً ، بعد أن حرّمها الله تعالى عليهم ، وجاء النص القرآني صريحاً في ذلك : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾(١): لما بعُد أن يدخلها ، ولكن النص القرآنيَّ والنص النبوي منع ، لذا صار أخفَّ أهل النار عذاباً ، تكريماً له ﷺ ، والله تعالى أعلم .

ـ نهيه ﷺ عن دخول بيوت أهل الكتاب وأخذ طعامهم وأموالهم إلا بإذنهم .

ومن مظاهر الرحمة المهداة التي شملت الكفار : أن رسول الله ﷺ نهى المسلمين أن يدخلوا بيوتَ أهل الكتاب ، ويتناولوا طعامهم من غير إذن من أهل تلك البيوت ـ طالما أعطوا الحقَّ الذي عليهم وهو الجزية وما يتبع العهد ـ وذلك لأن الإسلام جعل البيوت مصونةً ، وجعل لها حُرمة ، فلما أراد ﷺ أن تُنتهك تلك الحُرمة ، ولو كانت تلك البيوت لغير المسلمين .

كما نهى ﷺ عن أخذ لقطة المعاهد ، إلا أن يستغني عنها صاحبها .

فعن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه [ألا إني أُوتيتُ القرآن ومثلَه معه] لا يوشك رجلٌ شبعانُ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ؛ فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا لا يحلُّ لكم لحمُ الحمار الأهلي ، ولا كلُّ ذي ناب من السَّبُع ، ولا لقطةُ معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْروه ، فإن لم يَقْروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه ». رواه أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي

(١) سورة المائدة (٧٢).

والدارقطني ، وقد روى أول الحديث أو فقرات منه كثيرون كالحاكم وابن حبان والطحاوي في آخرين[1].

وواضح تحريم النبي المصطفى الكريم ﷺ أخذ لقطة المعاهد بغير طيب من نفسه ، وباستغنائه عنها .

وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال : نزلنا مع النبيِّ ﷺ خيبرَ ، ومعه من معه من أصحابه . وكان صاحبُ خيبرَ رجلاً مارداً منكراً ، فأقبل إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا محمد ؛ ألكم أن تذبحوا حُمُرَنا ، وتأكلوا ثمرَنا ، وتضربوا نساءَنا ؟ فغضب ـ يعني النبيّ ﷺ ـ وقال : « يا ابنَ عوف ، اركب فرسَك » ثم ناد « ألا إن الجنةَ لا تحل إلا لمؤمن ، وأن اجتمِعوا للصلاة ».

ثم صلّى بهم النبيُّ ﷺ ثم قام فقال : « أيحسَبُ أحدُكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرِّم شيئاً إلا ما في القرآن ؟ ألا وإني والله قد وَعظتُ وأَمرتُ ونَهيتُ عن أشياء ، وإنها لمثلُ القرآن أو أكثر . وإن الله عز وجل لم يُحِلَّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرْبَ نسائهم ، ولا أكلَ ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم ». رواه أبو داود ، وفي إسناده أشعث بن شعبة : مقبول ، ولكن له شاهدان عند أبي داود بنفس الباب ، كما يشهد له الحديث السابق ، ثم لأصل الحديث متابعات كثيرة ، هو بها حسن[2]، والله تعالى أعلم .

---

(١) مسند أحمد (٤ : ١٣١ـ ١٣٢) وسنن أبي داود : كتاب السنة : باب في لزوم السنة ، رقم (٤٦٠٤) والأموال لزنجويه (رقم ٦٢٠) والمعجم الكبير (٢٠ : ٢٨٣ ، ٢٨٤) ومسند الشاميين (رقم ١٠٦١ ، ١٨٨٤) وسنن الدارقطني (٤ : ٢٨٧) والسنن الكبرى (٩ : ٣٣٢) ودلائل النبوة (٦ : ٥٤٩).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الخراج والإمارة : باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ، =

وعلى هذا درج الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومَن بعدهم من التابعين فمن بعدهم على التشديد في عدم جواز أكل مال أهل الذمة والمعاهد إلا برضاهم، إذا تجاوز ما عوهد عليه[1].

- سلامه ﷺ على أخلاط من المسلمين والكفار .

ومن مظاهر الرحمة المهداة التي شملت الكفار : سلامُه ﷺ على الجمع من الناس إذا كان فيهم مسلمون .

فعن أسامةَ بن زيد رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فَدَكية ، وأردف أسامةَ بنَ زيد وراءه ، يعود سعدَ بنَ عُبادةَ في بني الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر .

قال : حتى مر بمجلس فيه عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول ، وذلك قبل أن يُسلم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ، وإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبدُ الله بنُ رواحة ، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدّابة ؛ خمَّر عبدُ الله بنُ أُبيٍّ أنفَه بردائه ، ثم قال : لا تغبِّروا علينا . فسلّم رسول الله ﷺ عليهم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول : أيها المرءُ ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقّاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ،... الحديث بطوله - وفيه فعفا عنه رسول الله ﷺ .

وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم

= رقم (٣٠٥٠).

(١) انظر الأموال لأبي عبيد (١٦٢ وما بعد) والأموال لزنجويه (١ : ٣٧٩ وما بعد) فقد ذكرا نصوصاً كثيرة عن الصحابة والتابعين في التشديد في ذلك .

الله ، ويصبرون على الأذى . قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ... ﴾ الآية . وقال الله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ إلى آخر الآية . وكان النبيُّ ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم ،... الحديث ، متفق عليه[1].

فقد سلّم ﷺ عليهم جميعاً ، ولم يتلفّظ بتخصيص المسلمين ، كما عفا عن عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابنِ سلول ، وهو يومئذ كافرٌ ، قبل أن يعلن إسلامه ، ومن هنا استنبط العلماء جوازَ إلقاء السلام على خليط من المسلمين وغيرهم ، والله تعالى أعلم .

- رده ﷺ السلام على أهل الكتاب مع أنهم يدعون عليه بالموت ، ونهى عن قتلهم ولعنهم .

إن سبَّ النبي المصطفى الكريم ﷺ صريحاً يوجب القتل بالاتفاق ، لأنه كفر ، هذا إذا كان من مسلم ، وأما أهل الذمة والعهد فعند جماهير أهل العلم يُقتل ، وذلك لأن دماءهم لم تُحقن إلا بالعهد ، وليس في العهد أنهم يَسبّون النبيَّ ﷺ ، فمن سبّه منهم تعد العهد ، بل نقَضَه ، فيصير كافراً بلا عهد ، فيهدر دمه ، إلا أن يُسلم[2]. وهذا هو مذهب جماهير أهل العلم بما فيهم الأئمة الثلاثة ؛ مالك والشافعي وأحمد - في آخرين - رحمهم الله تعالى .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة آل عمران : باب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ، رقم (١١٦).
(٢) انظر فتح الباري (١٢ : ٢٨١).

ومع هذا فإن رسول الله الرحيم ﷺ لم يقتلهم ، ولم يعنِّفهم ، ولم يرض لعنهم أو سبَّهم ، بل رد الدعوى عليهم بقوله : « عليكم » ليتألفهم ، والله تعالى أعلم .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : مر يهوديٌّ برسول الله ﷺ فقال : السّامُ عليك . فقال رسول الله ﷺ : « وعليكَ » فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما يقول ؟ قال : السّامُ عليكَ » فقالوا : يا رسول الله ؛ ألا نقتُله ؟ قال : « لا ، إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا : وعليكم ». متفق عليه ، واللفظ للبخاري[1].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : استأذن رهطٌ من اليهود على النبيِّ ﷺ فقالوا : السّامُ عليك . فقلت : بل عليكم السّامُ واللعنة . فقال : « يا عائشة ؛ إن الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ في الأمر كلِّه » قلتُ : أوَ لم تسمع ما قالوا ؟ قال : « قلتُ : وعليكم ». متفق عليه[2].

زاد في رواية : « مه يا عائشة ؛ فإن الله لا يحب الفحش والتفحش » فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وزاد في أخرى : « أوَ لم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم ، فيستجابُ لي فيهم ، ولا يستجاب لهم فيَّ ».

---

(١) صحيح البخاري : كتاب استتابة المرتدين : باب إذا عرَّض الذِّمّي أو غيره بسبِّ النبيِّ ﷺ ولم يصرِّح ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب السلام : باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم ، رقم (٦ ، ٧).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي كتاب الاستئذان ، والجهاد ، والأدب ، وفي غيرها . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٠ ـ ١١).

لم يرض ﷺ أن تلعنهم السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها ، وأخبرها بوجوب الرفق ، لأن الله تعالى رفيق يحب الرفقَ في الأمر كله .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : سلّم ناسٌ من يهود على رسول الله ﷺ ، فقالوا : السّامُ عليكَ ، يا أبا القاسم . فقال : « وعليكم » فقالت عائشة ـ وغضبتْ ـ : أَلم تسمع ما قالوا ؟ قال : « بلى ، قد سمعتُ ، فرددتُ عليهم . وإنا نُجابُ فيهم ، ولا يُجابون فينا ». رواه مسلم[1].

وقد نبه النبي المصطفى الكريم ﷺ أمتَه على فعل أهل الكتاب ـ خاصة اليهود ـ وكيف يردون عليهم إذا سلّموا .

فعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهودَ إذا سلَّموا على أحدكم إنما يقولون : سامٌ عليك ، فقل : عليك ». متفق عليه[2]، والله تعالى أعلم .

ـ صلاته ﷺ على كبير المنافقين يوم مات ، واستغفاره له .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : صلاتُه ﷺ على عبدِ الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول كبيرِ المنافقين ، الذي كانت له مواقف مخزية ، ابتداء من موقفه من رسول الله ﷺ يوم قدم المدينة ، وانتهاء بموقفه المشين يوم حادثة الإفك ، ومروراً بموقفه يوم أحد وانسحابه من المعركة ، وموقفه يوم بني المصطلق ،... وغيرها كثير ، ومع هذا فإنه ﷺ لم يقتله ـ كما مر ـ بل أحسن إليه ، ثم صلى عليه صلاةَ الجنازة ، بعد أن أعطى ﷺ ولدَه عبدَ الله

(١) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٢).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٨ ، ٩).

رضي الله تعالى عنه قميصَه ليكفِّنه فيه .

فعن عبد الله بن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أنه قال : لما مات عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول ، دُعي له رسول الله ﷺ ليصلِّيَ عليه . فلما قام رسول الله ﷺ وثبْتُ إليه ، فقلتُ : يا رسول الله ، أتُصلِّي على ابن أُبيٍّ وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟ قال : أُعدِّدُ عليه قولَه . فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال : « أَخِّر عني يا عمر » فلما أكثرتُ عليه قال : « إني خُيِّرتُ فاخترتُ ، لو أعلمُ أني إن زدتُ على السبعين يُغفرْ له لزدتُ عليها » قال : فصلّى عليه رسول الله ﷺ . ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ـ إلى قوله ـ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ قال : فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم . رواه البخاري[1].

لم تكن الصلاة على المنافقين في ذلك الوقت ممنوعةً ، لذا صلّى عليه ، إنما كان التخيير في الاستغفار ، ثم نزل تحريمُ الصلاة على المنافقين بعد هذه الحادثة ، كما هو صريح زيادة مسلم في الرواية القادمة ، والله تعالى أعلم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : لما تُوُفِّي عبدُ الله ابنُ أُبيٍّ جاء ابنُه عبدُ الله بنُ عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيَه قميصَه ؛ يُكفِّن فيه أباه . فأعطاه . ثم سأله أن يصلِّيَ عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليُصلِّي عليه . فقام عمرُ فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ أتُصلّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تُصلِّي عليه ؟ [وفي رواية : تصلي عليه وهو منافق ،

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة براءة : باب ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، وفي غيرهما .

وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟] فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيَّرني الله فقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيده على السبعين » قال : إنه منافق ؟ قال : فصلّى عليه رسول الله ﷺ . فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ . متفق عليه[1].

وزاد في رواية مسلم : فترك الصلاةَ عليهم .

فصلاته ﷺ عليه ووعده بالزيادة من الاستغفار على السبعين ـ مع ما كان عليه ابنُ أُبيٍّ من تصرفات يندى لها الجبين ـ هو من كمال شفقته ﷺ ، ورحمته العامة ـ حتى لو كان كافراً ـ فكيف بمن تعلق بطرف من الدين ، لذا عامله ﷺ على ظاهر حاله ، متألِّفاً قومَه في ذلك ، ومطيِّباً قلبَ ولده عبدِ الله ابن عبد الله رضي الله تعالى عنه ، المحب الصادق الإيمان ، الذي ظهرت منه مواقف جليلة ، تدل على صدق إيمانه، وكمال محبته ، وتقديره لرسول الله ﷺ . كما يظهر لطفه ﷺ من تبسمه في وجه عمر رضي الله تعالى عنه .

خاصة ولم يكن قد نزل حكمٌ في تحريم الصلاة على المنافقين ، ثم نزل بسبب هذه الحادثة ، لذا ترك رسول الله ﷺ الصلاةَ عليهم ، بعد ذلك ، امتثالاً لأمر الله تعالى بعد نزول الآية في ذلك ، كما هو واضح من الزيادة ـ عند مسلم ـ في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، والله تعالى أعلم .

ـ ردُّه ﷺ على هوازن وبني المصطلق نساءَهم وذراريهم .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : ردُّه ﷺ الأسرى من

---

(١) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين . وفي باب ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه ، رقم (٢٥) وكتاب صفات المنافقين ، رقم (٣).

النساء والأطفال على بني المصطلق وهوازن ، مع أن ذلك قد وقع في الغنائم ، وقد كان رسول الله ﷺ قد وزّع ذلك على الجيش .

لقد بلغ رسول الله ﷺ أن الحارث بن أبي ضِرار ـ والد جُوَيرية ، وقد أسلم فيما بعد ـ بدأ يجمّع الجيوش لغزو المدينة ، فباغته رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ بالغزو ، لتكون الخسائر قليلة . فكان كذلك ، حيث قُتل عشرة من بني المصطلق ، وأسر مائة أهل بيت منهم ، وهرب الباقون .

فعن ابن عون قال : كتبتُ إلى نافع ، فكتب إليَّ أن النبيَّ ﷺ أغار على بني المصطلق ؛ وهم غارّون ، وأنعامهم تُسقى على الماء ، فقتل مقاتلتَهم ، وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جُوَيْرِيَةَ . حدثني به ابنُ عُمر ، وكان في ذلك الجيش . متفق عليه[1].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق ، وقعت جُوَيرية في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عَمٍّ له ـ فكاتَبَتْه على نفسها ، وكانت امرأةً حلوةً مُلاّحةً ، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسولَ الله ﷺ تستعينه في كتابتها .

قالت [عائشة] : فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حجرتي فكرهتُها ، وعرفتُ أنه سيرى منها ما رأيتُ . فدخلتْ عليه . فقالت : يا رسول الله ؛ أنا جُويرية بنتُ الحارث بن أبي ضرار سيِّدِ قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشّمّاس ـ أو لابن عمٍّ

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب مَن ملك من العرب رقيقاً فوهب . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام ،... رقم (١).

له ـ فكاتَبْتُه على نفسي ، فجئتُك أستعينك على كتابتي . قال : فهل لك في خير من ذلك ؟ » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابَتَكِ وأتزوجُك » قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلتُ ».

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوَّج جُوَيْرِة بنتَ الحارث . فقال الناسُ : أصهارُ رسول الله ﷺ ! فأرسلوا ما بأيديهم . قالت : فلقد أُعتِق بتزويجه إياها مائةُ أهل بيت من بني المصطلق . فما أعلم امرأةً كانت أعظمَ بركة على قومها منها . رواه أحمد وابن إسحٰق وإسحٰق وأبو داود وابن الجارود والطحاوي وأبو يعلى ، وصححه ابن حبان والحاكم[1].

وأوضح في الدلالة على رحمته ﷺ بمن وقع في السبي ، حادثة هوازن ، وذلك أن هوازن بدأت تجمع القبائل لغزو رسول الله ﷺ ، فباغتها ﷺ قبل أن تغزوه ، فكانت غزوة حنين ، التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ، وقد كانوا ـ ليتم القدرُ الإلهي : قد ساقوا النساء والأطفال والغنم والإبل ـ فانتصر رسول الله ﷺ عليهم ، وسبى النساء والذرية والأموال ، ثم ذهب إلى الطائف لمحاصرتها ، وأرسل السبيَ إلى الجعرانة ، ولم يقسمها ﷺ على

---

(١) مسند أحمد (٦ : ٢٧٧) والسير والمغازي (٢٦٣) ومسند إسحٰق (٢: ٢١٦ ـ ٢١٧) والمنتقى لابن الجارود (٢٣٦ رقم ٧٠٥) وسنن أبي داود : كتاب العتق : باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة ، رقم (٣٩٣١) والطبقات الكبرى (٨ : ١١٦ ـ ١١٧) والسيرة النبوية لابن هشام (٣ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩) وشرح مشكل الآثار (١٢ : ١٩٤ ـ ١٩٥) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢١) والمعجم الكبير (٢٤ : ٦١) ومسند أبي يعلى (٨ : ٣٧٣ مختصراً) وصحيح ابن حبان (٩ ـ ٣٦١ ـ ٣٦٣ من طريقين) والمستدرك (٤ : ٢٦ ، ٢٦ ـ ٢٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٧٤ ـ ٧٥) ودلائل النبوة (٤ : ٤٩ ـ ٥٠) وانظر قصة إسلام الحارث ـ والد جويرة ـ السيرة لابن هشام (٣ : ٤٠٩ ـ ٤١٠) والسمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين (١١٧).

الجيش، ينتظر مجيء هوازن معتذرين ، فلما أبطؤوا قسم السبي والأموال ، فجاء وفد هوازن بعد قسمتها ، فرد رسول الله ﷺ عليهم ما أُخذ منهم .

فعن المسور بن مخرمة ومروان ، أن النبيّ ﷺ قام حين جاءه وفدُ هوازن ، فسألوه أن يردّ عليهم أموالَهم وسبيَهم . فقال : « إن معي مَن ترون ، وأحب الحديث إليَّ أصدقُه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ؛ إما المال ، وإما السبي ، وقد كنتُ استأنَيتُ بكم » ـ وكان النبيُّ ﷺ انتظرهم بضعَ عشرةَ ليلةً حين قفل من الطائف ـ فلما تبيَّن لهم أن النبيَّ ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا : نختار سبينا . فقام النبيُّ ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهلُه ثم قال : « أمّا بعد ، فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين ، وإني رأيتُ أن أرد إليهم سبيَهم ، فمن أحبّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك فليفعل ، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل » فقال الناس : طيَّبنا لك ذلك . قال : « إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم » فرجع الناسُ . فكلَّمهم عرفاؤهم . ثم رجعوا إلى النبيِّ ﷺ فأخبروه أنهم طيّبوا وأذنوا . رواه البخاري(١).

وعن عبد الله بن عمْرو بنِ العاص رضي الله تعالى عنهما ، أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ بالجعرانة ، وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله ؛ إنّا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا ، منَّ الله عليك .

قال : وقام رجلٌ من هوازن ، ثم أحد بني سعد بن بكر يقال له : زهير ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع ،... وفي غيرهما .

ويُكنى أبا صُرَد ، فقال : يا رسول الله ؛ إنما في الحظائر عمّاتُك وخالاتُك وحواضنُك اللآتي كنّ يكفُلنك[1]، ولو أنّا مَلَحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر[2]، ثم نزل منا بمثل الذي نزلتَ به ؛ رجونا عطفه وعائدتَه علينا ، وأنت خيرُ المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ : « أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ » فقالوا : يا رسول الله ؛ خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تَرُدُّ إلينا نساءَنا وأبناءنا ، فهو أحبُّ إلينا .

فقال لهم : « أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وإذا صليتُ الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسألُ لكم » فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهرَ ، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به .

فقال رسول الله ﷺ : « أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ».

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

فقال الأقرعُ بنُ حابسٍ : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عُيينةُ بنُ حِصن : أما أنا وبنو فَزارة فلا . وقال عباسُ بنُ مِرداس[3]: أما أنا وبنو سُلَيم فلا ،

(١) تذكير لرسول الله ﷺ بأنه رضع في بني سعد ، لذا يوجد في السبي من هي بمقام عمّاته وخالاته من الرضاع ، وحواضنه اللآتي كن يحضنه ويعتنين به . وهذا غاية الاستعطاف .

(٢) يريد لو أنهم أرضعوا هذين ، وهما ملك الشام وملك العراق من العرب ، لرجو عطفهما وفضلهما ، وأنت يا رسول الله ، خير منهما وأفضل . وهذا من باب الاستعطاف أيضاً .

(٣) هؤلاء الثلاثة من صناديد نجد ، هم من المؤلفة قلوبهم ، لذا قالوا ما قالوا .

فقالت بنو سُلَيم : [كذبتَ] بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

ـ قال : يقول عباس بنُ مِرداس لبني سليم : وهَّنتُموني ـ.

فقال رسول الله ﷺ : « أمّا من تمسّك منكم بحقه من هذا السبي ؛ فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أول سبي أصيبه ، فردُّوا إلى الناس أبناءَهم ونساءَهم ». رواه ابن إسحٰق ، ومن طريقه أحمد والنسائي والطبري والطبراني والبيهقي في الدلائل ، ورواه أبو داود مختصراً ، بإسناد صحيح[1].

فيلاحظ مدى الرحمة والشفقة والحنان منه ﷺ :

ـ إمهاله ﷺ بضعة عشر يوماً ينتظرهم ، والناس يلحّون عليه في تقسيم الغنائم ، ولكنهم تأخروا .

ـ لما قام خطيبُهم معتذراً عما صدر ، وقال أبياتاً من الشعر يستدر بها عطف رسول الله ﷺ ، وذكّره ما في الحظائر من خالات وعمّات له ﷺ من

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤ : ١٨٣ ـ ١٨٥) ومسند أحمد (٢ : ١٨٤، ٢١٨) وسنن النسائي : كتاب الهبة : باب هبة المشاع (٦ : ٢٦٢ ـ ٢٦٣) والسنن الكبرى له في الكتاب والباب نفسيهما (٤ : ١٢٠ ـ ١٢١) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في فداء الأسير ، رقم (٢٦٩٤) وتاريخ الطبري (٣ : ٣ : ٨٦ ـ ٨٧) والمعجم الكبير (٥ : ٣١٢ ـ ٣١٣) والسنن الكبرى (٦ : ٣٣٦ ـ ٣٣٧) ودلائل النبوة (٥ : ١٩٤ـ ١٩٥) ومجمع الزوائد (٦ : ١٨٧ ـ ١٨٨) وانظر فتح الباري (٨ : ٣٣ ـ ٣٤) حيث ذكره من رواية ابن إسحٰق ، وزاد ثم أنشده [أي زهير بن صُرد] الأبيات المشهورة ، أولها :

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندَّخر

ويقول فيها :

امنن على نسوة قد كنتَ ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدرر .

وقد ذكر الإمامان الطبراني والبيهقي رحمه الله تعالى سبعة أبيات ، المذكورَين وخمسةً غيرهما .

الرضاعة ، أخذته الرحمة والشفقة والعطف ،... لذا بادرهم بما قاله لهم من انتظاره لهم ، وما أعطاهم من نصيبه ونصيب أهل بيته .

ـ إخباره ﷺ برد السبي لهم ، مما كان لبني هاشم وبني عبد المطلب ، لأنهم أهله ، وهو يَمون عليهم بقوة .

ـ تعليمه ﷺ لهم ماذا يقولون : نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ . وفي ذلك غاية الرحمة والشفقة ، لأن فيه إثارة عند المسلمين ، خاصة عند المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم .

ـ لما أبى المؤلفة قلوبهم إعادة ما بأيديهم ، وعَدَهم ﷺ بأن يعطي مقابل كل واحد من السبي ستَّ قلائص ،... فرد الجميع إليهم .

فصلى الله عليه وآله وسلم ما أرحمه وأكرمه وأعطفه وأشفقه .

ـ توجعه ﷺ مما يفوت الكفار من الخير .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : توجعه ﷺ على تأخر بعض الكفار ـ فرادى أو جماعات ـ من إعلان إسلامهم . وذلك لكثرة ما يفوتهم من الخير ، كلما تأخروا عن إعلان إسلامهم . ولما ينالهم من التعب والمشقة والضنك في ذلك .

فعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه ومروان بن الحكم رحمه الله تعالى ـ في قصة صلح الحُدَيْبِيَة ، وفيه وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله ؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلودَ النمور ، يعاهدون الله أن لا تدخلَها عليهم عنوةً أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموا إلى كراع الغميم . فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح قريش ،

لقد أكلتهم الحربُ ، ما ذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس ، فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فماذا تظن قريش ، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة »... الحديث ، رواه أحمد والطبري والطبراني ، وأصل الحديث في الصحيح[1].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لعشر خلون من رمضان ـ الحديث بطوله في قصة فتح مكة ، وفيه مجيء العباس بأبي سفيان ، وفيه : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ؛ اذهب به إلى رحلك ، فإذا أصبحتَ فأتنا به » فذهبت به إلى الرحل ، فلما أصبحتُ ؛ غدوتُ به ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سفيان ؛ ويحك ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي وأمي ما أحلمك ، وما أكرمك ، وأوصلك ، وأعظم عفوك ، لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . فقال ﷺ : « ويحك يا أبا سفيان ؛ ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » فقال : بأبي وأمي ما أحلمك ، وأكرمك وأوصلك وأعظم عفوك . أمّا هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيء . قال العباس رضي الله تعالى عنه : ويلك أسلِم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك . فشهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) مسند أحمد (٤ : ٣٢٣ ـ ٣٢٦) والمعجم الكبير (٢٠ : ١٥ ـ ١٦) وتفسير الطبري (٢٢ : ٢٤٨ ـ ٢٤٩) وتاريخ الطبري (٢ : ٦٢٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٣ : ٤٢٨) وانظر صحيح البخاري : كتاب الشروط : باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب .

محمداً رسولُ الله ،... الحديث بطوله ، رواه إسحٰق بن راهويه ، والطبراني برجال الصحيح ، وصححه الحافظ والبوصيري[1].

وكلمة « ويح » تقال للتوجع ، بخلاف كلمة « ويل » فهي دعاء عند الغضب بالهلاك ، أما ترى خطابه ﷺ لأبي سفيان : « ويحك » بينما خطاب العباس رضي الله تعالى عنه له : (ويلك) وبهذا يتضح الفارق ، مع اختلاف المقامين . لذا كثر قوله ﷺ لأصحابه رضي الله تعالى عنهم : « ويحك » وقد ورد ذلك في الصحيحين وغيرهما بكثرة ، والله تعالى أعلم .

ـ قبوله ﷺ إسلام إعدائه ولم يقتلهم .

ومن مظاهر تلك الرحمة ، أن الأعداء الألدّاء الذين حاولوا اغتياله ﷺ أو قتله ، أو هجوه وشنعوا عليه ، أو آذوه في عرضه أو في نفسه ، أو صدوا الناس عنه ،... لما أتوه مسلمين : قبل إسلامَهم ، ولم يقتلهم ، بل صاروا من أقرب المقربين عنده ﷺ ، وصاروا لا أحد أحبَّ إليهم منه ﷺ . وهؤلاء كثير[2]، كأمثال :

صفوان بن أمية ، وأبي سفيان بن حرب ، وزوجه هند بنت عتبة ، وأبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وكعب بن زهير ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعَمْرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، ووحشي ،

---

(١) المطالب العالية (٤ : ٤١٨ ـ ٤٢٠) وإتحاف الخيرة المهرة (٦ : ٤٨٣ ـ ٤٨٦) والسيرة النبوية لابن هشام (٤ : ٦٤) والمعجم الكبير (٨ : ١٠ ـ ١٥) ودلائل النبوة (٥ : ٣٢ ـ ٣٥) ومجمع الزوائد (٦ : ١٦٤ ـ ١٦٧).

(٢) أما الذين حاولوا اغتياله أو قتله أو تآمروا عليه ﷺ فغير هؤلاء ، وسيأتي الحديثُ عنهم إن شاء الله تعالى قُبيل نهاية الرسالة .

وعدي بن حاتم ،... وأمثالهم رضي الله تعالى عنهم ، حيث أسلموا جميعاً .
وقد تعامل ﷺ مع كل واحد من هؤلاء بالأسلوب الذي يناسبه ،...

فإذا كان ﷺ قد أعطى صفوان بنَ أمية أجلاً للتفكير ، وأرسل إليه بالأمان ، وأعطاه مائة من الإبل يوم تقسيم الغنائم يوم حنين ، فأسلم وحسن إسلامُه ، فإنه ﷺ قد أمَّن عكرمة يوم الفتح ، وأعطاه لامرأته أم حكيم فلحقت به إلى اليمن فجاءت به ، وقَبِل إسلامَ أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية رضي الله تعالى عنهما مع شدة إيذائهما له ﷺ ، بعد أن قرَّر أبو سفيان أن يذهب بولده في الصحراء حتى يموتا جوعاً وعطشاً . كما قَبِل إسلامَ أبي سفيان بن حرب ـ مع أنه بقي متردداً ، ثم حسن إسلامه بعد ذلك لما كاشفه ﷺ هو ومن معه ـ في الحِجْر ـ عما في نفوسهم ـ وقَبِل إسلامَ ابن الزّبعرى وقال قصيدتَه بعد إسلامه ، والتي مطلعها :

يا رسولَ المَليكِ إنَّ لِساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أَنا بُورُ

وقَبِل ﷺ إسلامَ هندٍ التي بقرت بطن عم النبيّ الكريم ﷺ حمزة رضي الله تعالى عنه ، وقطعت قطعة من كبده فلاكتها .

وقَبِل إسلامَ كعب بن زهير بعد أن كان قد أهدر دمه ، فلما وقف على رسول الله ﷺ ، وسأله أن لو جاء كعب تائباً يقبل توبته ، فقال ﷺ : نعم . فأسلم ، وقال قصيدته المعروفة (بانت سعاد ...) وقَبِل إسلامَ مالك بن عوف النصري ـ الذي جمع قبائلَ هوازن وثقيف ... وغيرهما ، وأجمع السير لقتال رسول الله ﷺ ، فباغته رسول الله ﷺ ، وهزمه الله تعالى يوم حنين ، فلما هرب ، أرسل إليه رسول الله ﷺ ، إن جاء مسلماً ، يردّ عليه أهلَه وماله ويعطيه مائة من الإبل ، فجاء مسلماً ، وقال قصيدتَه أمام النبيِّ الكريم ﷺ ،

والتي مطلعها :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله   في الناس كلِّهم بمثلِ محمد

وقَبِل إسلامَ وَحْشيٍّ الذي قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه ، ولم يقتله .

وأقتصر على مثال واحد ، وهو عَمْرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، يخبرنا عن نفسه قبل وبعد الإسلام ، وعن استقبال النبي الكريم ﷺ له .

فعن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال : حضرنا عَمْرَو بنَ العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً ، وحوَّل وجهَه إلى الجدار . فجعل ابنُه [عبدُ الله] يقول : يا أبتاه ، أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا ؟

قال : فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني كنتُ على أطباقٍ ثلاثٍ .

لقد رأيتُني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكونَ قد استمكنتُ منه فقتلتُه . فلو مُتُّ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ : ابسط يمينَك فلأُبايعْك . فبسط يمينَه . قال : فقبضتُ يدي . قال : « مالَكَ يا عَمْرُو ؟ » قال : قلت أردتُ أن أشترطَ . قال : « تشترط بماذا ؟ » قلت : أن يُغفرَ لي . قال : « أما علمتَ أن الإسلامَ يهدم ما كان قبلَه ؟ وأن الهجرةَ تهدم ما كان قبلَها ؟ وأن الحجَّ يهدم ما كان قبلَه ؟ » .

وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجلَّ في عيني منه .

وما كنتُ أُطيقُ أن أملأَ عينَيَّ منه إجلالاً له . ولو سُئلتُ أن أصفَه ما أطقتُ . لأني لم أكن أملأُ عينَيَّ منه . ولو متُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة .. الحديث بطوله ، رواه مسلم(١) .

فلينظر العاقل إلى الفارق :

ـ حال عَمْرٍو قبل إسلامه ، من عداوته وبغضه وكراهته لرسول الله ﷺ وحرصه على قتل النبيِّ الكريم ﷺ .

ـ حاله عندما قدم ليسلم ، وكيف عامله رسول الله ﷺ بمنتهى اللطف والشفقة والرحمة ، خاصةً بعد ما قبض يده ، وطلب الاشتراط

ـ حاله بعد إسلامه رضي الله تعالى عنه ، وكيف صار رسول الله ﷺ أحب الخلق عنده ، وأنه لا يُحِدُّ البصر إليه ، إجلالاً له ﷺ ، بحيث لو طُلب منه أن يصف رسول الله ﷺ لما استطاع .

وهكذا شأن الإيمان ، وهذه نتيجة معاملته ﷺ لهم ، والله تعالى أعلم .

وكونه ﷺ لم يقابل عَمْراً بصنيع فعله السابق ، فهو ـ عدا عن كونه ﷺ رحمة للعالمين ـ فإنه ﷺ لا يقابل السيئةَ بالسيئة ، وهذا من جملة أوصافه في الكتب السماوية السابقة .

فعن عبد الله بنِ عَمْرٍو رضي الله تعالى عنهما ـ وقد سُئل عن وصف النبيِّ ﷺ في التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ وحِرزاً للأمِّيِّين ، فأنتَ عبدي ورسولي ، سمّيتُك المتوكلَ ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ،

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج ، رقم (١٩٢).

ولا سخّابٍ في الأسواق ، ولا يدفعُ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ ، ولكن يعفو ويغفر [ويصفح] ، ولن يَقبضَه الله حتى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله . فيفتحُ به أعيُناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً . رواه البخاري(١).

نعم ، إي والله ، فإنه لا يقابل السيئةَ بالسيئة ، ولكنه يعفو ويغفر ، لأنه رحمةٌ مهداة للعالمين ، فكيف بمن يأتيه معلناً إسلامَه ، فإنه ﷺ ينسى ما فعله ويقبل عليه .

فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان ، فكم لاقى وكم تحمل وكم صبر ، فجزاه الله تعالى عن البشرية كلها ، ما أرحمه وأشفقه وأكرمه .

ـ حسن تعامله ﷺ مع أهل الكتاب والكفار من غيرهم :

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : حُسنُ تعامله ﷺ مع أهل الكتاب ، حيث تُوُفِّي ﷺ ودرعُه مرهونة عند رجل من اليهود بشعير ، مع أنه ﷺ يستطيع ألا يتعامل معهم ، ويقتصر على المسلمين حسب ، ولكنه ﷺ يريد أن يعطي للخلق جميعاً درساً في التعامل مع جميع المواطنين ، ولو كانوا كفّاراً . وقد ورد رهن درعه ﷺ عن عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كعائشة وأنس وابن عباس وغيرهم ، أقتصر على ذكر حديثين .

فعن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن رسول الله ﷺ اشترى من يهوديٍّ طعاماً إلى أجل ، ورهنه درعاً من حديد . متفق عليه(٢).

---

(١) صحيح البخاري : كتاب البيوع : باب كراهية السخب في الأسواق ، وكتاب التفسير : سورة الفتح .

(٢) صحيح البخاري : كتاب البيوع : باب شراء النبيِّ بالنسيئة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب المساقاة : باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر ، رقم (١٢٤ ـ ١٢٦).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : ... ولقد رهن النبيُّ ﷺ درعاً له بالمدينة عند يهوديٍّ ، وأخذ منه شعيراً لأهله . رواه البخاري[1].

ومقدار الشعير ثلاثون صاعاً .

فعن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : تُوُفِّي النبيُّ ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير . رواه البخاري[2].

ففي هذين الحديثين : بيان ما كان عليه ﷺ من التواضع ، والزهد في الدنيا ، والتقلُّل منها ، مع قدرته ﷺ عليه ، فإنه يعطي المؤلفةَ قلوبهم مئات الإبل ، ولا يوجد في بيته إلا صاع شعير ، كما هو تتمة حديث أنس رضي الله تعالى عنه .

والحكمة في عدوله ﷺ عن معاملة مياسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى معاملة اليهود ؛ إما لبيان الجواز ، أو أنهم - أي الصحابة - لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم [قلت : وهذا بعيد] أو خشي ﷺ أنهم لا يأخذون منه ثمناً أو عِوضاً ، فلم يُرد التضييقَ عليهم . فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك وأكثر منه . فلعله ﷺ لم يُطلعهم على ذلك ، وإنما اطَّلع عليه من لم يكن موسِراً به ، ممن نقل ذلك ، والله تعالى أعلم . أفاده الحافظ[3].

كما فيها بيان حسن معاملته ﷺ للكفار ، فلم يجبر اليهودي على إعطائه ما يريد ، بل رهن درعَه عنده حتى يسدّد ما عليه من الثمن .

(١) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما .
(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب (٨٦) حدثنا قبيصة ، وفي غيرهما .
(٣) فتح الباري (٥ : ١٤١ - ١٤٢).

ويدخل في ذلك قصة بلال رضي الله تعالى عنه ، أذكره مع طوله ، لما فيه من العظة والعبرة .

فعن عبد الله بن لُحَي الهَوَزَنِيِّ رحمه الله تعالى قال : لقيتُ بلالاً مؤذِّنَ رسول الله ﷺ بحلب ، فقلت : يا بلال ، حدِّثني كيف كانت نفقةُ رسول الله ﷺ ؟ قال : ما كان له شيء ، كنتُ أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن تُوُفِّي . وكان إذا أتاه الإنسانُ مسلماً ، فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض ، فأشتري له البردةَ [أو النمرة] فأكسوه بها وأطعمه . حتى اعترضني رجلٌ من المشركين ، فقال : يا بلال ، إن عندي سَعَةً ، فلا تستقرض من أحد إلا مني . ففعلتُ .

فلما كان ذاتَ يوم ؛ توضأتُ ، ثم قمت لأُؤذِّن بالصلاة ، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار ، فلما أن رآني قال : يا حبَشيُّ . قلت : يا لَبَّاه ، فتجهَّمني ، وقال لي قولاً غليظاً ، وقال لي : أتدري كم بينك وبين الشهر ؟ قال : قلت : قريب . قال : إنما بينكَ وبينه أربعٌ . فآخذك بالذي عليك [فإني لم أعطكَ الذي أعطيتُك من كرامتك عليَّ ، ولا كرامة صاحبك ، ولكني أعطيتك لتَجِبَ لي عبداً] فأردُّك ترعى الغنمَ كما كنتَ قبل ذلك ، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفُس الناس .

حتى إذا صلَّيتُ العَتَمةَ رجع رسول الله ﷺ إلى أهله ، فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي ، فقلت : يا رسول الله ﷺ - بأبي أنتَ وأمي - إن المشركَ الذي [ذكرتُ لك أني] كنتُ أَتَدَيَّنُ منه قال لي كذا وكذا ، وليس عندك ما تقضي عني ، ولا عندي ، وهو فاضحي ، فأْذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسولَه ﷺ ما يقضي عني .

فخرجتُ ، حتى إذا أتيتُ منزلي ، فجعلتُ سيفي وجرابي ونعلي ومِجَنّي عند رأسي ، حتى إذا انشق عمودُ الصبح الأول ؛ أردتُ أن أنطلق ، فإذا إنسانٌ يسعى : يا بلال ؛ أجب رسول الله ﷺ ، فانطلقت حتى آتيه . فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالُهن ، فاستأذنت . فقال لي رسول الله ﷺ : « أبشر ، فقد جاءك الله بقضائك » ثم قال : « ألم ترَ الركائبَ المناخات الأربعَ ؟ » فقلت : بلى . فقال : « إن لك رقابَهن وما عليهن ، فإن عليهن كسوةً وطعاماً أهداهن إليَّ عظيمُ فَدَك ، فاقبضهن ، واقض دينك » ففعلتُ .

[فحططتُ عنهن أحمالَهن ، ثم عقلتُهن ، ثم عمدت إلى تأذين صلاة الصبح . حتى إذا صلّى رسولُ الله ﷺ ، خرجتُ للبقيع ، فجعلتُ أصبعي في أذني ، فناديتُ : من كان يطلب رسول الله ﷺ دَيناً فليحضر . فما زلتُ أبيعُ وأقضي ، وأعرضُ فأقضي ، حتى إذا فضل في يدي أُوقيَّتان ـ أو أُوقيّة ـ ونصف] انطلقتُ إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قاعدٌ في المسجد ، فسلّمتُ عليه ، فقال : « ما فعل ما قِبَلَك ؟ » قلت : قد قضى الله كلَّ شيء كان على رسول الله ﷺ ، فلم يبق شيء . قال : « أفضَلَ شيءٌ ؟ » قلت : نعم . قال : « انظر أن تُريحني منه ، فإني لستُ بداخل على أحدٍ من أهلي حتى تريحني منه ».

فلما صلّى رسولُ الله ﷺ العتمةَ دعاني ، فقال : « ما فعل الذي قِبَلَكَ ؟ » قال : قلت : هو معي لم يأتنا أحدٌ . فبات رسول الله ﷺ في المسجد [حتى أصبح ، فظل في المسجد اليومَ الثاني ، حتى كان في آخر النهار جاء راكبان ، فانطلقتُ بهما ، فكسوتُهما وأطعمتُهما] حتى إذا صلى العتمةَ ـ يعني من الغد ـ دعاني ، قال ﷺ : « ما فعل الذي قِبَلَك ؟ » قال : قلتُ : قد أراحك الله منه

يا رسول الله ؛ فكبَّر وحمد الله ، شفقاً من أن يدركه الموتُ وعنده ذلك . ثم اتّبعتُه حتى إذا جاء أزواجَه فسلَّم على امرأة امرأة ، حتى أتى مبيتَه . فهذا الذي سألتني عنه . رواه أبو داود والطبراني والبيهقي بإسناد صحيح ، وصححه ابن حبان[1].

ـ مراعاته ﷺ شعور الكفار .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : مراعاته ﷺ شعور أهل الكتاب ، فلم يرض ﷺ أن يُتكلَّم في أنبيائهم ، وإن كان ﷺ هو أفضل الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام بالإجماع ، وقد جاء ذلك مبيّناً على ألسنة الرسل عليهم السلام ، وكيف أخذ الله تعالى العهدَ عليهم أن إذا بُعث ﷺ وأحدٌ منهم على قيد الحياة يلزمه أن يؤمن به ويتبعه وينصره ، وقد بينت ذلك بشكل موسع في غير ما كتاب[2].

ومع هذا فإنه ﷺ لـمّا اشتكى إليه أحدُ اليهود أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ضربه لأنه قال : والذي فضل موسى على العالمين . غضب ﷺ ، ولم يرض بذلك القول ، وبيّن فضل أولئك الرسل عليهم السلام .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : استب رجلان ؛ رجلٌ من

(١) سنن أبي داود : كتاب الخراج : باب في الإمام يقبل هدايا المشركين ، رقم (٣٠٥٥ ، ٣٠٥٦) والمعجم الكبير (١: ٣٤٩ـ٣٥١) والسنن الكبرى (٦: ٨٠ ـ ٨١) (٩ : ٢١٥ ولم يسقه كاملاً) ودلائل النبوة (١ : ٣٤٨ ـ ٣٥١) وصحيح ابن حبان (١٤ : ٢٦١ ـ ٢٦٤) والشمائل لابن كثير(١٠٥ ـ١٠٧).

(٢) انظر الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن غيره من الأنبياء عليهم السلام ، وعظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل ، ومكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام ، وفضائل النبي الكريم ﷺ في القرآن العظيم .

المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهوديُّ : والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلمُ يدَه عند ذلك ، فلطم وجهَ اليهودي . فذهب اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم . فدعا النبيُّ ﷺ المسلمَ فسأله عن ذلك ، فأخبره . فقال النبيُّ ﷺ : « لا تُخيِّروني على موسى ،... » الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالسٌ جاء يهوديٌّ فقال : يا أبا القاسم ؛ ضرب وجهي رجلٌ من أصحابك . فقال : « مَن ؟ » قال : رجل من الأنصار . فقال : « ادعوه » فقال : « أضربتَه ؟ » قال : سمعته بالسوق يحلف ، والذي اصطفى موسى على البشر . قلت : أي خبيث ؛ على محمد ﷺ ؟ فأخذتني غَضبةٌ ضربتُ وجهَه . فقال النبيُّ ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ،...» الحديث بطوله ، متفق عليه[2].

فهذا الحديث ـ برواياته ـ كان في أول الهجرة ـ والأحاديث التي فيها بيان أفضليته ﷺ على غيره ثابتة متأخرة ، كقوله ﷺ : «أنا سيد الناس » لأنه ﷺ قالها في آخر حياته ، في السنة العاشرة من الهجرة ، لذا فما كان في هذا الحديث فهو منسوخ ـ كما أوضحته في (مكانة النبيّ الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام) وذكرت الأجوبة على هذا الحديث ، ومع هذا ففي

(١) صحيح البخاري : كتاب الخصومات : باب ما يُذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب من فضائل موسى ﷺ ، رقم (١٥٩ ـ ١٦١).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٦٢ ـ ١٦٣).

هذا الحديث أمران :

ـ قد يفهم تنقيص قدر مكانة الأنبياء السابقين عليهم السلام ، فيرد أهل الكتاب بسب النبيِّ الكريم ﷺ ، وهذا لا يجوز بحال ، لأننا منهيون عن ذلك ، فيكون هذا من بابة ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1].

ـ مراعاة شعور الكتابي ، باحترام نبيه ورسوله عليهم السلام ، لأنا مطالبون بالإيمان بهم ، واحترامهم ، وعدم الغمز أو الطعن فيهم ،..، والله تعالى أعلم .

ـ إباحته ﷺ صلة الكفار .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : إباحته ﷺ للمسلمين أن يصلوا أقاربهم ، وإن كانوا كفاراً ، ليعلموا أن في ديننا فسحة ، ولله الحمد والمنة ، وليس هو دين تحجر وتقوقع .

ذلك لأن البر والتوادد والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[2] لأنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل ، والله تعالى أعلم[3].

فإذا لم تكن موادة ، وليس ممن يقاتلون المسلمين فجائزٌ صلتُهم .

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : قَدِمَت عَلَيَّ أُمي

---

(١) سورة الأنعام (١٠٨).

(٢) سورة المجادلة (٢٢).

(٣) انظر فتح الباري (٥ : ٢٣٣).

وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ . قلت : إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلُ أمي ؟ قال : « نعم ، صِلي أُمَّك ». متفق عليه[1].

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما قال : رأى عمر حُلَّةً على رجلٍ تُباع ، فقال للنبي ﷺ : ابتع هذه تلبسْها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود . فقال : « إنما يلبس هذه من لا خلاقَ له في الآخرة » فأُتِي رسولُ الله ﷺ منها بحُلَل ، فأرسل إلى عمر منها بواحدة . فقال عمر : كيف ألبسُها وقد قلتَ فيها ما قلتَ ؟ قال : « إني لم أكسكها لتلبسَها ، تبيعُها أو تكسوها ». فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يُسلم . متفق عليه[2].

وهذا من باب البر والصلة المأذون بها شرعاً ـ طالما أنهم لم يقاتلوا المسلمين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[3]، والله تعالى أعلم .

ـ قبوله ﷺ هدايا المشركين .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : قبوله ﷺ هدايا الكفار ، إذا لم تكن محرَّمةً في ديننا ، كأن تكون لباساً ، أو دابّةً يركبها ، أو جارية ،...

(١) صحيح البخاري : كتاب الهبة : باب الهدية للمشرك ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ،... ولو كانوا مشركين ، رقم (٤٩ ، ٥٠).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب اللباس : باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ،... رقم (٦).

(٣) سورة الممتحنة (٨).

ونحو ذلك ، تطييباً لخاطر المُهدي ، وكف شره ، وأملاً في هدايته وإسلامه .

وقد تنوعت الهدايا التي أُرسلت إلى رسول الله ﷺ من أفراد عاديين ، أو من ملوك ، أو زعماء في أقوامهم ، وقد قبلها إلا ما كان في ردها مصلحة .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن يهوديةً أتت النبيَّ ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها ، فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : « لا ». متفق عليه[١].

ورواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقد سبق ذكرهما .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : أُهدي للنبي ﷺ جُبَّةُ سندس ـ وكان ينهى عن الحرير ـ فعجب الناس منها ، فقال : « والذي نفس محمد بيده ، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا ». متفق عليه[٢].

وفي رواية لهما[٣] عنه رضي الله تعالى عنه ، أن أُكيدرَ دُومة الجندل أهدى لرسول الله ﷺ حلَّةً ،...إلخ .

وعن أبي حُميد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال : غزونا مع رسول الله ﷺ غزوةَ تبوك ،... الحديث بطوله ، وفيه : وأهدى مَلِك أَيلة للنبيِّ ﷺ بغلة بيضاء ، وكساه بُرداً ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[٤].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الهبة : باب قبول هبة المشرك . وصحيح مسلم : كتاب السلام : باب السم ، رقم (٤٥).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ، رقم (١٢٦ ، ١٢٧).

(٣) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ـ تعليقاً ـ وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٢٧).

(٤) صحيح البخاري : كتاب الزكاة : باب خرص التمر ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب في معجزات النبيّ ﷺ ، رقم (١١ ، ١٢).

وصاحب أيلة : ابن العَلماء ـ يوحنا بن روبة ـ وهو نصراني ، وقد صالح رسول الله ﷺ ودفع الجزية ، كما في مغازي ابن إسحٰق .

وإهداء المقوقس إلى النبي المصطفى الكريم ﷺ مارية رضي الله تعالى عنها ، والبغلة البيضاء ، والحمار يعفور : مشهور .

وهؤلاء كلهم نصارى لم يسلموا ، وأقتصر على رواية في هدية المشرك .

فعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدّيق رضي الله تعالى عنهما قال : كنا مع النبيِّ ﷺ ثلاثين ومائة ، فقال النبيُّ ﷺ : « هل مع أحد منكم طعام ؟ » فإذا مع رجلٍ صاعٌ من طعام أو نحوُه ، فعجن ، ثم جاء رجلٌ مشركٌ مُشعانٌ طويلٌ ، بغنم يسوقها . فقال النبيُّ ﷺ : « أبيعٌ أم عطية ـ أو قال : هبة؟» قال : بل بيع . فاشترى منه شاةً ، فصُنعت ،... الحديث بطوله ، متفق عليه(١).

فهذا مشرك ، وقول رسول الله ﷺ له : « أبيع أم عطية ـ أو هبة » يدل على قبول هدية المشرك ، لأنه ﷺ سأله هل يبيع أو يهدي ، فلو لم تجز هدية المشرك ما قال له ﷺ : « أو هبة » ، والله تعالى أعلم .

ـ تقديره ﷺ لمواقف بعض الكفار .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : تقديره ﷺ لمواقف بعض الكفار الذين ماتوا وهم كفار ، أو صفاتهم التي اتصفوا بها ، أو تأسفه على عدم استفادتهم من عقولهم التي خصوا بها ،...إلخ.

فعن جُبَيَر بن مُطْعِم رضي الله تعالى عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال في أسارى

---

(١) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الأشربة : باب إكرام الضيف وفضل إيثاره ، رقم (١٧٥).

بدر : « لو كان المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ حيّاً ثم كلَّمني في هؤلاء النّتنى لتركتُهم له ». رواه البخاري[1].

أَيْ لو كان المطعِمُ حيّاً وسأل النبي المصطفى الكريم ﷺ إطلاقَ سراح الأسرى من قريش من غير فداء ، لأطلقهم النبيُّ الكريم ﷺ كرامةً له ، لما له من فضيلة إجارته النبيّ الكريم ﷺ يوم عودته من الطائف ، ولما كان له من موقف مشرّف في نقض الصحيفة الظالمة التي كتبتها قريش في مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، والله تعالى أعلم .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : لما أُتي بسبايا طيء ، وقفت جاريةٌ حمراء [جمّاء ، حوّاء] لعساء ، ذلفاء ، عَيطاء ، شمّاء الأنف ، معتدلةُ القامة والهامة ، درماء الكعبين ، خدلةُ الساقين ، لفّاء الفخذين ، خميصةُ الخصرين ، ضامرة الكشحين ، مصقولةُ المتنين . قال : فلما رأيتُها أُعجبتُ بها ، وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ يجعلها في فيئي . فلما تكلَّمتْ أُنسيتُ جمالَها لما رأيتُ من فصاحتها .

فقالت : يا محمد ؛ إن رأيتَ أن تُخلّي عنّا ، ولا تُشمت بي أحياءَ العرب ، فإني ابنةُ سيد قومه ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويُشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويُقري الضيف ، ويُطعم الطعام ، ويُفشي السلام ، ولا يرد طالبَ حاجة قط . أنا ابنةُ حاتم طيء .

فقال النبيُّ ﷺ : « يا جارية ؛ هذه صفة المؤمنين حقّاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه ، خلّوا عنها ، فإن أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاق ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب ما منَّ النبيُّ ﷺ على الأسارى من غير أن يُخمّس ، وفي غيرهما .

والله يحبُّ مكارمَ الأخلاق ». رواه البيهقي ، وابن عساكر من طريقين ، هو بهما حسن ، وقال ابن كثير عن سند البيهقي : حسن المتن ، غريب الإسناد جدّاً ، عزيز المخرج[1].

قلت : لعله لم يطلع على السند الثاني عند ابن عساكر ، والله تعالى أعلم .

ـ نهيه ﷺ عن التفريق بين الأقارب من السبي في البيع .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : أنه ﷺ نهى عن التفريق بين الأقارب عند البيع إذا كانا صغيرين ، أو كان أحدهما صغيراً ، كالأم وولدها ، وكذا الولد مع أبيه ، وكذا بين الأخوين الصغيرين ، شفقة عليهما ، ورحمة بهما .

فعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : وهب لي رسول الله ﷺ غلامَين أخوين ، فبعتُ أحدَهما . فقال لي رسول الله ﷺ : « يا عليّ ؛ ما فعل غلامُك ؟ » فأخبرته ، فقال : « ردّه ، ردَّه ».

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أبيع غلامَين أخوين ، فبعتُهما ، ففرقت بينهما ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : « أَدْرِكهما ، فارتجعهما ، ولا تبعهما إلا جميعاً ، ولا تفرِّق بينهما ». رواه أحمد والطيالسي ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه والدارقطني والبيهقي[2].

---

(١) دلائل النبوة (٥ : ٣٤١) وتاريخ مدينة دمشق (٦٩ : ٢٠٢ ، ٢٠٣) ومختصر تاريخ دمشق (١٠ : ٢٥٧) والسيرة النبوية لابن كثير (٤ : ١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) مسند أحمد (١ : ٩٧ ـ ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ـ ١٢٧) ومسند الطيالسي (٢٦ رقم ١٨٥) وسنن الترمذي : كتاب البيوع : باب ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع ، رقم (١٢٨٤) وسنن ابن ماجه : كتاب التجارات : باب النهي عن التفريق بين السبي ، رقم (٢٢٤٩) والبحر الزخار (٢ : ٢٢٧) والمنتقى لابن الجارود (١٩٩رقم =

وعنه رضي الله تعالى عنه قال : إنه فرّق بين والدة وولدها ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك ، ورد البيع . رواه أبو داود والدارقطني والبيهقي ، وصححه الحاكم[1].

وعن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من فرَّق بين الوالدة وولدِها [وفي رواية : بين الولد ووالده في البيع] فرَّق الله بينه وبين أحبتِه يوم القيامة ». رواه أحمد ، والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وأقره الذهبي[2].

= ٥٧٥) والمستدرك (٢ : ٥٤ ، ١٢٥) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ١٢٧) وشعب الإيمان (٧ : ٤٨٤) وسنن الدارقطني (٣ : ٦٥ ـ ٦٦ ، ٦٦) ومجمع الزوائد (٤ : ١٠٧) وهذا مما يستدرك عليه ، لوجوده في السنن .

(١) سنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في التفريق بين السبي ، رقم (٢٦٩٦) وسنن الدارقطني (٣ : ٦٦) والمستدرك (٢ : ٥٥ ، ١٢٥) والسنن الكبرى (٩ : ١٢٦).

(٢) مسند أحمد (٥ :٤١٢ ـ ٤١٣ ، ٤١٤) وسنن الدارمي (٢ : ١٤٦) وسنن الترمذي : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٢٨٣) وكتاب السير : باب في كراهية التفريق بين السبي ، رقم (١٥٦٦) والمستدرك (٢ : ٥٦) وسنن الدارقطني (٢ : ٦٧) والمعجم الكبير (٤ : ٢١٧) والسنن الكبرى (٩ : ١٢٦) وشعب الإيمان (٧ : ٤٨٤) ومسند الشهاب (١ : ٢٨٠) وانظر نصب الراية (٤ : ٢٣ ـ ٢٦).

وقد جاء في مسند الإمام أحمد ذكر سبب ذكر أبي أيوب رضي الله تعالى عنه هذا الحديث ، ولفظه :

عن أبي عبد الرحمن الحُبُلّي قال : كنا في البحر ، وعلينا عبد الله بن قيس الفزاري ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فمر صاحبُ المقاسم ، وقد أقام السبيَ ، فإذا امرأةٌ تبكي ، فقال [أبو أيوب] : ما شأن هذه ؟ قالوا : فرَّقوا بينها وبين ولدها . قال : فأخذ بيد ولدها حتى وضعه في يدها . فانطلق صاحبُ المقاسم إلى عبد الله بن قيس فأخبره . فأرسل إلى أبي أيوب ، فقال : ما حملك على ما صنعتَ ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من فرَّق ،... » ثم ذكر الحديث .

قال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى[1]: والعمل على هذا عند أهل العلم ؛ من أصحاب النبيِّ ﷺ وغيرهم ، كرهوا التفريق بين السبي ، بين الوالدة وولدها ، وبين الولد ووالده ، وبين الإخوة . اهـ والله تعالى أعلم .

ـ نهيه ﷺ عن الغدر والنهب والتمثيل

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : نهيه ﷺ المسلمين الذين يرسلهم للجهاد عن الغدر والنهبة والمثلة في القتلى ، لأن هذا ليس من شيم المسلمين الحريصين على هداية الخلق إلى الله تعالى .

فعن عَمْرِو بن الحَمِق بن كاهل بن حبيب الخزاعي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيّما رجل أمّن رجلاً على دمه وماله فقَتَلَه ، فإنه يحمل لواءَ غدر يومَ القيامة ».

وفي رواية : « فأنا من القاتل بريءٌ ، وإن كان المقتولُ كافراً ». رواه أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وابن أبي شيبة والفسوي والنسائي وابن ماجه في آخرين ، وصححه ابن حبان والحاكم والبوصيري وابن حجر[2].

---

(١) سنن الترمذي (٤ : ١٣٤).

(٢) مسند أحمد (٥ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٤٣٦ ـ ٤٣٧ ، ٤٣٧) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ٣٠٠) ومسند الطيالسي (١٨١) ومسند ابن أبي شيبة (٢ : ٣٥٥ ـ ٣٥٦) والمعرفة والتاريخ (٣ : ١٩٢ ـ ١٩٣) والتاريخ الكبير (٣ : ٣٢٢ ـ ٣٢٣ من طرق) والسنن الكبرى للنسائي : كتاب السير : باب فيمن أمَّن رجلاً فقتله (٥ : ٢٢٥) وسنن ابن ماجه : كتاب الديات : باب من أمَّن رجلاً على دِينه فقتله ، رقم (٢٦٨٨) وشرح مشكل الآثار (١ : ١٩١ ، ١٩٢) والبحر الزخار (٦ : ٢٨٣ ـ ٢٨٦ من طرق) والمعجم الأوسط (٤ : ٢٩٨) (٦ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، ٣٧٣) (٧ : ١٣٦) (٨ : ٥ ، ٢١١) والمعجم الصغير (١ : ٤٥ ـ ٤٦ ، ٣٥٠) والآحاد والمثاني (٤ : ٣١٦ ـ ٣١٧ من طرق) وصحيح ابن حبان (١٣ : ٣٢٠) والمستدرك (٤ : ٣٥٣) والسنن =

وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية : أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال : « اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلّوا، ولا تغدروا ، ولا تَمَثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ،...» الحديث بطوله ، رواه مسلم[1]. وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى بعد قليل .

وعن عبد الله بن يزيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال : نهى النبيُّ ﷺ عن النُّهبى والمثلة . رواه البخاري[2].

والنهي عن المثلة ورد عن عدد كبير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، منهم بُريدة بن الحصيب ، والمغيرة بن شعبة ، وأبو سعيد الخدري ، وسمرة ابن جندب ، وعمران بن حُصين ، ويعلى بن مرة ،... في آخرين .

والمثلة تقطيع الأطراف وغيرها من الأعضاء والحيوان حي ، فهذا حرام بلا خلاف ، وإذا كان رسول الله ﷺ قد أمر بإحسان القتل وإحسان الذبح ألا يحرم التعذيب للإنسان في تقطيع أعضائه ، ابتداء من قلع الظفر ، وانتهاء بقطع اليد والرجل وبقر البطن .

فعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم

= الكبرى للبيهقي (٩ : ١٤٢ ، ١٤٢ - ١٤٣) ومجمع الزوائد (٦ : ٢٨٥) وهذا مما يستدرك عليه ، وفتح الباري (٦: ٦١٧) ومصباح الزجاجة (٣ : ١٣٦).

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو ، رقم (٣ - ٥).

(٢) صحيح البخاري : كتاب المظالم : باب النهبى بغير إذن صاحبه ، وفي غيرهما .

فأحسنوا الذَّبحَ ، وليُحدَّ أحدُكم شفرتَه ، فليرح ذبيحته ». رواه مسلم[1].

فقد أمر الله تعالى بالقتل ، وأمر بالرفق فيه ، فما أكمل هذه الرحمة .

ثم إن المؤمن هو أعف ـ أو من أعف الناس ـ قِتلة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أعف الناس قِتْلةً أهلُ الإيمان ». رواه أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجه والطحاوي وابن الجارود والبزار والطبراني وأبو يعلى والبيهقي ، وصححه ابن حبان ، ورواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبراني موقوفاً برجال الصحيح[2].

ـ قيامه ﷺ لجنازة يهودي .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : كونه ﷺ لما مرّت به جنازةُ يهوديٍّ قام ، ولم يبق ﷺ جالساً ، وعلّل قيامه أليس هي نفس ، وأن للموت فزَعاً ، مع أنه ﷺ كان يقوم لكل جنازة ، سواء كان صاحبها مسلماً أم غيره ، ويكون قيامه لله تعالى الذي قبض روح الميت.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : مَرَّ بنا جنازة ، فقام لها

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الصيد : باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ،... رقم (٥٧).

(٢) مسند أحمد (١: ٣٩٣) ومصنف عبد الرزاق (١٠ : ٢٢) ومصنف ابن أبي شيبة (٩: ٤٢٠ ـ ٤٢٢ من طرق) ومسند الطيالسي (٣٦ رقم ٢٧٤) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في النهي عن المثلة ، رقم (٢٦٦٦) وسنن ابن ماجه : كتاب الديات : باب أعف الناس قتلة أهل الإيمان ، رقم (٢٦٨١ ، ٢٦٨٢) وشرح معاني الآثار (٣ : ١٨٣) والمنتقى (٢٨٥ رقم٨٤٠) ومسند أبي يعلى (٨ : ٣٨٧ ، ٣٨٨) (٩ : ٧٩ ـ ٨٠) والمعجم الكبير (٩ : ٤٠٨) ومسند الشاشي (١ : ٣٦١) وصحيح ابن حبان (١٣ : ٣٣٥) والسنن الكبرى للبيهقي (٨ : ٦١) (٩ : ٧١).

النبيُّ ﷺ ، فقمنا به . فقلنا : يا رسول الله ؛ إنها جنازة يهودي . قال : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا ». متفق عليه[1].

زاد مسلم - في روايته - قولَه ﷺ : « إن الموتَ فَزَعٌ ».

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى ، أن قيس بن سعد وسهل ابن حُنَيف رضي الله تعالى عنهم كانا [قاعِدَين] بالقادسية ، فمرت بهما جنازة ، فقاما . فقيل لهما : إنها من أهل الأرض [أي من أهل الذِّمّة] فقالا : كنا مع رسول الله ﷺ فمرّت علينا جنازة ، فقام . فقيل له : إنها جنازة يهودي . فقال : « أليستْ نفْساً ؟ ». متفق عليه[2].

وقد جاء الحث على القيام مطلقاً ، سواء كانت جنازة مسلم أم غيره .

فعن عامر بن ربيعة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « إذا رأى أحدُكم جنازةً ، فإن لم يكن ماشياً معها فليقم [حين يراها] حتى يُخلِّفها ، أو تُخلِّفَه ، أو توضع من قبل أن تخلِّفه ». متفق عليه[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا ، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع ». متفق عليه[4].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب من قام لجنازة يهودي .وصحيح مسلم : كتاب الجنائز : باب القيام للجنازة ، رقم (٧٨ ـ ٨٠).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٨١).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب متى يقعد إذا قام للجنازة . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٧٣ ـ ٧٥).

(٤) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب من تبع جنازة فلا يقعد حتى توضع عن مناكب الرجال . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٧٧).

وتعليله ﷺ بقوله : « أليست نفساً » وَ « إن الموت فَزَعٌ » يدل على أن القيام يستحب لكل جنازة ، ولو كانت ذِمِّيَّةً ، وهذا ما ذهب إليه عدد من أئمة السلف . ورجحه الإمام النووي رحمه الله تعالى[1].

وإن كان قد ثبت عنه ﷺ أنه قام ثم قعد .

ـ تحمُّلُه ﷺ الإساءة من الكافر ونحوه .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكافر ونحوَه : تحمُّلُه ﷺ ما يصدر من الكافر والجاهل ونحوهما من الإساءة نحوه ﷺ ، فلا يعاقب مَن أساءَ إليه ، بل يعفو ويصفح ، لأنه ﷺ لا يقابل السيئةَ بالسيئة . وهذا هو وصفه ﷺ في الكتب السماوية السابقة . وقد سبق ذكر حديث عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله تعالى عنهما في ذلك . ولفظه :

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما ـ وقد سُئل عن وصف النبي ﷺ في التوراة ـ فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ،... فأنت عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّلَ ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا سخّابٍ في الأسواق ، ولا يدفع السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ ، ولكن يعفو ويغفر ،... الحديث ، رواه البخاري[2].

لذا أذكر هنا بعض الأمثلة للتقريب :

فقصة زيد بن السعنة وهو حبر من كبار أحبار يهود ، لما رأى رسول الله ﷺ أول مرة ، رأى فيه جميعَ العلامات الموجودة في التوراة سوى اثنتين ،

---

(١) انظر : المحلى لابن حزم (٥ : ١٥٣ـ ١٥٤) والمجموع للنووي (٥ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨) وشرح صحيح مسلم له (٧ : ٢٧ ـ ٢٩) وفتح الباري (٣ : ١٨١).

(٢) صحيح البخاري : كتاب البيوع : باب كراهية السخب في الأسواق ، وفي غيرهما.

وهاتان لا تدركان بالنظر ، إنما تعرف بالمخالطة ، فأراد أن يكتشفها ، فتهجّم على رسول الله ﷺ ، وأغلظ له القول ، وأخذ بمجامع ثوبه ، وفعل ذلك بحضرة الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ، ومع هذا لم يقتله ﷺ ، ولم يعاقبه ، بل طلب من عمر رضي الله تعالى عنه خلاف ما أراد ، وأمره أن يعطيه حقّه ، مع زيادة مقابل ما روَّعه . لذا أسلم هذا الحبر ، بعد ما تحقق من تلك الخصلتين ، وأخبر أنه ما حمله على فعل ما فعله بالنبي الكريم ﷺ بحضرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلا ليكتشفهما في النبي الموعود ، فتحقَّقهما فيه ﷺ .

فعن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال : إن الله تبارك وتعالى لما أراد هُدَى زيد بن سعْنَة ، قال زيد بنُ سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيءٌ إلا وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه ، إلا اثنتين لم أَخبَرْهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيده شدَّةُ الجهل عليه إلا حلماً . فكنتُ أتلطَّف له لأن أخالطه فأعرف حلمَه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات ، ومعه عليُّ بنُ أبي طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي ، فقال : يا رسول الله ، قريةُ بني فلان قد أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وكنتُ أخبرتُهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزقُ رغداً ، وقد أصابهم شدّةٌ وقحطٌ من العيش ، وأنا أخشى يا رسول الله ؛ أن يخرجوا من الإسلام طمعاً ، كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيتَ أن ترسلَ إليهم من يُغيثُهم به فعلتَ . قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه ، أُراه عمر ، فقال : ما بقي منه شيء يا رسول الله .

قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه ، فقلت : يا محمد ؛ هل لك أن تبيعني

تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ؟ فقال : « لا ، يا يهودي ، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجلِ كذا وكذا ، ولا أسمّي حائطَ بني فلان » قلت : نعم ، فبايعني ﷺ ، فأطلقتُ هِمياني ، فأعطيتُه ثمانين مثقالاً من ذهب في تمرٍ معلومٍ إلى أجلِ كذا وكذا . قال : فأعطاها الرجلَ ، وقال : « اعجل عليهم ، وأغثهم بها » .

قال زيد بنُ سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ في جنازةِ رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ونفرٌ من أصحابه ، فلما صلّى على الجنازة ، دنا من جدارٍ ، فجلس إليه ، فأخذتُ بمجامع قميصه ، ونظرتُ إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : ألا تقضيني يا محمد حقّي ؟ فوالله ما علمتُكم بني عبد المطلب إلا مطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم . قال : ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلَك المستدير ، ثم رماني ببصره ، وقال : أي عدوَّ الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتفعل به ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوتَه لضربتُ بسيفي هذا عنقك . ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، ثم قال : « إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر . أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقَّه ، وزده عشرين صاعاً من غيره ، مكان ما رعتَه » .

قال زيد : فذهب بي عمر ، فقضاني حقي ، وزادني عشرين صاعاً من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتُك . فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ قلت : أنا زيدُ بنُ سعنة . قال : الحبر ؟ قلتُ : نعم ، الحبرُ .

قال : فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلتَ ، وتفعلَ به ما فعلتَ ؟ فقلت : يا عمر ، كلُّ علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتين ؛ لم أخبرهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيدُه شدةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُهما ، فأُشهدك يا عمر أني قد رضيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً . وأُشهدك أن شطرَ مالي ـ فإني أكثرها مالاً ـ صدقةٌ على أمة محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضها ، فإنك لا تسعهم كلَّهم . قلت : أو على بعضهم .

فرجع عمر وزيدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال زيدٌ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ . فآمن به وصدَّقه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة ، ثم تُوُفِّي في غزوة تبوك ، مقبلاً غير مدبر . رواه ابن حبان والحاكم وصححاه ، وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل ، والطبراني برجال ثقات ، وأبو الشيخ وغيرهم ، وحسنه الحافظ المزي ، وللحديث شاهدان[1].

فلم يقتله ، بل تحمّله ثم عفا عنه ، مع أنه لو حصل مثلُ هذا بل أقل منه لمسؤول مهما صغر ماذا ستكون النتيجة ؟؟؟ فما أرحمه وأعطفه وأكرمه وأشفقه ﷺ ، إن حسن معاملته ورأفته وعطفه عليه أدّت إلى إسلامه ، وهذا هو المطلوب ، إنه ﷺ يريد هداية الخلق ولو كان على حساب شخصه

(١) صحيح ابن حبان (١ : ٥٢١ ـ ٥٢٤) والمستدرك (٣ : ٦٠٤ ـ ٦٠٥) والمعجم الكبير (٥ : ٢٥٣ ـ ٢٥٥) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ١٠٨ ـ ١١٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٧٨ ـ ٢٨٠) وأخلاق النبيّ ﷺ : باب ما ورد في كظمه الغيظ وحلمه ﷺ (٧٢ ـ ٧٤) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠) والإصابة (١ : ٥٦٦) وتهذيب الكمال (٧ : ٣٤٤ ـ ٣٤٧) والاستيعاب (٢ : ١٢٢) وأسد الغابة (٢ : ١٣٦ ـ ١٣٧) وانظر : دلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٨٠ ـ ٢٨١) والطبقات الكبرى (١ : ٣٦١) لبيان الشاهدين .

الكريم ﷺ ، فجزاه الله عن الخلق والخليقة خير ما جزى أحداً من الخلق .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : قاتل رسول الله ﷺ محاربَ خصفةَ ، فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجلٌ منهم يقال له : غَورث بن الحارث ، حتى قام رأس على رسول الله ﷺ بالسيف ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله عز وجل » فسقط السيفُ من يده . فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : « من يمنعك مني ؟ » قال : كن خير آخذ . قال : « أتشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ » قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلّى سبيلَه ، فأتى قومَه فقال : لقد جئتكم من عند خير الناس ،... الحديث بطوله ، رواه أحمد وأبو يعلى والطحاوي وأبو الشيخ ، وصححه ابن حبان والحاكم[1]. ورواه مختصراً البخاري تعليقاً ، وأصل الحديث في الصحيحين ، وقد سبق ذكره .

وهذا يدل على مدى شجاعة النبي المصطفى الكريم ﷺ ، وقوة يقينه ، كما يدل على صبره وتحمّله الأذى ، وحلمه على مثل هذا الجاهل وإن كان كافراً ، لأنه أسلم فيما يقال بعد ذلك ، ويكفي قوله : لقد جئتكم من عند خير الناس ، والله تعالى أعلم .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه رداءٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجبذه بردائه جبذةً

---

(١) مسند أحمد (٣: ٣٦٤ ـ ٣٦٥، ٣٩٠) وشرح معاني الآثار (٣ : ٣١٥، ٣١٧ مختصراً) ومسند أبي يعلى (٣ : ٣١٢ ـ ٣١٣) وصحيح ابن حبان (٧ : ١٣٨) والمستدرك (٣ : ٢٩) وأخلاق النبيّ ﷺ (٤١) ودلائل النبوة (٣ : ٣٧٥ ـ ٣٧٦) وانظر الرواية السابقة في الصحيحين .

شديدةً [رجع نبيُّ الله ﷺ في نحر الأعرابيِّ ، حتى انشق البرد ، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ] نظرتُ إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثَّرت بها حاشيةُ الرداء ، من شدة جبذته . ثم قال : يا محمد ؛ مُر لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء . متفق عليه(١).

وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه النبي المصطفى الكريم ﷺ من الحلم وحسن الخلق ، وسعة الجود ، والصبر على الأذى في النفس والمال ، والعفو عمن يريد تألفه على الإسلام ، والتجاوز عن جفاة الأعراب ، ليتأسى به الولاة من بعده في خُلُقه الجميل ؛ من الصفح والإغضاء ، والدفع بالتي هي أحسن(٢) ، والله تعالى أعلم .

وهناك قصص كثيرة في بيان تجاوزه وحلمه وعفوه ،... ﷺ عن الكفار والجهال ، ليتألفهم على الإسلام ، ولو كان ذلك على حساب شخصه ﷺ الكريم ونفسه وماله .

ـ إعطاؤه ﷺ المؤلفة قلوبهم .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : إعطاؤه ﷺ المؤلفة قلوبهم ، يتألفهم على الإسلام ، وإلا فما الذي حمله ﷺ على ذلك ؟ فإنه كان بإمكانه قتلهم ، لكنه ﷺ لا يريد أن يشقى هؤلاء في الآخرة أيضاً ، لذا

---

(١) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلفةَ قلوبهم وغيرهم من الخمس ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة ، رقم (١٢٨).

(٢) انظر : فتح الباري (٦ : ٢٥٤) (١٠ : ٥٠٦).

حسن إسلام كثير منهم .

فعن رافع بن خَديج رضي الله تعالى عنه قال : أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بنَ حربٍ ، وصفوانَ بنَ أميةَ ، وعُيينةَ بنَ حصنٍ ، والأقرعَ بنَ حابسٍ ؛ كلَّ إنسان منهم مائةً من الإبل ، وأعطى عبّاسَ بنَ مِرداسٍ دونَ ذلك . فقال عبّاسُ بنُ مِرداس :

أتَجْعلُ نَهْبي ونَهبَ العُبيد[1] بين عُيينةَ والأقرع
فما كان بَدْرٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في المجْمَع
وما كنتُ يوماً دونَ امرئ منهما ومَن تَخْفضِ اليومَ لا يُرفعِ

قال : فأتم له رسول الله ﷺ مائة . رواه مسلم[2].

وعن عبد الله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يومَ حُنين ، قسم في الناس ، في المؤلفةِ قلوبُهم ، ولم يعط الأنصارَ شيئاً ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : لما كان يومُ حُنين آثر رسولُ الله ﷺ ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مائةً من الإبل ، وأعطى عُيينةَ مثلَ ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ، وآثرهم يومئذٍ في القسمة .... الحديث ، متفق عليه[4].

---

(١) يريد بالنهب : الغنيمة . وبالعُبيد : اسم فرسه .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ،... رقم (١٣٧).

(٣) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٣٩).

(٤) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٤٠).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : بعث عليٌّ رضي الله تعالى عنه ـ وهو باليمن ـ بذهبة في تربتها إلى رسول الله ﷺ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر ؛ الأقرع بن حابس الحنظلي ، وعُيينة بن بدر الفَزاري ، وعلقمة بن عُلاثة العامري ثم أحد بني كِلاب ، وزيد الخير الطائي ثم أحد بني نبهان ... الحديث ، متفق عليه(١).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ أعطى أبا سفيان وعُيينةَ والأقرع وسُهيل بنَ عمرٍو ، في الآخرين ، يومَ حُنين ،... رواه أحمد بإسناد صحيح ، وصححه الحافظ(٢).

وليس هؤلاء هم المؤلفة قلوبهم ، بل بلغ عددُهم أربعين رجلاً(٣).

وإذا كان بعضُ هؤلاء قد أسلم قبل إعطائه ، فإن بعضهم الآخرين لم يكن قد أسلم ، ولكنه بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه كصفوان بن أمية .

وكون النبي المصطفى الكريم ﷺ آثر هؤلاء المؤلفة قلوبهم في العطية دون من سواهم ، لما في العطية والهبة من تأثير في النفوس ، ليتألفهم إلى دين الله تعالى ؛ رحمةً بهم ، وشفقة عليهم ، حتى يُسلموا ، وينجو من عذاب الله ، بينما لم يعط من سواهم من الصحابة المخلصين الصادقين ، لأنه وكَلَهم إلى دينهم وإيمانهم ، والله تعالى أعلم .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب علامات النبوة في الإسلام ، وفي غيرهما . حيث رواه في فضائل القرآن ، والأدب ، واستتابة المرتدين ، في أبواب عدة فيها . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج ، رقم (١٤٣ ـ ١٤٦).

(٢) مسند أحمد (٣ : ٢٤٦) وفتح الباري (٨ : ٥٠) وأصل الحديث متفق عليه .

(٣) انظر فتح الباري (٨ : ٤٨) لمعرفة أسمائهم .

- **التشديد في ظلم المعاهد .**

ومن مظاهر الرحمة التي شملت الكفار : تشديده ﷺ في ظلم المعاهد الذي يؤدي الجزية ، ويقوم بواجبه ، ولا يخون العقد الذي وقعه .

فعن صفوان بن سُليم رحمه الله تعالى ، عن عدّة [وعند البيهقي : عن ثلاثين] من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ ، عن آبائهم دِنْيَةً ، عن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجُه يوم القيامة ». رواه أبو داود والبيهقي[1]. وفي الإسناد هؤلاء العدة ، وهم ثلاثون رجلاً من أبناء الصحابة ، فهم وإن كانوا غير معروفين ، لكن كثرتهم تغني عن جهالتهم ، لذا حسنه الزركشي والسخاوي والسيوطي والعجلوني والزرقاني ، قلت : وله شواهد متعددة ، تجبر الخلل ، والله تعالى أعلم[2].

- **الوفاء للمعاهد وعدم الغدر به .**

ومن مظاهر الرحمة التي شملت الكفار : وجوب الوفاء للمعاهدين ، وعدم جواز الغدر بهم ، ولا يجوز شن الحرب عليهم ، أو نقض الاتفاق معهم حتى تنتهي المدة ، اللهم إلا إذا غدر المعاهدون .

---

(١) سنن أبي داود : كتاب الخراج : باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ، رقم (٣٠٥٢) والسنن الكبرى (٩ : ٢٠٥).

(٢) انظر : التذكرة في الأحاديث المشتهرة (٣٣) وقال : إسناده لا بأس به ، ولا يضره جهالة من لم يسم من أبناء الصحابة ، فإنهم عدد كثير ، وقد رواه البيهقي ، وقال : وفيه عن ثلاثين من أبناء الصحابة.اهـ والمقاصد الحسنة (٣٩٢ رقم ١٠٤٤) وحسنه ، والدرر المنتثرة (٣٨١ ـ ٣٨٢) وذكر له شاهدين ، ومختصر المقاصد الحسنة (١٧٦) وكشف الخفاء (٢ : ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ٢٦١).

فعن سُلَيم بن عامر رحمه الله تعالى قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان [معاوية] يسير نحو بلادهم ، حتى إذا انقضى العهدُ غزاهم . فجاء رجلٌ على فرس ـ أو بِرذَون ـ وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر . فنظروا فإذا عَمْرو بن عَبَسة . فأرسل إليه معاوية ، فسأله فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدُّ عُقدةً ولا يَحُلُّها حتى ينقضي أمدُها ، أو يَنبِذ إليهم على سواء » فرجع معاوية . رواه أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي ، وصححه الترمذي وابن حبان[١].

قال يزيد بن هرون رحمه الله تعالى[٢]: لم يرد معاوية أن يُغير عليهم قبل انقضاء المدة ، ولكنه أراد أن تنقضي المدة وهو في بلادهم ، فيغير عليهم وهم غارّون ، فأنكر ذلك عَمْرُو بنُ عَبَسة ، إلا أن لا يدخل بلادَهم حتى يُعلمهم ويخبرهم أنه يريد غزوَهم.اهـ.

رضي الله تعالى عنهما وعن سائر الصحابة الكرام وأرضاهم ، لقد قام عَمْرو بواجب النصيحة ، وامتثل معاوية ما نُصح به ، والله تعالى أعلم .

---

(١) مسند أحمد (٤ : ١١١ ، ١١٣ ، ٣٨٥ ـ ٣٨٦) ومسند الطيالسي (١٥٧ رقم ١١٥٥) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٤٥٩) والأموال لأبي عُبيد (١٧٦رقم ٤٤٨) ولابن زنجويه (١ : ٤٠١ ـ ٤٠٢) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه ، رقم (٢٧٥٩) وسنن الترمذي : كتاب السير : باب ما جاء في الغدر ، رقم (١٥٨٠) والسنن الكبرى للنسائي (٥ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤) ومعجم الصحابة (٢ : ١٩٦) والمنتقى لابن الجارود (٣٥٧) وصحيح ابن حبان (١١: ٢١٥) والسنن الكبرى للبيهقي (٩: ٢٣١) وشعب الإيمان (٤ : ٨١) ونصب الراية (٣ : ٣٩١) حيث عزاه للطبراني .

(٢) الأموال لأبي عُبيد (٤٤٨) والأموال لابن زنجويه (١ : ٤٠٢).

ـ التشديد في قتل المعاهد ، مع بيان إثم القاتل :

لقد جاء التشديد من رسول الله ﷺ في قتل المعاهد ، وبيّن ﷺ عقوبة القاتل ، بما لم يحصل لكثير من الأمور ، لأن الغدرَ ليس من صفات المؤمنين الصادقين ، والمؤمن رؤوف رحيم ، يفي بما التزم ، لذا كانت عقوبة من قتل معاهداً أنه لن يرح رائحةَ الجنة ، ويحرم عليه دخولها مع أوائل من يدخلها ـ شريطة أن يكون القتلُ بغير حق ، إنما هو مجرد الاعتداء ، أما إذا كان بحكم شرعي فلا دخل في ذلك ، لأن حكمه حكم غيره .

فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « من قتل معاهِداً لم يَرح رائحةَ الجنة ، وإن ريحَها توجد من مسيرة أربعين عاماً ». رواه البخاري(١).

وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل معاهداً في غير كنهه [بغير حقها] حرَّم الله عليه الجنة ». رواه أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والدارمي وابن الجارود وأبو داود والنسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم ، وأقره الذهبي(٢).

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجزية والموادعة : باب إثم من قتل معاهداً بغير جُرم ، وفي غيرهما .

(٢) مسند أحمد (٥ : ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) ومصنف عبد الرزاق (١٠ : ١٠٢) ومصنف ابن أبي شيبة (٩ : ٤٢٥ ـ ٤٢٦) ومسند الطيالسي (١١٨ رقم ٨٧٩) والمنتقى لابن الجارود (٣٨٥ رقم ١٠٧٠) وسنن الدارمي (٢ : ١٥٣ رقم ٢٥٠٧) والتاريخ الكبير (١ : ٤٢٨) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته ، رقم (٢٧٦٠) وسنن النسائي : كتاب القسامة : باب تعظيم قتل المعاهد (٨ : ٢٤ ، ٢٥) والسنن الكبرى له (٤ : ٢٢١) (٥ : ٢٢٦) وصحيح ابن حبان (١١ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ـ ٢٤١) (١٦ : =

فما أشد هذه العقوبة؟ وهل يوجد عند أدعياء الحضارة والتقدم والحرية عُشرُ ذلك ؟ هيهات . إنما هو الرحمة المهداة ﷺ الذي جعله الله تعالى كذلك .

والسبب في ذلك ؛ لأنه أخفر ذمةَ الله تعالى وذمةَ رسوله الكريم ﷺ .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « ألا من قتل نفساً معاهداً له ذمّة الله وذمةُ رسوله ؛ فقد أخفر ذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً ». رواه الترمذي والحاكم وصححاه ، وابن ماجه[1].

لأن الغدرَ ليس من صفات المؤمنين ، ومن فعل ذلك فقد خالف أمرَ رسول الله ﷺ .

فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة : أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال : « اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تَمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ،... » الحديث بطوله ، رواه مسلم[2]. وقد مر أوله قبل قليل .

= ٣٩١ ، ٣٩٢) والمستدرك (١ : ٤٤) (٢ : ١٤٢) والسنن الكبرى للبيهقي (٨ : ١٣٣) (٩ : ٢٠٥ ، ٢٣١) والمعجم الأوسط (١ : ١٣٧) والمهذب في اختصار السنن الكبير للذهبي (٧ : ٣٧٧١) وقال : صالح الإسناد .

(١) سنن الترمذي : كتاب الديات : باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة ، رقم (١٤٠٣) وسنن ابن ماجه : كتاب الديات : باب من قتل معاهداً ، رقم (٢٦٨٧) والمستدرك (٢ : ١٢٧) وانظر فتح الباري (١٢ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠) لبيان وجود روايات بنحوه عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم =

ـ نهيه ﷺ عن قتل الذمي .

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة التي شملت الكفار : أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الذِّمّي ، بأي صورة كان عهده ، ما دام قائماً بحق العهد والذِّمَّة ، ولم ينقضه بأي صورة من صور النقض ـ كما سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى .

فعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً من أهل الذِّمّة لم يجد ريحَ الجنة . وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » . رواه أحمد والنسائي والبيهقي بإسناد صحيح ، والحاكم وصححه وأقره الذهبي[1] .

وعن القاسم بن مُخَيْمِرَة رحمه الله تعالى ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل رجلاً من أهل الذِّمَّة ؛ لم يجد ريحَ الجنة ، وإن ريحَها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً » . رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح[2] .

وقد التزم الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم الوصية بأهل الذمة والمعاهدين .

ففي وصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند وفاته

= بآداب الغزو ، رقم (٣ ـ ٥) .

(١) مسند أحمد (٢ : ١٨٦) وسنن النسائي : كتاب القسامة : باب تعظيم قتل المعاهد (٨ : ٢٥) والسنن الكبرى له (٤ : ٢٢١) (٥ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦) والمستدرك (٢ : ١٢٦ ـ ١٢٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٢٠٥) .

(٢) مسند أحمد (٤ : ٢٣٧) (٥ : ٣٦٩) وسنن النسائي : في الكتاب والباب السابقين (٨ : ٢٥) والسنن الكبرى له (٤ : ٢٢١) .

عندما غدر به أبو لؤلؤة المجوسي ، وقيل له أوص يا أمير المؤمنين ، قال : أُوصي الخليفةَ من بعدي بالمهاجرين الأولين ،... وأوصيه بالأنصار خيراً ،... وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ،... وأوصيه بالأعراب خيراً ،... وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ ، أن يُوفى لهم بعهدهم ، وأن يُقاتَل من ورائهم ، ولا يُكلَّفوا إلا طاقتهم . رواه البخاري[1].

فقد شمل جميع فئات الشعب ، ثم أين هذه الوصية بالنسبة للذمة مما يتشدق به أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ في هذا الزمان !!!

ـ لا يُحمّل الذِّمِّيُّ فوق طاقته .

إذا كان النبي المصطفى الكريم ﷺ لم يرض أن يُحَمَّلَ العبدُ المملوكُ فوق طاقته ـ وهو عبدٌ مملوك ـ ومن حمَّله فوق طاقته لزمه أن يعينَه ، فكيف بالذِّمِّيِّ أو المعاهد ـ وهو حرٌّ ؟ ـ فمن باب أولى ، لا يجوز تكليفه فوق طاقته .

لقد نبه النبي المصطفى الكريم ﷺ إلى الرفق بالذِّمِّيِّ ـ عمليّاً ـ عند فرض الجزية عليه ، حيث أوجبها بالمال ، فإن عجز فالثياب . كما سيأتي

فعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال : بعثه النبيُّ ﷺ إلى اليمن ، فأمره أن يأخذَ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعةً ، ومن كل أربعين مُسنَّةً ، ومن كلِّ حالمٍ ديناراً أو عدلَه معافِرَ . رواه عبد الرزاق وأحمد والأربعة وابن الجارود والدارمي في آخرين ، وحسنه الترمذي ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن عبد البر وابن حزم ، وأقره الذهبي ، وقواه ابن القيم[2].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة : باب قصة البيعة ، والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وفيه مقتل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

(٢) مصنف عبد الرزاق (٤ : ٢١ ـ ٢٢) ومسند أحمد (٥ : ٢٣٠، ٢٣٣ ، ٢٤٧) وسنن =

فقد خفف ﷺ على الذي لا يجد الدنانير فليدفع الثياب .

فإذا لم يجد الذِّمِّيُّ ما يدفعه في الجزية أو الخراج ـ لفقره أو مرضه أو كبره أو عوزه ـ فلا يجوز تعذيبه ، ومن عذّبه فله عذاب شديد .

فعن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى قال : مر هشام بنُ حكيم بنِ حزام على أناس من الأنباط بالشام ، قد أقيموا بالشمس ، فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حُبسوا في الجزية ، فقال هشام : أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذِّبُ الذين يعذِّبون الناسَ في الدنيا ».

وفي رواية ، أن هشام بن حكيم وجد رجلاً وهو على حمص يُشمِّس ناساً من النبط في أداء الجزية ، فقال : ما هذا ؟ ثم ذكر الحديث .

وفي أخرى : يعذَّبون في الخراج . فذكر الحديث .

وفي رواية أخرى ، أن الأمير يومئذ : عُمَير بن سعد على فلسطين ،

= الدارمي (١: ٣٢٠، ٣٢١ولم يذكر آخره) وسنن أبي داود : كتاب الزكاة : باب في زكاة السائمة ، وكتاب الخراج : باب في أخذ الجزية ، رقم (١٥٧٦ ـ ١٥٧٨، ٣٠٣٨ ، ٣٠٣٩) وسنن الترمذي : كتاب الزكاة : باب ما جاء في زكاة البقر ، رقم (٦٢٣) وسنن النسائي : كتاب الزكاة : باب زكاة البقر (٥ : ٢٥ ـ ٢٦ ، ٢٦) والسنن الكبرى له (٢: ١١ـ ١٢ من طرق) وسنن ابن ماجه : كتاب الزكاة : باب صدقة البقر ، رقم (١٨٠٣ولم يذكر آخره) والخراج لأبي يوسف (١٢٨) وليحيى بن آدم (٦٨رقم ٢٢٨) والمنتقى لابن الجارود (١٢٧ رقم٣٤٣ ولم يذكر آخره) والأموال لابن زنجويه (رقم ١٠٥، ١٤٥٤) وصحيح ابن خزيمة (٤: ١٩)وصحيح ابن حبان (١١: ٢٤٤ـ ٢٤٥) والمستدرك (١: ٣٩٨) وسنن الدارقطني (٢ : ١٠٢) والمعجم الكبير (٢٠ : ١٢٨ ـ ١٣٠ من طرق) والبحر الزخار (٧ : ٩٦) ومسند الشاشي (٣: ٢٤٩ ـ٢٥٠) وشرح السنة (٦: ١) والسنن الكبرى للبيهقي (٤: ٩٨) (٩: ١٨٧،١٩٣) والمحلى (٦ : ١٦) والتمهيد (٢ : ٢٧٥) وأحكام أهل الذمة (١: ١٢٩).

فدخل عليه، فحدَّثه، فأمر بهم فخُلُّوا. رواها كلَّها مسلم[1].

وعن عروة رحمه الله تعالى، أن هشام بن حكيم بن حزام وجد عياض ابن غنم ـ وهو على حمص ـ شمَّس ناساً من النبط في أخذ الجزية، فقال هشام بنُ حكيم: ما هذا يا عياض؟ إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يعذِّب الذين يعذِّبون الناسَ في الدنيا ». رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه ابن حبان[2].

فيكون هشام رضي الله تعالى عنه قد وقعت له هذه الحادثة مرتين؛ مرة مع عُمير في فلسطين، ومرة مع عياض في حمص، والله تعالى أعلم.

وقد التزم الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم بهذا المنهج، وأذكر بعض النماذج، مما ورد عن بعض الخلفاء على حسب المختصر.

عن جُبير بن نُفير، أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ أُتي بمال كثير ـ قال أبو عُبيد: أحسب قال: من الجزية ـ فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس. قالوا: لا، والله، ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوطٍ ولا نوطٍ؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يديَّ، ولا في سلطاني. رواه أبو عبيد[3].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر: باب الوعيد الشديد لمن عذّب الناسَ بغير حق، رقم (١١٧-١١٩).

(٢) مسند أحمد (٣ : ٤٠٤) وسنن أبي داود: كتاب الخراج: باب في التشديد في جباية الجزية، رقم (٣٠٤٥) والسنن الكبرى (٥: ٢٣٦ولم يذكر عياضاً) وصحيح ابن حبان (١٢ : ٤٢٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٢٠٥) وانظر مسند أحمد (٣ : ٤٠٣) والمستدرك (٣ : ٢٩٠) والمعجم الكبير (١٧ : ٣٦٧) ومجمع الزوائد (٥ : ٢٢٩، ٢٣٠) والأموال لأبي عبيد (٤٨ رقم ١١٣) والسنة (٢ : ٧٣٧، ٧٣٨) والآحاد والمثاني (٢ : ١٥٤).

(٣) الأموال (٤٨ رقم ١١٤).

وعن عنترة بن عبد الرحمن قال : كان عليٌّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ يأخذ الجزيةَ من كل ذي صَنَع ، من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسانِّ مسانَّ ، ومن صاحب الحبال حبالاً ، ثم يدعو العرفاء ، فيعطيهم الذهبَ والفضةَ ، فيقتسمونه ، ثم يقول : خذوا هذا فاقتسموه . فيقولون : لا حاجة لنا فيه . فيقول : أخذتم خيارَه ، وتركتم عليَّ شرارَه ، لتحملنَّه . رواه أبو عبيد[1].

قال أبو عُبيد رحمه الله تعالى[2]: وإنما يوجد هذا من عليٍّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه إنما كان يأخذ منهم هذه الأمتعة بقيمتها من الدراهم التي عليهم من جزية رؤوسهم ، ولا يحملهم على بيعها ، ثم يأخذ ذلك من الثمن ، إرادةَ الرفق بهم ، والتخفيف عليهم .

وهذا مثل حديث معاذ حين قال باليمن : ائتوني بخَميسٍ أو لَبيسٍ آخذه منكم مكان الصدقة ، فإنه أهون عليكم ، وأنفع للمهاجرين بالمدينة ، وكذلك فعل عمر رحمه الله تعالى حين كان يأخذ الإبلَ في الجزية ،...

قال أبو عُبيد : وفي سُنَّة رسول الله ﷺ حين كتب إلى أهل اليمن : « أن على كل حالمٍ ديناراً ، أو عدله من المعافر ». تقويةٌ لفعل عمر وعليّ ومعاذ .

قال أبو عُبيد : ألا تراه قد أخذ منهم الثياب ـ وهي المعافر ـ مكان الدنانير ، وإنما يراد بهذا كله الرفق بأهل الذِّمَّةِ ، وأن لا يُباع عليهم من متاعهم شيءٌ ، ولكن يؤخذ مما سهل عليهم بالقيمة.اهـ.

وكتب عُمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة رحمهما الله تعالى : أما

(١) الأموال (٤٩ رقم ١١٧).

(٢) الأموال (٤٩ ـ ٥٠).

بعد ، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تُؤخذَ الجزيةُ ممن رغب عن الإسلام ، واختار الكفرَ عِتِيّاً ، وخسراناً مبيناً ، فضع الجزيةَ على من أطاق حملها ، وخلِّ بينهم وبين عمارة الأرض ، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين ، وقوةً على عدوهم ،

وانظر مَن قِبَلك من أهل الذمة قد كبرت سنُّه ، وضعفت قوتُه ، وولت عنه المكاسبُ ، فأَجْر عليه من بيت مال المسلمين ما يُصلحه ، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ؛ كان من الحق عليه أن يَقوتَه ، حتى يفرق بينهما موت أو عتق .

وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ مر بشيخ من أهل الذمة ؛ يسأل على أبواب الناس ، فقال : ما أنصفناك ، أن كنا أخذنا منك الجزيةَ في شبيبتك ، ثم ضيعناك في كبرك . قال : ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.اهـ من الأموال[1].

فليتأمل أعداء الإسلام عدالةَ الإسلام ورحمتَه بأعدائه، لـمّا تقدمت بهم السن لم يرضوا أن يُسقطوا عنهم الجزية فحسب ، بل أغنوهم من بيت مال المسلمين .

وهناك قصص كثيرة ذكرها من كتب في المال والخراج ، اكتفيتُ بما ذكرتُه فلعل فيه المقنع لمن أراد الله تعالى هدايته ، والله تعالى أعلم .

ـ النهي عن قتل النساء والصبيان من الكفار .

ومن مظاهر الرحمة المهداة التي شملت الكفار : أن رسول الله ﷺ نهى

(١) الأموال (٥٠ ـ ٥١) وانظر الخراج لأبي يوسف (١٢٦) والأموال لابن زنجويه (١: ١٦٢ ـ ١٦٣) ونصب الراية (٣ : ٤٥٣).

عن قتل النساء والصبيان من الكفار ، حتى في أثناء الحرب . وقد كان قتلهم في أول الإسلام جائزاً، امتداداً لما كان عليه الحال في الجاهلية ، ثم نهى عنه رسول الله ﷺ .

فعن الصَّعْب بن جَثّامة رضي الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله ﷺعن أهل الدار يُبَيَّتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم قال : « هم منهم ». متفق عليه[1].

زاد أبو داود : قال الزهري : ثم نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن قتل النساء والولدان . رواه أبو داود[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : وُجدت امرأةٌ مقتولةٌ في بعض مغازي رسول الله ﷺ ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان . متفق عليه[3].

وعن ابن كعب بن مالك عن عمه ، أن النبي ﷺ لما بعثه إلى ابن أبي الحُقَيق نهى عن قتل النساء والولدان . رواه الشافعي وعبد الرزاق والطيالسي ومسدّد وابن أبي شيبة وأحمد بن منيع وإسحٰق وسعيد بن منصور وأحمد بن حنبل[4].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب أهل الدار يبيتون ، فيصاب الولدان والذراري . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد ، رقم (٢٦ ـ ٢٨).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في قتل النساء ، رقم (٢٦٧٢) ومجمع الزوائد (٥ : ٣١٥).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب قتل النساء في الحرب ، وفي غيرهما . صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب ، رقم (٢٤ ، ٢٥).

(٤) الأم (٤ : ١٥٦) والرسالة (٢٩٨) والسنن (رقم ٦٥٢) والمسند (٢٣٨ ، ٣١٤) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ٢٠٢) ومسند الطيالسي (رقم ١٠٣٢ من الطبعة الجديدة لسقط =

وعن عطية القرظي رضي الله تعالى عنه قال : كنت فيمن حكم فيهم سعد بنُ معاذ ، فشكّوا فيَّ ؛ أمِن الذُّرِّيَّة أنا أمْ من المقاتِلة ؟ فنظروا إلى عانتي فلم يجدوها نبتت . فأُلقيت في الذُّرِّيَّة ، ولم أُقتل . رواه أحمد وعبد الرزاق والشافعي والطيالسي والحميدي وابن أبي شيبة وابن الجارود والأربعة ، وصححه الترمذي وابن حبان(1).

وعن الأسود بن سريع رضي الله تعالى عنه قال : غزوتُ مع رسول الله ﷺ ، ففتح الله لهم ، فتناول بعضُ الناس قتْلَ الولدان ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ

= مسند كعب من القديمة) ومسند الحميدي (٢ : ٣٨٥ ـ ٣٨٦) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨١ ـ ٣٨٢) وسنن سعيد بن منصور (٢ : ٢٥٧) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢٢١) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ :٧٧ ، ٧٨) ومعرفة السنن والآثار (١٣ : ٢٢٥) والمطالب العالية (٢ : ٣١١) وإتحاف الخيرة المهرة (٦ : ٣٧٦ ـ ٣٧٧) ومجمع الزوائد (٥ : ٣١٥) وفتح الباري (٦ : ١٤٧) وانظر الإصابة (٣ : ٢٠٥) وانظر تعليقي على هذا الحديث في السنن للإمام الشافعي رحمه الله تعالى .

(١) السنن (رقم ٦٥٣) ومصنف عبد الرزاق (١٠ : ١٧٩) ومسند الحميدي (٢ : ٣٩٤) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٥٣٩ ـ ٥٤٠) ومسند أحمد (٤ : ٣١٠ ، ٣٨٣) (٥ : ٣١١ ـ ٣١٢ ، ٣١٢) ومسند الطيالسي (١٨١ رقم ١٢٨٤) والطبقات الكبرى (٢ : ٧٦ ـ ٧٧) وسنن أبي داود : كتاب الحدود : باب في الغلام يصيب الحد ، رقم (٤٤٠٤ ، ٤٤٠٥) وسنن الترمذي : كتاب السير : باب ما جاء في النزول على الحكم ، رقم (١٥٨٤) وسنن النسائي : كتاب الطلاق : باب متى يقع طلاق الصبي ، وكتاب قطع السارق : باب حد البلوغ ،... (٦ : ١٥٥) (٨ : ٩٢) والسنن الكبرى له (٥ : ١٨٥) والمنتقى لابن الجارود (٣٤٨ ـ ٣٤٩) والمعجم الكبير (١٧ :١٦٣ ـ ١٦٥ من طرق) والمستدرك (٢ : ١٢٣) (٤ : ٣٨٩ ، ٣٩٠) وصحيح ابن حبان (١١ : ١٠٣ ـ ١٠٥ ، ١٠٩ من طرق) والسيرة النبوية لابن هشام (٣ : ٣٣٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٦ : ٥٨) (٩ : ٦٣).

فقال : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتلُ حتى قتلوا الذُّرِّيَّةَ » فقال رجل : يا رسول الله ؛ إنما هم أبناءُ المشركين ؟ فقال : « ألا إن خيارَكم أبناءُ المشركين . ألا لا تُقتل الذُّرِّيَّة . كلُّ نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعربَ عنها لسانُها ، فأبواها يهوِّدانها وينصِّرانها ». رواه مسدّد وأحمد والدارمي وابن أبي شيبة والنسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم وابن عبد البر ، وأقره الذهبي[1].

وعن رباح بن الربيع رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ، وعلى مقدمة الناس خالدُ بنُ الوليد ، فإذا امرأة مقتولة على الطريق ، فجعلوا يتعجّبون من خَلقها ، قد أصابتها المقدِّمة . فأتى رسولُ الله ﷺ فوقف عليها ، فقال : « هاه ، ما كانت هذه تقاتل . ثم قال : أدرك خالداً ؛ فلا تقتلوا ذرِّيَةً ولا عسيفاً » وفي رواية « قل لخالد لا يقتلن امرأةً ولا عسيفاً ». رواه أحمد وسعيد بن منصور وعبد الرزاق وأبو داود والنسائي وابن ماجه والطحاوي والطبراني والبيهقي ، وصححه ابن حبان[2].

(١) مسند أحمد (٣ : ٤٣٥) (٤ : ٢٤) ومصنف عبد الرزاق (١١ : ١٢٢) ومسند الدارمي (٢ : ١٤١) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨٦) والسنن الكبرى للنسائي : كتاب السير : باب النهي عن قتل ذراري المشركين (٥ : ١٨٤) والمستدرك (٢ : ١٢٣) وصحيح ابن حبان (١ : ٣٤١) والمعجم الكبير (١: ٢٥٩ ـ ٢٦٢ من طرق) والمعجم الأوسط (٢ : ٢٨٠) وشرح مشكل الآثار (٤ :١٣ ، ١٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٧٧ ، ١٣٠) ومعرفة السنن والآثار (١٣ : ٢٢٧) ومجمع الزوائد (٥ : ٣١٦) وإتحاف الخيرة المهرة (٦ : ٣٧٧ ـ ٣٧٨) وإتحاف المهرة (١ : ٣٦٧).

(٢) سنن أبي داود : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٢٦٦٩) والسنن الكبرى للنسائي : كتاب السير : باب قتل العسيف (٥ : ١٨٦ ، ١٨٦ ـ ١٨٧) وسنن ابن ماجه : كتاب الجهاد : باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان ، رقم (٢٨٤٢) وسنن سعيد (٢ : ٢٥٦) ومسند =

ورواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والنسائي والطحاوي وابن حبان من حديث حنظلة الكاتب رضي الله تعالى عنه[1].

وقد ورد نحو ذلك عن عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

وعن يزيد بن هرمز رحمه الله تعالى قال : كتب نجدةُ بن عامر الحروريُّ إلى ابن عباس يسأله عن العبد والمرأة يحضران المغنم ، هل يُقسَم لهما ؟ وعن قتل الولدان ؟ وعن اليتيم متى ينقطعُ عنه اليُتمُ ؟ وعن ذوي القربى من هم ؟ فقال ليزيد : اكتب إليه . فلولا أن يقع في أحموقة ما كتبتُ إليه ... اكتب : وكتبتَ تسألني عن قتل الولدان [وفي رواية هل كان رسول الله ﷺ يقتل من صبيان المشركين أحداً] وإن رسول الله ﷺ لم يقتلهم . وأنت فلا تقتلهم . إلا أن تعلمَ منهم ما علم صاحبُ موسى من الغلام الذي قتله ،... الحديث بطوله ، رواه مسلم[2].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً ، يطول ذكرها ، وما ذكرته كاف في الدلالة لمن يريد الحق ، ويسعى إليه .

= أحمد (٣ : ٣٨٨ ، ٤٨٨) (٤ : ١٧٨ ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ٣٤٦) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢٢١ ، ٢٢٢) والمعجم الكبير (٥ : ٦٩ ـ ٧١ من طرق) وصحيح ابن حبان (١١ : ١١٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٨٢ ، ٩١).

(١) مصنف عبد الرزاق (٥ : ٢٠١) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨٢) ومسند أحمد (٤ : ١٧٨ ، ٣٤٦) والسنن الكبرى للنسائي (٥ : ١٨٧) وسنن ابن ماجه : في الكتاب الباب السابقين ، رقم (٢٨٤٢) وسنن سعيد بن منصور (٢ : ٢٥٦) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢٢٢) وكتاب الأموال لأبي عبيد (٣٨) والمعجم الكبير (٤ : ١٢) وصحيح ابن حبان (١١ : ١١٢) وانظر فتح الباري (٦ : ١٤٨).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم ، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب ، رقم (١٣٧ ـ ١٤١).

وهكذا فعل الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعد رسول الله ﷺ ، حيث كان الخلفاء يوصون القادة والجيوش ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة ولا متعبِّداً في صومعة ،...إلخ وأقتصر على وصيتين للخليفتين الراشدين الكريمين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وهما يوصيان الولاة والجيوش .

فقد كان خليفةُ رسول الله ﷺ أبو بكر الصِّدّيقُ رضي الله تعالى عنه يوصي قوّادَ جيوشه ـ فيما يوصيهم ـ ألا يقتلوا امرأةً ولا صبيّاً ،...

فعندما بعث الجيوشَ إلى الشام ، وخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ويزيد راكب وأبو بكر ماش ـ وقال يزيد لأبي بكر رضي الله تعالى عنه : إما أن تركب ، وإما أن أنزل . فقال أبو بكر : ما أنت بنازل ، وما أنا براكب . إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله .

ثم قال له : إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له ،... وإني موصيك بعشرٍ : لا تقتلن امرأةً ولا صبيّاً ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ، ولا تخرِّبنَّ عامراً ، ولا تعقرَنَّ شاةً ، ولا بعيراً ، إلا لمأكَلَةٍ ، ولا تحرقنَّ نحلاً ، ولا تُفرقنَّه ، ولا تغلُل ، ولا تجبن[١].

وعن أسلم مولى عمر رحمه الله تعالى ، أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب إلى عمّاله ، ينهاهم عن قتل النساء والصبيان ،... رواه ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وأبو عبيد وابن حزم[٢].

---

(١) انظر الموطأ (٢ : ٤٤٧ ـ ٤٤٨) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ١٩٩ ـ ٢٠٠) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨٧) وسنن سعيد بن منصور (٢ : ١٥٧ ـ ١٥٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٨٥، ٨٩، ٩٠، ٩١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨٦) وسنن سعيد (٢ : ٢٥٨) والأموال (٣٦ ـ ٣٧) والمحلى =

رحم الله أبا بكر وعمر ورضي الله تعالى عنهما وأرضاهما وقد فعل ، فقد أعطيا الإنسانية درساً في أدب التعامل مع الآخرين . أين هذه الأخلاق وما تفعله إسرائيل ؛ في تدمير البيوت ، وتجريف الأراضي الزراعية ، وقلع الشجر المثمر ، وقتل الصغار قبل الكبار ، والنساء قبل الرجال ،... حتى لا يكثر نسل الفلسطينيين .

وأين ما تفعله الدول النصرانية في تدمير البيوت وقتل الصغار والكبار والشيوخ والنساء والحيوانات وإفساد الماء والتربة ... بقنابلهم وصواريخهم وطائراتهم ودباباتهم في بلاد المسلمين .

وبناء على ما مر فقد اتفق الجميع ـ كما قال ابن بطال وغيره رحمهم الله تعالى ـ على منع القصد إلى قتل النساء والصبيان . لكن اختلفوا فيما إذا باشرت المرأة القتال .

ـ فذهب الجمهور إلى أنها إذا باشرت المرأة القتال جاز قتلها ، أما إذا لم تباشر القتال لم يجز قتلها .

ـ وذهب الإمامان مالك والأوزاعي رحمهما الله تعالى إلى عدم قتلها ـ وكذا الصبيان ـ بحال ، حتى لو تترس أهلُ الحرب بهم ، أو تحصنوا بحصن أو سفينة وجعلوا معهم النساء والصبيان لم يجز رميُهم ولا تحريقُهم ، والله تعالى أعلم[1].

ـ إجارته ﷺ للمشرك حتى يبلغ مأمنه :

لقد طلب الله تعالى من نبيّه المصطفى الكريم ﷺ إذا استجاره مشرك

= (٧ : ٣٤٨).

(١) انظر فتح الباري (٦ : ١٤٧ ـ ١٤٨).

من المشركين ؛ فليُجِره ، وليُسمعه كلامَ الله تعالى ، ويَذكر له أمورَ الدين ، ثم يُبلغه مأمنَه بعد ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

والمشرك لا يُغفر له ، وهو مخلَّدٌ في النار ، ومع هذا لم يقتله ، بل يجيره ، ويُسمعه كلامَ الله تعالى ، ثم يُبلغه مأمنَه ؛ في دياره أو بلده أو دولته ، بل يُمكِّنه من البقاء في بلاد المسلمين لفترة محددة ، وهذا ما كان يفعله ﷺ مع الرسل الذين يأتونه وفوداً ، فلو كان ﷺ متعطشاً ـ حاشاه ـ لقتلِ الكفار ما أبقاهم على قيد الحياة ، أما ترى سؤاله ﷺ لوفد مسيلمة الكذاب ، وقد جهروا بنبوة مسيلمة ، ومع هذا لم يقتلهم ﷺ ، بل أعادهم إلى بلادهم .

وهذا ما فعله أولياء أمور المسلمين بعد ذلك على مر التاريخ ، فكم أجاروا من المشركين والكفار ، وأسكنوهم في ديار المسلمين ،...

كما فعل في العصور المتأخرة السلطان سليمان القانوني غفر الله له مع يهود الأندلس وأوربا وروسيا ، يوم اضطهادهم ، حيث استضافهم في بلاد المسلمين ، وأسكنهم مناطق الدونما وغيرها ، بناء على طلب زوجته اليهودية الروسية الأصل[2] فانقلبوا على المسلمين ، ولم يُكرموا اليدَ التي أنقذتهم ، والقلوبَ التي آوتهم ، والصدورَ التي انشرحت لهم ، بل كانوا السبب في زوال الخلافة الإسلامية بعد ذلك ، وإدخال النفوذ اليهودي في

---

(١) سورة التوبة (٦).

(٢) انظر : الدولة العثمانية ، عوامل النهوض والسقوط ، للدكتور علي محمد الصلابي (٤٧٤ ـ ٤٧٥) وتاريخ الدولة العثمانية ، للدكتور علي حسون (٢٤١).

بلاد الخلافة إلى يومنا .

وفعله الشيخ الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في بلاد الشام ، من حمايته لنصارى لبنان [المارونيين] من المذبحة التي كادت تحيط بهم ، مع أنهم ليسوا من العرب ، وهم من بقايا الصليبيين ، كل ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى ، وتطبيقاً لسنة رسول الله ﷺ . ورحمة بعباد الله تعالى ، لأن المؤمن رحيم كرسوله ﷺ .

ـ قبوله ﷺ إجارة المسلم للكافر .

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة : قبولُه ﷺ إجارة أي مسلم ـ حتى لو كان امرأة أو عبداً ـ لأي مشرك ، مع أن المرأة لم يكن لها وجود في الجاهلية ، فقد كانت ممتهنة ، تُوأد وتُدفن وهي حية ، ولا تُورث ، ولا رأي لها ولا وجود ، فهي كمتاع البيت ، ومع هذا فإن رسول الله ﷺ يَقبل إجارتها للكافر، ويحقن دمَه بإجارتها، ويقرِّر حكماً عاماً « يجير على المسلمين أدناهم » وَ « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » بأن أمانَ المسلم ـ ولو كان من أدنى المسلمين مرتبة ـ للكافر صحيح ، ويحرم على المسلمين خفرُ ذمته ما دام في أمان المسلم . وأقتصر على ذكر بعض النصوص .

فعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « المدينة حرَمٌ ما بين عَيرٍ إلى ثَورٍ ،... وذمةُ المسلمين واحدةٌ يسعى بها أدناهم ».

زاد في رواية « فمن أخفر مسلماً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبلُ منه يومَ القيامة صرفٌ ولا عدل ». متفق عليه[1].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب فضائل المدينة : باب حرم المدينة ، وفي غيرهما. وصحيح مسلم : كتاب الحج : باب فضل المدينة ، رقم (٤٦٧ ، ٤٦٨).

ورواه مسلم[1] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيّ ﷺ قال : « يُجير على المسلمين أدناهم ». رواه أحمد والحاكم والبيهقي، وذكره الترمذي بنحوه وحسنه ، ونقل تصحيح البخاري له[2].

وقد ورد نحوه عن عدد كبير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لما بعث أهلُ مكة في فداء أسراهم ، بعثت زينبُ ابنة رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال ، وبعثت فيه قلادة كانت خديجةُ أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها ،... ولم يزل أبو العاص مقيماً على شركه حتى إذا كان قُبيل فتح مكة ؛ خرج بتجارة إلى الشام ، بأموال من أموال قريش ؛ أبضعوها معه ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل قافلاً لقيتْه سرِّيةٌ لرسول الله ﷺ[3]... فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال ، وأسروا أناساً من العير ، فأعجزهم أبو العاص هرباً ، فلما قدمت السريةُ بما أصابوا أقبل أبو العاص من الليل في طلب ماله ، حتى دخل على زينب ابنة رسول الله ﷺ ، فاستجار بها ، فأجارته ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح ، فكبَّر وكبَّر الناس معه ... صرخت زينبُ رضي الله

---

(١) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٤٦٩ ، ٤٧٠) وأصل الحديث موجود في صحيح البخاري أيضاً .

(٢) مسند أحمد (٢ : ٢٦٥) وسنن الترمذي : كتاب الجهاد : باب في أمان المرأة ، رقم (١٥٧٩) والمستدرك (٢ : ١٤١) والسنن الكبرى (٩ : ٩٤).

(٣) قيل : كان رسول الله ﷺ هو الذي وجَّه السرية للعير التي فيها أبو العاص ، وكانوا سبعين ومائة راكب ، أميرهم زيد بن حارثة ، وذلك في جمادى الأولى ، في سنة ست من الهجرة.اهـ من المستدرك وغيره .

تعالى عنها : أيها الناس إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع .

قال : فلما سلَّم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ؛ هل سمعتم ما سمعتُ ؟ » قالوا : نعم . قال : « أما والذي نفس محمد بيده ما علمتُ بشيء كان حتى سمعتُ منه ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم » ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فدخل على ابنته زينب فقال : « أي بُنيَّة أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلّين له »...

ثم ذكر إعادة المسلمين جميع المال له ، وذهابه إلى مكة ، وإعادته المال لأصحابه ،... ثم قال : يا معشر قريش ؛ هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفيّاً كريماً .

قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله ، وما منعني من الإسلام عنده [أي عند رسول الله ﷺ] إلا تخوُّفاً أن تظنّوا أني إنما أردتُ أخذ أموالكم . فلما أدّاها الله عز وجل إليكم ، وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ . رواه الحاكم ومن طريقه البيهقي ، بأسانيد صحيحة ، ورواه البيهقي والطبراني من طريق أم سلمة بإسناد حسن ، ورواه البيهقي من طريق عبد الله البهي عن زينب ، وقوّى الحافظ إسناده ، ورواه ابن إسحٰق وعبد الرزاق من طرق أخرى مرسلة[1]

---

(١) المستدرك (٣ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٩٥ ، ٩٥ ـ ٩٦) والسيرة النبوية لابن هشام (٢ : ٣٦٥ ـ ٣٦٦) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ٢٢٤ ـ ٢٢٥ من طرق) والمعجم الكبير (٢٢ : ٤٢٥ ـ ٤٣١) والأوسط (٥ : ١١٠ ـ ١١١) ومجمع الزوائد (٥ : ٣٢٩ ـ ٣٣٠) (٩ : ٢١٣ وما بعد) ومجمع البحرين (٥ : ٧٤ ـ ٧٥) والطبقات الكبرى (٨ : ٣٣) والاستيعاب (٤ : ٢٦٤ ـ ٢٦٥) وأسد الغابة (٥ : ١٨٥ ـ ١٨٦) والإصابة (٧ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

فالحديث صحيح ، والله تعالى أعلم .

وعن أم هانئ رضي الله تعالى عنها قالت : ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فوجدتُه يغتسل ، وفاطمة ابنتُه تستره بثوب ، قالت : فسلَّمتُ . فقال : « من هذه ؟ » قلت : أمُّ هانئ بنتُ أبي طالب . قال : « مرحباً بأمِّ هانئ » فلما فرغ من غُسله قام فصلّى ثماني ركعات ، ملتحفاً في ثوب واحد . فلما انصرف قلتُ : يا رسول الله ﷺ ؛ زعم ابنُ أمي عليُّ بنُ أبي طالب أنه قاتلٌ رجلاً قد أجرته ؛ فلان بن هُبيرة . فقال رسول الله ﷺ : « قد أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانئ » وذلك ضحى . متفق عليه[1].

وإجارة عثمان رضي الله تعالى عنه لعبد الله بن سعد بن أبي سرح في مكة وقبول رسول الله ﷺ لها مشهورة .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان عبد الله بن سعد ابن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ ، فأزله الشيطان ، فلحق بالكفار ، فأمر رسول الله ﷺ أن يُقتل يومَ الفتح ، فاستجار له عثمان بنُ عفان ، فأجاره رسول الله ﷺ . رواه أبو داود والنسائي ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي[2].

وهكذا فعل الخلفاء رحمهم الله تعالى من بعده ﷺ ، يقبلون إجارة العبد والمرأة والرجل ولو كان مسكيناً ، والله تعالى أعلم .

فعن فضيل بن زيد الرقاشي رحمه الله تعالى قال : حاصرنا حصناً على

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجزية : باب أمان النساء وجوارهن ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين : باب استحباب صلاة الضحى ،... رقم (٨٢).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الحدود : باب الحكم فيمن ارتد ، رقم (٤٣٥٨) وسنن النسائي : كتاب تحريم الدم : باب توبة المرتد (٧ : ١٠٧) والمستدرك (٣ : ٤٥).

عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فرمى عبدٌ منا بسهم فيه أمان ، فخرجوا ، فقلنا : ما أخرجكم ؟ فقالوا : أَمَّنتُمونا . فقلنا : ما ذاك إلا عبدٌ ، ولا نجيز أمرَه . فقالوا : ما نعرف العبدَ منكم من الحر . فكتبنا إلى عمر رضي الله تعالى عنه نسأله عن ذلك . فكتب : إن العبد [المسلم] رجلٌ من المسلمين ، ذمتُه ذمَّتكم . رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وأبو عُبيد وابن زنجويه والبيهقي ، بإسناد صحيح(1).

وكل هذا دالٌّ على مدى اعتباره ﷺ للمسلم، وتكريمه له ، ورحمته به ، حتى لا يكسر خاطره ، وكذا الرحمة بهذا الكافر الذي أجاره ذلك المسلم .

ـ عدم قتله ﷺ للرسل الكفار :

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالخلق جميعاً ـ ومنهم الكفار ـ أنه لم يقتل الرسل من المشركين والكفار ؛ الذين يأتونه من قِبل ملوكهم أو أمرائهم ، حتى لو أعلنوا عداوتهم له ﷺ ، أو عدم الإيمان به ﷺ ، بل حتى لو صرَّحوا بنبوة مرسِلهم من الزعماء .

فعن نُعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ـ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب ، قال للرسولين : « فما تقولان أنتما ؟ » قالا : نقول كما قال . فقال رسول الله ﷺ : « والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربتُ أعناقكما ». رواه أحمد وأبو داود والطحاوي والحاكم

(١) مصنف عبد الرزاق (٥ : ٢٢٢) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٤٥٣ ـ ٤٥٤) وسنن سعيد (٢ : ٢٥٠) والخراج لأبي يوسف (٢٠٥) والأموال لأبي عُبيد (٢٠٠) ولابن زنجويه (٢ : ٤٤٤ ـ ٤٤٥) والسنن الكبرى (٩ : ٩٤) وانظر توثيق الفضل : الجرح والتعديل (٧ : ٧٢) والثقات لابن حبان (٥ : ٢٩٤) ونصب الراية (٣ : ٣٩٦).

وصححه وأقره الذهبي ، والبيهقي[1].

والرسولان هما : ابن أثال ، وابن النّواحة ـ الذي بقي على كفره ، ولم يتب منه ، فقتله عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه .

فعن حارثة بن مُضَرِّب رحمه الله تعالى ، أنه أتى عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ بالكوفة فقال : ما بيني وبين أَحَد من العرب حِنة ، وإني مررت بمسجدٍ لبني حنيفة ، فإذا هم يُؤْمنون بمُسيلمة ، فأرسل إليهم عبدُ الله ، فجيء بهم ، فاستتابهم ، غيرَ ابن النَّوّاحة . قال له : سمعت رسول الله ﷺ يقول لك : « لولا أنك رسولٌ لضربتُ عنقَك » فأنت اليوم لست برسول ، فأمر قرظةَ بنَ كعب ـ وكان أميراً على الكوفة ـ فضرب عنقه في السوق . ثم قال : من أراد أن ينظر إلى ابنِ النَّوّاحة ، فلينظر إليه قتيلاً بالسوق . رواه أحمد وأبو داود والنسائي والطيالسي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة ، وابن حبان والحاكم وصححاه ، والطحاوي والبيهقي[2] وقد رواه

---

(١) مسند أحمد (٣ : ٤٨٧ ـ ٤٨٨) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في الرسل ، رقم (٢٧٦١) وشرح مشكل الآثار (٧ : ٣٠١) والمستدرك (٣ : ٥٢ ـ ٥٣) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٢١١) ودلائل النبوة (٥ : ٣٣٢).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في الرسل ، رقم (٢٧٦٢) والسنن الكبرى للنسائي : كتاب السير : باب النهي عن قتل الرُّسل (٥ : ٢٠٥) ومصنف عبد الرزاق (١٠ : ١٦٩) ومسند الطيالسي (٣٤ رقم ٢٥١) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩) وسنن الدارمي (٢ : ١٥٣) ومسند أحمد (١ : ٣٨٤ ، ٣٩٠ ـ ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦) وشرح معاني الآثار (٣ : ٣١٧ـ٣١٨) وشرح مشكل الآثار (٧ : ٢٩٨ ـ ٣٠٠ من طرق) والمستدرك (٣ : ٥٣) وصحيح ابن حبان (١١: ٢٣٥ ، ٢٣٦) ومسند الشاشي (٢ : ١٨١ ـ ١٨٢ من طرق) ومسند أبي يعلى (٩ : ٣١ ، ١٤١ ، ١٦٠ ـ ١٦١ ، ١٧٠ ـ ١٧١) والبحر الزخار (٥ : ١٤٢) =

كثيرون بألفاظ مختلفة ، مطولاً ، ومنهم من اقتصر على المرفوع فقط ، كما يوجد في بعضها : إصرار ابن النّواحة على الكفر ، وفي بعضها يقرؤون ما قاله مسيلمة الكذاب ، وأنهم تابوا إلا ابن النّواحة .

وفي هذا دلالة على عدم قتله ﷺ للوفود الكافرة ، والمعلنة للعداوة . ولم يكن هذا موجوداً فيما مضى ، والله تعالى أعلم .

بل هناك ما هو أكبر ، حيث إنه ﷺ أعطى الرسل ، وأضافهم بأكثر مما أمّلوا ، كما في قصة التنوخي رسولِ هرقل .

فعن سعيد بن أبي راشد رحمه الله تعالى قال : لقيت التَّنوخيَّ رسولَ هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص ، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً ، قد بلغ الفَنَد أو قرُب ، فقلت : ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبيِّ ﷺ ، ورسالةِ رسول الله ﷺ إلى هرقل ؟ فقال : بلى .

قدم رسول الله ﷺ إلى تبوك ، فبعث دحيةَ الكلبي إلى هرقل ، فلما جاءه كتابُ رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ، ثم أغلق عليه وعليهم باباً ، فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ، وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال ،... وفيه : ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب ؛ كان على نصارى العرب ، فقال : ادع لي رجلاً حافظاً للحديث ، عربيَّ اللسان ، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاء بي ، فدفع إليَّ هرقل كتاباً ، فقال : اذهب بكتابي إلى هذا الرجل ، فما ضيّعتَ من حديثه فاحفظ لي منه ثلاثَ خصال : انظر هل يذكرُ صحيفته التي كتب إليَّ بشيء ؟ وانظر إذا قرأ كتابي

= وكشف الأستار (٢ : ٢٧١) والمعجم الكبير (٩ : ٢١٨ ـ ٢٢٠ من طرق) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٢١١ ، ٢١٢) ومجمع الزوائد (٥ : ٣١٤) (٦ : ٢٦١ ـ ٢٦٢).

فهل يذكرُ الليلَ ؟ وانظر في ظهره هل به شيءٌ يَريبك ؟

فانطلقتُ بكتابي حتى جئت تبوك ، فإذا هو جالس بين ظهرانَي أصحابه ، محتبياً على الماء ، فقلت أين صاحبكم ؟ قيل : ها هو ذا .

فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابي ، فوضعه في حجره ، ثم قال : « ممن أنتَ ؟ » فقلت : أنا أحد تنوخ . قال : « هل لك في الإسلام الحنيفيّة ملةِ أبيك إبراهيم ؟ » قلت : إني رسولُ قوم ، وعلى دِين قوم ، لا أرجعُ عنه حتى أرجع إليهم . فضحك ، وقال : « ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1].

يا أخا تنوخ ، إني كتبتُ بكتاب إلى كسرى فمزَّقه ، والله مُمزِّقُه وممزِّقُ ملكِه ،... » ثم ذكر بقية الكتب ، ثم ذكر الليل ، ثم أراه خاتمَ النبوة ، وفيه قوله ﷺ له : « إن لك حقّاً ، وإنك رسولٌ ، فلو وجدتُ عندنا جائزةً جوّزناك بها ، إنّا سَفْرٌ مرْملون »...إلى آخر الحديث . رواه أحمد وابنه في الزوائد وأبو يعلى ، وابن زنجويه وابن عساكر ، مطوّلاً ، ورواه الفسوي وأبو عبيد والبيهقي مختصراً ، وقال الحافظ الهيتمي : رجال عبد الله وأبي يعلى ثقات . ولم يعزه لأحمد ، وفي إسناده سعيد بن أبي راشد ، قال عنه الذهبي في الكاشف : صدوق ، وقال في الميزان : حسَّن له الترمذي في الفضائل ، ثم ذكر الحديث[2].

---

(١) سورة القصص (٥٦).

(٢) مسند أحمد (٣ : ٤٤١ ـ ٤٤٢) (٤ : ٧٤ ـ ٧٥ ، ٧٥) ومسند أبي يعلى (٣ : ١٧٠ ـ ١٧١) والمعرفة والتاريخ (٣ : ٢٧٦ ـ ٢٧٧) والأموال لأبي عبيد (٢٦٩ رقم ٦٢٩) ولابن زنجويه (١ : ١٢٣ ـ ١٢٥) (٢ : ٥٨٥) ودلائل النبوة (١ : ٢٦٦) وتاريخ دمشق (٢ : ٣٨ ـ ٤١ من =

وقد أسلم التنوخي بعد وفاة رسول الله ﷺ ، لذا فهو تابعي من حيث الرتبة ، لكن حديثَه متصل ، لذا يلغز علماء الحديث ، فيقولون : تابعي يقول : قال رسول الله ﷺ كذا ، ويكون حديثُه مسنداً ، وليس مرسلاً ، ويحتج به من غير خلاف[1].

ـ عدم قتله ﷺ لابن صيّاد .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : عدم قتله ﷺ لابن صيّاد ، الذي كان بالمدينة ، وقد كان يُظن أنه هو الدجال ، وهذا ما حلف عليه بعضُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولما أراد سيدنا عُمر رضي الله تعالى عنه قتله ، نهاه ﷺ ، وبيّن له أنه إن كان هو الدجال حقيقةً فليس عمرُ رضي الله تعالى عنه بصاحبه الذي يقتله ، إنما الذي يقتله هو المسيح عليه السلام ، وإن لم يكن هو فلا يجوز ، ثم بان له ﷺ أنه ليس هو .

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فمررنا بصبيان يلعبون فيهم ابنُ صيّاد ، ففر الصبيان وجلس ابن صيّاد ، فكأن رسول الله ﷺ كره ذلك ، فقال له النبيُّ ﷺ : « تربت يداك ، أتشهد أني رسول الله ﷺ ؟ » فقال : لا ، بل تشهد أني رسول الله ﷺ . فقال عمرُ بنُ الخطاب : ذرني يا رسول الله حتى أقتلَه . فقال رسول الله ﷺ :

= طرق) (٢١ : ٥٨) ومختصر تاريخ دمشق (٩ : ٢٩٦ ـ ٢٩٧) وتهذيب تاريخ دمشق (٦ : ١٢٨) وسنن الترمذي : كتاب المناقب : باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام ، رقم (٣٧٧٥) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٣٤ ـ ٢٣٦) والكاشف للذهبي (١ : ٤٣٥) وميزان الاعتدال (٢ : ١٣٥).

(١) انظر : حجية الحديث المرسل عند الإمام الشافعي رحمه الله تعالى (٤٤ ـ ٤٥).

« إن يكن الذي ترى ، فلن تستطيع قتله ». رواه مسلم[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : لقيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في بعض طرق المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « أتشهد أني رسول الله ؟ » فقال هو : أتشهد أني رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « آمنتُ بالله وملائكته وكتبه ، ما ترى ؟ » قال : أرى عرشاً على الماء . فقال رسول الله ﷺ : « ترى عرش إبليس على البحر ، وما ترى ؟ » قال : أرى صادقَيْن وكاذباً ـ أو كاذِبَين وصادقاً . فقال رسول الله ﷺ : « ليس عليه ، دعوه ». رواه مسلم ، ورواه من حديث جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً[2].

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما ، أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ انطلق مع رسول الله ﷺ في رهطٍ قِبَلَ ابن صيّاد ، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أُطم بني مَغالة ـ وقد قارب ابنُ صيّاد الحُلُم ـ فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهرَه بيده ، ثم قال رسولُ الله ﷺ لابن صيّاد : « أتشهد أني رسول الله ؟ » فنظر إليه ابنُ صيّاد فقال : أشهد أنك رسولُ الأُمِّيين . فقال ابنُ صيّاد لرسول الله ﷺ : أتشهد أني رسول الله ؟ فرفضه رسول الله ﷺ ، وقال : « آمنتُ بالله وبرسله » ثم قال له رسول الله ﷺ : « ماذا ترى ؟ ».

قال ابنُ صيّاد : يأتيني صادق وكاذب . فقال له رسول الله ﷺ : « خُلِّط عليك الأمرُ » ثم قال له رسول الله ﷺ : « إني قد خبّأتُ لك خَبيئاً » فقال ابنُ صيّاد : هو الدُّخ . فقال له رسول الله ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرَك ».

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الفتن : باب ذكر ابن صياد ، رقم (٨٥ـ٨٦).

(٢) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٨٧ ، ٨٨).

فقال عُمر بنُ الخطاب : ذرني يا رسول الله ؛ أضرب عنقَه . فقال له رسول الله ﷺ : « إن يكن هو فلن تُسلَّط عليه . وإن لم يكن فلا خير لك في قتله ». متفق عليه(1).

وقد تثار عدة تساؤلات ، كيف أقره النبي المصطفى الكريم ﷺ في المدينة مع ادعائه النبوة كاذباً ولم يخرجه منها ، ولم يقتله ؟ وقد توسعتُ في بيان حقيقته ، في (أخبار الدجّال) ومتى قال له ﷺ ذلك ، وأنه ـ أي ابن صيّاد ـ في آخر حياته تاب عن ذلك القول ، وأنه تزوج ، ووُلد له ، وأنه حج ، ومات في المدينة(2).

فيلاحظ طلبه من النبي الكريم ﷺ أن يشهد له أنه رسولٌ . لأنه كان يدَّعيها ، ولما طلب عمر رضي الله تعالى عنه أن يقتله نهاه ﷺ ، لأنه إن كان هو الدجّال ؛ الذي سيأتي في آخر الزمان ، فالذي سيقتله هو المسيح عليه السلام ، وإن كان ليس هو فلا حاجة لقتله ، لرجائه ﷺ أن يسلم ويتوب ، وذلك لأن أمره كان في بادئ الأمر مخفيّاً ، ثم أبانه الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ ، لأنه أحد المشعوذين الذين يأتيهم الشيطان ، فهو من جملة الدجالين الثلاثين ، لكنه تاب كما قلت ، والله تعالى أعلم .

ـ عيادته ﷺ لمرضى الكفار :

ومن مظاهر الرحمة المهداة : عيادتُه ﷺ لمرضى الكفّار ـ سواء كانوا من

(1) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه ،... وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٩٥).

(2) انظر معالم السنن للإمام الخطابي (٦: ١٨١ـ١٨٣) ونقله ابن الأثير في جامع الأصول (١٠: ٣٦٢ ـ ٣٦٤) حيث ذكر الجواب على ما أثير من تساؤلات ، وأجاب عليها ، وأنه فتنة امتحن الله تعالى بها عباده ، وأنه تاب في آخر أمره .

الذِّمِّيِّين ، أو كانوا من الكفار من غير الذِّمِّيِّين ، إذا كان ثمة مصلحة .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : كان غلام يهوديٌّ يخدم النبيَّ ﷺ ، فمرض ، فأتاه النبيُّ ﷺ يعودُه ، فقعد عند رأسه ، فقال له ﷺ : « أسلِم » فنظر إلى أبيه وهو عنده . فقال له : أطع أبا القاسم ﷺ ، فأسلم . فخرج النبيُّ ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه من النار ». رواه البخاري[1].

فما أرحمه وأرأفه وأوسع صدره ﷺ ، غلام كان يخدمه ، فمرض ، فلم يتركه ﷺ أن عاده ، ردّاً لخدمته ، وحرصاً على هدايته . لذا أسلم الغلام اليهودي ، ثم مات ، فأمر ﷺ الصحابة الحاضرين رضي الله تعالى عنهم أن يتولوا أمر تغسيله ودفنه .

وستأتي عيادتُه ﷺ لعمه أبي طالب وهو مريض ، ودعاؤه إياه بالنطق بكلمة الإخلاص ، ليحاجّ له بها يوم القيامة ، في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى .

ـ حرصه ﷺ على هداية الكفار، وليس على قتلهم أو القضاء عليهم .

لقد ضرب رسول الله ﷺ المثَل الأعلى في حرصه على هداية الناس ، وعلى دخولهم في الإسلام ، ولا أعلم من يجاريه أو يقاربه أو يدانيه في ذلك ، حتى إن الله تعالى صار يسليه ويصبِّره ، حتى لا يهلك نفسَه الشريفة عليهم[2] وهذا دالٌّ على مدى رحمته ﷺ لهم ، وشفقته عليهم ، ورأفته بهم ، وأذكر

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلّى عليه ، وفي غيرهما .

(٢) انظر الأمانة العظمى ونبيها ﷺ ، ومكانة النبيّ الكريم ﷺ ، وعظيم قدره ﷺ وغيرها . حيث ذكرت الآيات القرآنية في ذلك .

حديثاً يدل على مدى رحمته وحرصه على هداية الكافر ، خاصة ممن أسدى له معروفاً .

فعن المسيِّب بن حَزْن رضي الله تعالى عنهما قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ؛ جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بنَ هشام وعبدَ الله بنَ أبي أمية بن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : « يا عم ؛ قل لا إله إلا الله ، كلمةً أشهد لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية : يا أبا طالب ؛ أترغبُ عن ملةِ عبد المطلب ؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسولُ الله ﷺ : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ... ﴾ . متفق عليه[1].

ففي هذا النص الكريم مظاهر متعددة لتلك الرحمة المهداة ؛ ابتداء من مناداته : يا عم ، وانتهاء بقوله ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » ومحاجَّته له يوم القيامة فيما لو قال : لا إله إلا الله ، مع شدة حرصه ﷺ على هدايته ، وشفقته عليه ، وتخليصه من النار ، مع أنه لم يعمل في الإسلام شيئاً ، والله تعالى أعلم .

ـ أمره ﷺ بدفن جثث موتى الكفار :

ومن مظاهر هذه الرحمة المهداة بالكفار : أمره ﷺ بدفن الكفّار إذا ماتوا أو قتلوا .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ، رقم (٣٩ ـ ٤٠).

وإذا كان ﷺ قد أمر بدفن قتلى كفار قريش يوم بدر ، وقتلى اليهود من قريظة ، وكذا كل كافر قُتل أثناء قتاله مع المسلمين ، فإنه أمر بدفن من مات من الكفار أيضاً .

فقد ورد قصة إلقائهم في القليب في الصحيحين[1] من حديث عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبي طلحة وأنس رضي الله تعالى عنهم ، وسيأتي ذكر بعضها بعد قليل إن شاء الله تعالى .

بل لا يحرص على بقاء جثة الكافر بين ظهراني المسلمين ، ويعطيها لقومه بدون مقابل ، كما حصل يوم الخندق .

وأذكر حديثاً فيه دلالة أعمق إن شاء الله تعالى ، ومن غير تعليق .

فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال : إنّ أبا طالب [وفي رواية : إن عمَّك الشيخَ] قد مات ، فقال : « اذهب فوارِه » قال : إنه مات مشركاً ؟ قال : « اذهب فوارِهِ » فلما واريتُه رجعتُ إليه ، فقال لي : « اغتسل ». رواه الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والطيالسي وأحمد ، وابنه وأبو داود والنسائي وابن الجارود وأبو يعلى والبزار والبيهقي - بأسانيد صحاح وحسان ، وصححه ابن خزيمة . وقال الإمام الرافعي رحمه الله تعالى : إنه حديث ثابت مشهور[2].

(١) انظر : صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب قتل أبي جهل ، وباب شهود الملائكة بدراً ، وكتاب الجهاد : باب من غلب العدو فأقام على عرصتهم ثلاث ليال ، وفي غيرها . وصحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها : باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، رقم (٧٦-٧٨).

(٢) الأم (٧ : ١٥١) ومسند الشافعي (٣٨٥) وبدائع المنن (١ : ٢٠٩) ومسند الطيالسي (١٩ رقم ١٢٠) ومصنف عبد الرزاق (٦ : ٣٩-٤٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٣ : ٢٦٩ ، =

لقد جعل الله تعالى الإسلامَ دين الرحمة ، وجعل نبيَّه الكريمَ ﷺ نبيَّ الرحمة ، ورحمةً للعالمين ، ورحمةً مهداةً منه تعالى ، فكيف تكون معاملته ﷺ لهم جميعاً ؟؟؟.

ـ مجادلته ﷺ لأهل الكتاب وغيرهم من الكفار بالتي هي أحسن .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار أيضاً : مجادلته ﷺ لأهل الكتاب وغيرهم من الكفار بالتي هي أحسن ، ودعوته ﷺ لهم جميعاً إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يلزم الناس أن يدخلوا في الإسلام بالقوة ، وذلك كله هو امتثال لأمر الله تعالى ، حيث إنه تعالى أمر بذلك .

قال الله جلت قدرته : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1].

وقال جل شأنه : ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2].

وقد ظهرت مجادلته ﷺ بالتي هي أحسن على المستوى الفردي ، وعلى المستوى الجماعي . وأقتصر على مثال في كلٍّ من الحالتين .

= ٣٤٧) والمنتقى لابن الجارود (١٩٢) ومسند أحمد (١ : ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣١) وسنن أبي داود : كتاب الجنائز : باب الرجل يموت له قرابة مشرك ، رقم (٣٢١٤) وسنن النسائي : كتاب الطهارة : باب الغسل من مواراة المشرك (١ : ١١٠) وكتاب الجنائز : باب مواراة المشرك (٤ : ٧٩) والسنن الكبرى له (١ : ١٠٧) والبحر الزخار (٢ : ٢٠٧) ومسند أبي يعلى (١ : ٣٣٤ ـ ٣٣٦) والسنن الكبرى للبيهقي (١ : ٣٠٤ ، ٣٠٥) (٣ : ٣٩٨) والمحلى (٥ : ١١٧) وانظر نصب الراية (٢ : ٢٨١) والتلخيص الحبير (٢ : ١١٤ ـ ١١٥) والإصابة (٧ : ٢٣٩).

(١) سورة النحل (١٢٥).

(٢) سورة العنكبوت (٤٦).

فعن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ رضي الله تعالى عنه قال : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ ، فجاء حبرٌ من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعةً كاد يُصرع منها . فقال : لمَ تدفعني ؟ فقلت : ألا تقولُ يا رسول الله !!! فقال اليهوديُّ : إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهلُه . فقال رسول الله ﷺ : « إن اسمي محمد الذي سمّاني به أهلي ».

فقال اليهودي : جئتُ أسألك .

فقال له رسول الله ﷺ : « أينفعك شيءٌ إن حدَّثْتُك ؟ ».

قال : أسمعُ بأذنيَّ . فنكتَ رسول الله ﷺ بعودٍ معه ، فقال : « سل ».

فقال اليهوديُّ : أين يكون الناسُ يومَ تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمٰوات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم في الظلمة دون الجسر ».

فقال : فمن أولُ الناس إجازةً ؟ قال : « فقراءُ المهاجرين ».

قال اليهوديُّ : فما تُحفتُهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « زيادةُ كبد النون ».

قال : فما غداؤهم على إثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثورُ الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ».

قال : فما شرابُهم ؟ قال : « من عين فيها تسمّى سلسبيلاً ».

قال : صدقتَ .

قال : وجئتُ أسألك عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض ، إلا نبيٌّ أو رجُلٌ أو رجلان .

قال : « ينفعك إن حدَّثْتُك ؟ ».

قال : أسمعُ بأُذنَيَّ .

قال : جئتُ أسألك عن الولد ؟ قال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله ، وإذا عَلا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله ».

قال اليهوديُّ : صدقتَ ، وإنك لنبيٌّ . ثم انصرف .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد سألني هذا عن هذا الذي سألني عنه وما لي علمٌ بشيء منه ، حتى أتاني الله به ». رواه مسلم[1].

فيلاحظ إلى الاستفزاز ؛ بمناداته للنبي الكريم ﷺ باسمه المجرد [محمد] وصبره ﷺ ، ثم الأسئلة المحرجة ، وإجاباته ﷺ عليها من غير تذمر . وتصديقه بما قال ، واعترافه بأنه نبي ، ومع هذا فقد انصرف ولم يؤمن به ، ولم يقلقه رسول الله ﷺ بالرد عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : لما فُتحت خيبرُ ، أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ : « اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود » فجُمعوا له . فقال لهم رسول الله ﷺ : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أبوكم ؟ » قالوا : أبونا فلان . فقال رسول الله ﷺ : « كذبتم ، بل أبوكم فلان » قالوا : صدقتَ وبررت ، فقال : « هل أنتم صادِقوني عن شيء إن سألتُكم عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرَفتَ كذبَنا كما عرفتَه في أبينا . فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أهلُ النار ؟ » فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها . فقال لهم رسول الله

(١) صحيح مسلم : كتاب الحيض : باب صفة مني الرجل والمرأة ، وأن الولد مخلوق من مائهما ، رقم (٣٤).

ﷺ : « اخسؤوا فيها ، والله لا نخلُفُكم فيها أبداً » ثم قال لهم : « هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتُكم عنه ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم . قال : « هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » فقالوا : نعم . فقال : « ما حملكم على ذلك ؟ » فقالوا : أردنا إن كنتَ كاذباً نستريح منك ، وإن كنتَ نبيّاً لم يضرك . رواه البخاري[1].

ويلاحظ مخاطبتهم له ﷺ : بـ (يا أبا القاسم) وسؤاله ﷺ لهم ويكذبون ، ثم يبين لهم الحق فيعترفون ، وفي الأخير اعترفوا بوضع السم له ليقتلوه ، ولكن الله تعالى حافظه ومسلِّمه .

وهناك نصوص كثيرة غير ما ذكرت ، لكن آثرت الاختصار .

ومع أنه ﷺ قد أُمر بقتال الناس حتى يؤمنوا ، ومع هذا فإنه كان يأمر قادة الجيوش بتخيير الكفار بين الإسلام ، وبين بقائهم على أديانهم مع دفع الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم . فإن أصر الكفار على المنع ، واختاروا القتال قوتلوا . وقد مر بيان ذلك فيما مضى .

ـ مخاطبته ﷺ لأهل القليب .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : وقوفه ﷺ على قليب بدر ، ومخاطبته لكفار قريش ، مذكّراً إياهم لو أنهم سمعوا قوله ، وأطاعوه ، وآمنوا به لكان خيراً لهم مما حل بهم من الخزي في الدنيا والنار في الآخرة .

وأقتصر على ذكر بعض الأحاديث مجتزئاً موطن الشاهد منها .

فعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه ، أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقُذفوا في طويٍّ من أطواء بدر ـ

(١) صحيح البخاري : كتاب الطب : باب ما يُذكرُ في سم النبيّ ﷺ ؟ وفي غيرهما .

خبيث مخبِث ـ وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاثَ ليال . فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلُها ، ثم مشى ، واتَّبعه أصحابُه ـ وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ـ حتى قام على شفة الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « يا فلانَ ابن فلان ، ويا فلانَ ابن فلان ؛ أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ إنا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً ، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقّاً ؟ ».

قال : فقال عُمر : يا رسول الله ؛ ما تكلِّم من أجسادٍ لا أرواح لها . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، ما أمنتم بأسمع لما أقول منهم ».

قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه ؛ توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً . متفق عليه[1].

وروياه بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، ورواه مسلم من حديث أنس ، ومن حديثه عن عمر رضي الله تعالى عنهما أيضاً[2].

إن عباراته ﷺ الكريمة تعبِّر عن الأسى والحزن والأسف ؛ النابعة من الرحمة والشفقة والحنان ، على ما فات هؤلاء الصناديد ، من الخير والفلاح لو أنهم آمنوا ، ولهذا جاء في حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : قال النبيُّ ﷺ : « إنهم الآن يعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق ».

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب قتل أبي جهل ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها : باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ،... رقم (٧٨).

(٢) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٧٦ ، ٧٧).

متفق عليه[1]، والله تعالى أعلم .

ـ دعوة الأعداء قبل قتالهم :

ومن مظاهر الرحمة التي شملت الكفار : كتابة النبي الكريم ﷺ لكل الزعماء والرؤساء والقادة في عصره يدعوهم إلى الإسلام ، ويحذرهم من مغبة إعراضهم عنه ، وأنهم هم الذين يتحملون المسؤولية ، عن أنفسهم وعن أقوامهم .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار ؛ يدعوهم إلى الله تعالى . رواه مسلم[2].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً حتى دعاهم . رواه أحمد وابن أبي شيبة والدارمي وعبد بن حُميد وأبو يعلى والطبراني برجال الصحيح ، وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : بينما نحن في المسجد ؛ إذ

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب ما جاء في عذاب القبر ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجنائز : باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، رقم (٢٦).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب كتابة النبيّ ﷺ إلى ملوك الكفار ،... رقم (٧٥).

(٣) مسند أحمد (١ : ٢٣١ ، ٢٣٦) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٦٥) ومسند الدارمي (٢ : ١٣٦) ومسند عبد بن حُميد (٢٣١ ـ ٢٣٢) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢٠٧) ومسند أبي يعلى (٤ : ٣٧٤ ، ٤٦٢) والمعجم الكبير (١١: ٩٥ ، ١٣٢من طرق) والمستدرك (١ : ١٥) والتمهيد لابن عبد البر (٢ : ٢١٦ ـ ٢١٧) والسنن الكبرى (٩ : ١٠٧) وإتحاف الخيرة المهرة (٦ : ٣٣١ـ ٣٣٢) ومجمع الزوائد (٥ : ٣٠٤) وانظر مصنف عبد الرزاق (٥ : ٢١٨) وقارن معه نصب الراية (٣ : ٣٧٨) والدراية (٢ : ١١٤).

خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال : « انطلقوا إلى يهود » فخرجنا معه ، حتى جئناهم ، فقام رسول الله ، فناداهم فقال : « يا معشر يهود : أسلِموا تسلَموا » قالوا : قد بلَّغتَ يا أبا القاسم ،... الحديث بطوله ، رواه مسلم(١).

وانظر الفقرة التالية :

ـ حثُّه ﷺ قادة الجيوش على دعوة العدو إلى الإسلام قبل القتال :

لقد كان رسول الله ﷺ يوصي قادة الجيوش ، ألّا يقاتلوا قوماً كفّاراً حتى يدعوهم إلى الإسلام أولاً ، فإن أجابوا إليه لا يقاتلهم .

فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية : أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال : « اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلّوا ، ولا تغدُروا ، ولا تَمْثُلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين ؛ فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيَّتُهُن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم . ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعُهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبَوا أن يتحوَّلوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبَوا فسَلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم . فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتلهم ،... » الحديث بطوله ، رواه مسلم(٢).

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب إجلاء اليهود من الحجاز ، رقم (٦١).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، رقم (٢ ـ ٥).

وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يوم خيبر : « انفُذ على رِسْلِك ، حتى تنزلَ بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم ». متفق عليه[1].

وعن أبي البَخْتَري رحمه الله تعالى ، أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرَهم سلمانُ الفارسي - رضي الله تعالى عنه - حاصروا قصراً من قصور فارس ، فقالوا : يا أبا عبد الله ؛ ألا ننهدُ إليهم ؟ قال : دعوني أدعُهم كما سمعتُ رسول الله ﷺ يدعوهم .

فأتاهم سلمان فقال لهم : إنما أنا رجلٌ منكم ؛ فارسيٌّ ، ترون العربَ يطيعونني ، فإن أسلمتم فلكم مثلُ الذي لنا ، وعليكم مثلُ الذي علينا ، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم عليه ، وأعطونا الجزية وأنتم صاغرون - قال : ورطن إليهم بالفارسية ، وأنتم غيرُ محمودين - وإن أبيتم نابذناكم على سواء .

قالوا : ما نحن بالذي نعطي الجزية ، ولكنّا نقاتلُكم .

فقالوا : يا أبا عبد الله ؛ ألا ننهدُ إليهم ؟ قال : لا ، فدعاهم ثلاثةَ أيام إلى مثل هذا . ثم قال : انهدوا إليهم . قال : فنهدنا إليهم ، ففتحنا ذلك القصر . رواه الترمذي وحسنه[2].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب فضل من أسلم على يديه رجل ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، رقم (٣٤).

(٢) سنن الترمذي : كتاب السير : باب ما جاء في الدعوة قبل القتال ، رقم (١٥٤٨).

فلو كان متعطِّشاً للدماء ، راغباً في القتل لما دعاهم ثلاثة أيام ، وفي كل مرة يبيّن لهم الأمورَ الثلاثة .

فإذا بلغت الدعوة للجميع جاز للقائد المباغتة ـ كما سأذكر تفاصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

فعن ابن عون قال : كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ، قال : فكتب إلي : إنما كان ذلك في أول الإسلام ، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون ، وأنعامهم تُسقى على الماء ، فقتل مقاتلتَهم ، وسبى نساءَهم ، وأصاب يومئذ جُوَيْرِية . حدَّثني به عبد الله بنُ عُمر ، وكان في ذلك الجيش . متفق عليه[1].

وسبب إغارته ﷺ على بني المصطلق : هو أن الحارث بن أبي ضرار ـ والد جُويرية ـ بدأ يجمع القبائل العربية لغزو المدينة ، لذا باغته ﷺ قبل هجومه عليها ، تفادياً للخسارة المادية والبشرية والمعنوية والنفسية ،... والله تعالى أعلم

ـ حرصه ﷺ على إسلام الناس :

لقد كان رسول الله ﷺ ـ وهو الرحمة المهداة ـ حريصاً على إسلام الناس وهدايتهم ، لأنه ﷺ أُرسل رحمة ، وهمّه هداية الناس ، ولم يكن ـ حاشاه ـ متعطِّشاً للقتال ، وسفكِ الدماء ، بل كان حريصاً على هدايتهم وإيمانهم . لذا كان يدعو لهم بالهداية لا بالهلاك ، ويشجع ويبارك من يكون

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب مَن ملك من العرب رقيقاً فوهب . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام ،... رقم (١).

سبباً في هداية الناس ، لا قتلهم .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قدم طُفيل بن عَمْرٍو الدَّوْسيُّ وأصحابُه على النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ؛ إن دَوساً عصت [وعند مسلم : قد كفَرَت] وأَبت ، فادع اللهَ عليها . فقيل : هلكت دَوسٌ [فظن الناس أنه يدعو عليهم] فقال : « اللهم اهد دَوساً ، وائتِ بهم ». متفق عليه[1].

فاستجاب الله عز وجل دعاءَ نبيه المصطفى الكريم ﷺ ، فأسلمت دَوسٌ بأجمعها ، وهم قوم أبي هريرة رضي الله تعالى عنه . ولم يهلكوا كما تصور بعضُ الناس أن يدعو عليهم ، ولكن الرحمة المهداة ﷺ ما أُرسل لهلاك الناس إنما أرسل لإنقاذهم ، وإسعادهم وإراحتهم ، والله تعالى أعلم .

وهنا ملحظ مهمٌّ جدّاً : إذا علم القوم أن رسول الله ﷺ يدعو لهم ، لا عليهم ، كيف يكون وقعُ ذلك في نفوسهم ؟ لذا أسلموا جميعاً ، وأقبل الله تعالى بقلوبهم ، والله تعالى أعلم .

ـ مكاتبته ﷺ للناس إن أسلموا أَمِنوا على أنفسهم وأموالهم :

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة التي شملت الكفار : ما كان يفعله رسول الله ﷺ من مكاتبته للقبائل والأفراد ؛ أن إذا آمنوا ، وشهدوا شهادة الحق ، فإن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وذراريهم وأعراضهم .

فعن يزيد بن عبد الله رحمه الله تعالى قال : كنا بالمربد ، فجاء رجلٌ

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل غفار ،... ودوس وطيء ، رقم (١٩٧).

أشعثُ الرأس ، بيده قطعة أديم أحمر . فقلنا : كأنك من أهل البادية؟ فقال : أجل . قلنا : ناولنا هذه القطعةَ الأديمَ التي في يدك . فناولْناها . فقرأناها . فإذا فيها : « من محمدٍ رسول الله ، إلى بني زُهَيرِ بنِ أُقَيشٍ ، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسولُ الله [زاد في رواية : وفارقتم المشركين] وأقمتم الصلاةَ ، وآتيتم الزكاة ، وأدّيْتم الخمسَ من المغنم ، وسهمَ النبيِّ ﷺ ، وسهمَ الصّفيِّ : أنتم آمنون بأمان الله ورسوله » فقلنا : من كتب لك هذا الكتاب ؟ قال : رسول الله ﷺ . رواه أحمد وأبو داود والنسائي والطحاوي والبيهقي وغيرهم بأسانيد صحيحة ، وصححه ابن حبان(١).

فواضح كيف بيّن ﷺ لهم أنهم إن آمنوا وأسلموا فهم آمنون بأمان الله تعالى وأمان رسوله ﷺ، فلو كان متعطِّشاً للدم ـ حاشاه ـ لما أعطاهم مثل هذا الأمان ، بحيث إنهم يكونون كالمسلمين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، إذا أدوا شرط الإيمان والإسلام ، والله تعالى أعلم .

ـ تشجيعه ﷺ مَن أقدم على نصح الناس بالإسلام قبل القتال حرزاً على دمائهم وأعراضهم وأموالهم .

بل كان ﷺ يشجِّع على هداية الناس ، ويشكر يدَ من كان سبباً في

(١) السير والمغازي (٢٨٨ ـ ٢٨٩) ومسند أحمد (٥ : ٧٧ ـ ٧٨ ، ٧٨ ، ٣٦٣) وسنن أبي داود : كتاب الخراج والإمارة : باب ما جاء في سهم الصَّفيِّ ، رقم (٢٩٩٩) وسنن النسائي : كتاب قسم الفيء (٧ : ١٣٤) والطبقات الكبرى (١: ٢٧٩) والأموال لأبي عُبيد (١٩) والأموال لابن زنجويه (١: ١٠٦) وشرح معاني الآثار (٣ : ٣٠٢ ـ ٣٠٣) والمعجم الأوسط (٥ : ١٥٩ ـ ١٦٠) ومعجم الصحابة (٣ : ١٦٥) وصحيح ابن حبان (١٤: ٤٩٧ ـ ٤٩٨) والسنن الكبرى (٧ : ٥٨) وقد سُمي عند ابن قانع والطبراني وأسد الغابة (٤ : ٥٨٢) النمر بن تولب العكلي الشاعر ، والله تعالى أعلم .

هدايتهم ، لأنه ﷺ لم يُرسل إلا لذلك .

فعن الحارث بن مسلم رضي الله تعالى عنه : قال : بعثَنا رسولُ الله ﷺ في سرية ، فلما بلغنا المغار ، استحثثتُ فرسي ، فسبقتُ أصحابي ، وتلقاني الحيُّ بالرنين ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا . فقالوها ، فلامني أصحابي ، وقالوا : حرمتنا الغنيمة . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت ، فدعاني فحسَّن لي ما صنعتُ ، وقال : « أما إنّ الله قد كتب لكَ من كل إنسان منهم كذا وكذا ... ». رواه أبو داود وابن حبان والطبراني والبغوي وأبو نعيم مطوّلاً ، وروى أحمد قصة الكتاب ، وروى البخاري في التاريخ والنسائي وابن السني ـ كلاهما في عمل اليوم والليلة ـ الدعاء منه ، وحسنه الحافظ[1].

ـ نهيه ﷺ عن قتل الكافر إذا نطق بالشهادة .

إن النبي المصطفى الكريم ﷺ لا يقصد من الجهاد العدوانَ ولا البطش ، ولا الرغبة في الانتقام ، ولم يكن ﷺ متعطِّشاً لسفك الدماء أبداً ، إذ لو كان كذلك ما نهى عن قتل الشيوخ والنساء والأطفال والعُبّاد والرهبان ، ولَـما أمر أمراءَ الجيوش أن لا يقاتلوا حتى يخيِّروا العدوَّ بين

(١) مسند أحمد (٤ : ٢٣٤) وسنن أبي داود : كتاب الأدب : باب مايقول إذا أصبح ، رقم (٥٠٨٠) والتاريخ الكبير (٧ : ٢٥٣) وعمل اليوم والليلة للنسائي (رقم ١١١) ولابن السني (رقم ١٣٩) وصحيح ابن حبان (٥ : ٣٦٦ ـ ٣٦٧) ومعرفة الصحابة (٥ : ٢٤٨٦ ـ ٢٤٨٧) ومعجم الصحابة (٥ : ٣١٠ ـ ٣١١) والمعجم الكبير (١٩ : ٤٣٣ ، ٤٣٣ ـ ٤٣٤) والدعاء له (٢ : ١٠٩٩ رقم ٦٦٥) ونتائج الأفكار (٢ : ٣١٠) والفتوحات الربانية (٣ : ٦٨) وذكر الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ : ٩٩) وصية النبي الكريم ﷺ به للولاة بعده ، وعزاه لأحمد والطبراني ، وقال رجالهما ثقات .

ثلاث ، فمن أسلم قبل القتال ـ بل حتى أثناء القتال ـ يجري عليه حكمُ المسلمين ، له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم . لأن الكافر إذا قال : لا إله إلا الله محمداً رسول الله ﷺ : عصم دمَه ومالَه وعرضَه ، فلا يحل دمُه إلا بإحدى ثلاث : الزنا إذا كان محصناً ، والقصاص إذا قتل غيره عمداً ، والردة عن الإسلام ، والعياذ بالله تعالى .

وخير دليل على ذلك : لومُه ﷺ أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما ، عندما قتل رجلاً ـ في المعركة ـ بعدما قال : لا إله إلا الله.

فعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة من جهينة ، فصبَّحنا القومَ ، فهزمناهم ، ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله . فكفَّ عنه الأنصاريُّ . وطعنتُه برمحي حتى قتلته . قال : فلما قدمنا . بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال لي : « يا أسامةُ أقتلتَه بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ » قال : قلت يا رسول الله ، إنما كان متعوِّذاً . قال : [« أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا »] « أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ » قال : فما زال يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم . متفق عليه[1].

وعن جندب بن عبد الله البَجَلي رضي الله تعالى عنه قال : إن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وإنهم التقَوْا ، فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ، رقم (١٥٨ ـ ١٥٩).

وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلتَه ـ قال : وكنا نحدَّث أنه أسامةُ بنُ زيد ـ فلما رفع عليه السيفَ قال : لا إله إلا الله ، فقتله . فجاء البشير إلى النبيِّ ﷺ . فسأله ، فأخبره ، حتى أخبره خبرَ الرجل كيف صنع . فدعاه ، فسأله فقال : « لِـم قتلتَه ؟ » قال : يا رسول الله ، أَوجعَ في المسلمين ، وقَتل فلاناً وفلاناً ، وسَمّى له نفراً . وإني حملت عليه ، فلما رأى السيفَ قال : لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : « أقتلتَه ؟ » قال : نعم . قال : « فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : يا رسول الله ؛ استغفر لي . قال : « وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ ». رواه مسلم[1].

لذا فليتنبه المسلمون إلى خطورة الموقف ، كما ليرتدع الكفار عن التمادي بالباطل ، وأين مثل هذا الخُلق « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت ،...».

بل أصرح من ذلك : نهيُه ﷺ صراحةً عن قتل من أسلم ، وقال : لا إله إلا الله ، أثناء المعركة ، ولو قطع يدَ المسلم المقاتل .

فعن المقداد ابن الأسود رضي الله عنه قال : يا رسول الله ؛ أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفار ، فقاتلني ، فضرب يدي بالسيف فقطعها ، ثم لاذ مني بشجرة ، فقال : أسلمتُ لله [وفي لفظ : فقال : لا إله إلا الله] أفأقتُله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا تقتله » قال : فقلت يا رسول الله ؛ إنه قد قطع يدي ، ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا تقتُلْه ، فإن قتلتَه فإنه بمنزلتك قبل أن تقتلَه ، وإنك

(١) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٦٠).

بمزلته قبل أن يقول كلمتَه التي قال ». متفق عليه[1].

فلو كان الهدفُ من الجهاد العدوانَ لما نهى ﷺ المقدادَ رضي الله تعالى عنه عن قَتل من قطع يده ، ولَـما لامَ أسامةَ رضي الله تعالى عنه على قتل من أعلن إسلامه ، مع احتمال كون القائل غيرَ صادق ، والله تعالى أعلم .

بل حتى لو لم يحسن النطق بها ، فلو قال : صبأنا بدل أسلمنا ما جاز قتله . إلا إذا كان يعرف ذلك حقيقة ، وأن ما وقع منهم كان على سبيل الأنفة .

فعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما قال : بعث النبيُّ ﷺ خالدَ ابن الوليد إلى بني جَذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا . فجعل خالد يقتلُ منهم ويأسر . ودفع إلى كل رجل منا أسيرَه . حتى إذا كان يومٌ أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ رجل منا أسيره . فقلت : والله لا أقتل أسيري ، ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيرَه . حتى قدمنا على النبيِّ ﷺ فذكرناه ، فرفع النبيُّ ﷺ يديه ، فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين . رواه البخاري[2].

زاد ابن إسحٰق : ثم دعا رسول الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضوان الله عليه فقال : « يا علي ؛ أخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم ، واجعل أمرَ الجاهلية تحت قدميك ».

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب (١٢) حدثنا خليفة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جَذيمة ، وفي غيرهما .

فخرج عليٌّ حتى جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ ، فودَى لهم الدِّماءَ وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه ليَدي لهم مِيلغةَ الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه ، بقيت معه بقيَّةٌ من المال ، فقال لهم عليٌّ رضوان الله عليه ـ حين فرغ منهم ـ : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يودكم ؟ قالوا : لا . قال : فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون . ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر . فقال : « أصبتَ ، أصبتَ »[1]...

فلينظر إلى تلك الرحمة ، حيث تأثر ﷺ تأثراً كبيراً لما فعله خالد رضي الله تعالى عنه ، وهو وإن كان متأوِّلاً ـ لكن ذلك لم يرض به ﷺ ، لذا تبرأ من فعله ، ثم أرسل عليّاً رضي الله تعالى عنه فأصلح ما هوى ، بحيث إنه وَدى جميع الدماء ، وما فقدوه من مال ، حتى الميلغة التي يلغ فيها الكلب .

ـ وصيته ﷺ بأهل الذمة :

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : وصيته ﷺ بأهل الذمة من أهل مصر ، لأن لهم رحماً وصهراً ، وذلك لأن أمَّ إسماعيل عليه السلام ـ هاجر ـ من مصر ، ولأن أم إبراهيم بن النبيِّ ﷺ ـ مارية ـ من مصر أيضاً .

فعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستَفتحون أرضاً يُذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمَّةً ورحماً ، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة ، فاخرج منها ».

قال : فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنَي شُرَحبيل بن حسنة ، يتنازعان في

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤ : ١٠٣) ودلائل النبوة (٥ : ١١٤ـ ١١٥) وفتح الباري (٨ : ٥٨).

موضع لبنة ، فخرج منها .

وفي رواية ثانية عنه رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصرَ ، وهي أرضٌ يُسمّى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمَّةً ورحماً ـ أو قال : ذمةً وصهراً ـ فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة ؛ فاخرج منها ».

قال : فرأيت عبدَ الرحمن بن شُرحبيل بنِ حسنة وأخاه ربيعةَ ؛ يختصمان في موضع لبنة ، فخرجتُ منها . رواهما مسلم(١).

فالذي حمل على الوصية بهم : الذمةُ والرحمُ والصهرُ ، فإذا كان الرحم والصهر لهما تأثير ، فالذِّمَّة هي ما يوجبه الرحم والمصاهرة من حُرمة وذمام وحق ، لذا راعى ﷺ هذا الحق وتلك الحرمة ؛ رحمةً بالناس وشفقةً عليهم ، والله تعالى أعلم .

ـ حقنه ﷺ دمَ الأسير ، والنهي عن قتله .

ومن مظاهر تلك الرحمة التي شملت الكفار : حقنه ﷺ دم الأسير ، والنهي عن قتله ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأسير ممن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وآذى المسلمين ، وغدر بهم ، وكان شرّاً ووبالاً عليهم ، أو صدر منه ما يقتضي القصاص ، أو عاهدهم ألا يقاتلهم ثانية فتكرر أسره ، أو كان مسلماً فارتد وبقي على ردته ، ونحو ذلك .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة ، يقال له : ثُمامةُ بنُ أثال ؛ سيدُ أهل

---

(١) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب وصية النبيِّ ﷺ بأهل مصر ، رقم (٢٢٦ ـ ٢٢٧).

اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد . فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال : « ماذا عندك يا ثمامة ؟ » فقال : عندي يا محمد ، خير . إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تُنعم على شاكر . وإن كنتَ تريد المال فسل تُعط منه ما شئتَ . فتركه رسول الله ﷺ ، حتى كان بعد الغد . فقال : « ما عندك يا ثُمامة ؟ » قال : ما قلتُ لك . إن تُنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنتَ تريد المال فسل تعط منه ما شئتَ . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال : « ما عندك يا ثُمامة ؟ » فقال : عندي ما قلتُ لك . إن تُنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنتَ تريد المالَ فسل تعط منه ما شئتَ . فقال رسول الله ﷺ : « أطلقوا ثُمامة ».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجدَ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يا محمد ؛ والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه كلِّها إليَّ . والله ، ما كان من دين أبغضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينُك أحبَّ الدين كله إليَّ . والله ، ما كان من بلدٍ أبغض إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد كلها إليَّ . وإن خيلَك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ فبشَّره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوتَ ؟ فقال : لا ، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ . ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّةُ حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ . متفق عليه[1].

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب ربط الأسير وحبسه ، وجواز المن عليه ، رقم (٥٩ ـ ٦٠).

لقد كان من رحمته ﷺ وعفوه ومنّه على ثمامة ، وملاطفته ﷺ له : أن انقلب البغض في قلبه للنبي الكريم ﷺ إلى حبٍّ ، في ساعة واحدة ، وصار من أكبر المناصرين ، بحيث إنه منع تصدير الحنطة إلى مكة ، حتى أذن بها رسول الله ﷺ .

وعن عُبيد بن تِعلى قال : غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فأُتي بأربعة أعلاج من العدو ، فأمر بهم فقُتلوا صبراً بالنبل . فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر . فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتُها . فبلغ ذلك عبد الرحمن بن خالد ، فأعتق أربع رقاب . رواه أحمد وسعيد وأبو داود والطحاوي والطبراني والبيهقي ، وصححه ابن حبان ، وحسنه الحافظ[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه ، أن النبيَّ ﷺ بعث خالدَ بنَ الوليد إلى أُكَيدرِ دُومة ، فأُخذ ، فأتوه به . فحقن له دمَه ، وصالحه على الجزية . رواه أبو داود والبيهقي برجال الصحيح[2]. وقد ورد أيضاً من مراسيل عروة ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر بأسانيد صحيحة بأطول ، فالحديث

---

(١) مسند أحمد (٥ : ٤٢٢) وسنن سعيد بن منصور (٢ : ٢٧٠) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في قتل الأسير بالنبل ، رقم (٢٦٨٧) وشرح معاني الآثار (٣ : ١٨٢) والمعجم الكبير (٤ : ١٩٠) وصحيح ابن حبان (١٢ : ٤٢٤ ـ ٤٢٥) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٧١) والتاريخ الكبير (٥ : ٤٤٣ ـ ٤٤٤) وتهذيب التهذيب (٧ : ٦٠) وانظر تهذيب الكمال (١٩ : ١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الخراج والإمارة : باب في أخذ الجزية ، رقم (٣٠٣٧) والسنن الكبرى (٩ : ١٨٦ ، ١٨٧) والسيرة النبوية لابن هشام (٤ :٢٣١ ـ ٢٣٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٥ : ٢٥٠ ـ ٢٥٢).

صحيح ، والله تعالى أعلم .

فهذا نصراني ، ومع هذا فإنه ﷺ حقن دمَه ولم يقتله ، مع إمكان قتله ، ولكنه لم يقتله رحمة به لعله يسلم .

ـ حسن معاملة الأسرى :

لقد أثنى الله عز وجل على الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم في حسن تعاملهم مع الأسرى ، وحسن معاملتهم لهم،... فقال عز شأنه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[1] .

ومن مظاهر الرحمة المهداة أن حث ﷺ المسلمين على حسن معاملة الأسرى ، وقد امتثل المسلمون ذلك . خاصة وقد رأوه ﷺ كيف يُحسن إلى الأسير . ويعطيه حاجته ، ولا يتردد عن مخاطبته .

فعن عمران بن حُصين رضي الله تعالى عنهما قال : كانت ثقيف حلفاءَ لبني عُقَيل ، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأسر أصحابُ رسول الله ﷺ رجلاً من بني عُقَيل ، وأصابوا معه العضباء ، فأتى عليه رسولُ الله ﷺ وهو في الوثاق ، قال : يا محمد ؛ فأتاه فقال : « ما شأنك ؟ » فقال : بم أخذتني ؟ وبم أخذتَ سابقة الحاج ؟ فقال : (إعظاماً لذلك) « أخذتُك بجريرة حلفائك ثقيف » ثم انصرف عنه ، فناداه ، فقال : يا محمد ؛ يا محمد ـ **وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً** ـ فرجع إليه فقال : « ما شأنك ؟ » قال : إني مسلم . قال : « لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كلَّ الفلاح » ثم انصرف . فناداه . فقال : يا محمد ؛ يا محمد ، فأتاه فقال : « ما شأنك ؟ » قال : إني جائع فأطعمني ، وظمآن فأسقني . قال : « هذه حاجتك »

(١) سورة الإنسان (٨ ـ ٩).

ففُدي بالرجلين ،... الحديث بطوله ، رواه مسلم[1] .

كيف عامل ﷺ هذا الأسير ؟ لقد ناداه ثلاث مرات باسمه المجرّد ، لا بالرسالة أو النبوة ـ مما يدل أنه لم يصدق في دعواه أنه مسلم ـ وفي كل مرة يرجع إليه ، ويسأله عن شأنه ، فما هذه الرحمة والشفقة والرأفة ؟ ثم لما أخبره في الثانية أنه مسلم ، بيّن ﷺ له لو كان قبل الأسر لأفلح كلَّ الفلاح ، أما بعد الأسر فقد أمن على دمه ـ فلا يقتل ـ ولكن لم يأمن على الاسترقاق ، فلما ناداه الثالثة ، ورجع ﷺ إليه ، وسأله عن شأنه وما يريد ، وقال الجوع والعطش . أمر ﷺ بإطعامه وسقايته . ثم فاداه بالأسيرين المسلمين عند حلفائه .

فأين هذه المعاملة من معاملة مُدّعي الحرية والإنسانية اليوم !!! هيهات .

وعن أبي عَزيز بن عُمير ـ أخي مصعب بن عُمير رضي الله تعالى عنه ، وكان أسيراً في أعقاب بدر عند بعض الأنصار ـ قال : كنتُ في يوم بدر ، فقال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيراً » وكنت في نفر من الأنصار ، فكانوا إذا قدَّموا غداءَهم وعشاءَهم ؛ أكلوا التمرَ ، وأطعموني البُرَّ ، لوصية رسول الله ﷺ . رواه الطبراني في الكبير والصغير ، وإسناده حسن ، كما في مجمع الزوائد[2] .

ـ الحكم فيهم :

لقد جعل الشارع الحكيمُ الخيارَ للإمام في الأسرى ؛ بين العفو عنهم

---

(١) صحيح مسلم : كتاب النذر : باب لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد ، رقم (٨).

(٢) المعجم الكبير (٢٢: ٣٩٣) والمعجم الصغير (١: ٢٥٠ ـ ٢٥١) ومعرفة الصحابة (٥ : ٢٩٦٧) وفيه سقط ، ومجمع البحرين (٥ : ٩٨ ـ ٩٩) ومجمع الزوائد (٦: ٨٦).

بدون فداء ، أو المفاداة بهم بأسرى المسلمين ، أو مفاداتهم مقابل مال أو غيره ، أو قتلهم ، أو استرقاقهم ،... وكل ذلك حسب مصلحة المسلمين ومنفعتهم ، وكل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ ، وقد توسع الإمامُ الشافعي رحمه الله تعالى في بيان الأمثلة لكل نوع منها ، كما سيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[1] .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في اختلاف الحديث[2]: فكان فيما وصفتُ من فعل رسول الله ﷺ : ما يدل على أن للإمام إذا أَسَرَ رجلاً من المشركين ؛ أن يقتل ، أو يمنَّ عليه بلا شيء ، أو أن يفادي بمال يأخذه منهم ، أو أن يفادي بأن يُطلق منهم على أن يُطلَقَ له بعضُ أسرى المسلمين ، لا أنّ بعض ذلك ناسخٌ لبعض ، ولا مخالف له إلا من جهة إباحته.اهـ.

وقال رحمه الله تعالى في الأم[3]: وإذا أُسِرَ البالغون من الرجال ، فالإمامُ فيهم بالخيار : بين أن يقتلهم ـ إن لم يُسلم أهلُ الأوثان ـ أو يُعط الجزيةَ أهلُ الكتاب ، أو يمنَّ عليهم ، أو يفاديهم بمال يأخذه منهم ، أو بأسرى من المسلمين يطلقون لهم ، أو يسترقهم ، فإن استرقّهم أو أخذ منهم مالاً فسبيلُه سبيلُ الغنيمة يُخمَّس ، ويكون أربعةُ أخماسه لأهل الغنيمة.اهـ.

---

(١) سورة محمد (٤).

(٢) اختلاف الحديث (٨٩) ونقله الإمام البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٣ : ٢٠٠) وانظر الأم (٤ : ١٥٦ ـ ١٥٧) فقد ذكر أمثلة لما أجمل في اختلاف الحديث .

(٣) الأم (٤ : ١٥٦).

وقال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى[1]: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ؛ من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم ؛ أن للإمام أن يَمنَّ على من شاء من الأسارى ، ويقتل من شاء منهم ، ويفدي من شاء.اهـ.

فخلاصة الأمر : يكون الإمامُ مخيَّراً بين خمسة أمور ، هي :

أ ـ المنُّ على الأسرى ، وذلك بالإفراج عنهم بدون مقابل .

ب ـ الفداء بغيره من أسرى المسلمين (تبادل الأسرى).

ج ـ المفاداة بمال ، أو بغيره لمن عجز عنه ، أو أخذ الجزية من الكتابي .

د ـ القتل ، إذا كان يستحق ذلك .

هـ ـ الاسترقاق ، إذا كانت المصلحة في استرقاقهم .

وكل ذلك مرهون بنظر الإمام ، ومراعاة مصلحة المسلمين ، وحسب حال الأسير .

وسأذكر نماذج من كل نوع من هذه الأنواع الخمسة . مقتصراً على الإشارة من غير تفصيل .

أ ـ المن ، وذلك بأن يُطلق سراح الأسير بدون مقابل :

وقد فعل النبي المصطفى الكريم ﷺ ذلك في مرات متعددة ، سواء على مستوى الأفراد ، أو الجماعة .

ـ أما على مستوى الجماعة :

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة ؛ هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه [فدعا عليهم] فأخذهم سَلَماً [يعني أسرهم من غير قتال]

(١) سنن الترمذي (٤ : ١٣٦) ذكره عقب حديث عمران رضي الله تعالى عنه .

فاستحياهم [يعني أبقاهم أحياء ولم يقتلهم] فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ... ﴾[1]. رواه مسلم[2].

ورواه مسلم[3] من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه بنحوه ، كما ورد من حديث غيرهما أيضاً ، وقد سبق ذكر ذلك .

وقد فعل رسول الله ﷺ مثلَ ذلك كثيراً .

ـ فقد مَنّ ﷺ على أهل مكة يوم الفتح ، وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

ـ ومنَّ ﷺ على يهود بني النضير ؛ الذين حاولوا اغتياله ﷺ ، فأطلعه الله تعالى على خطتهم ، وسلَّمه من غدرهم ، وأمكن منهم ، سواء بإلقاء الرحى عليه وهو جالس في ظل جدار لهم ، أو باغتياله بالخناجر حين دعوه للمناقشة مع علمائهم[4]. ومع هذا فلم يقتلهم ، بل اكتفى بإجلائهم ، كما طلبوا .

ـ ومنَّ ﷺ على يهود بني قينقاع ، فلم يقتلهم ، مع فعلهم الشنيع ،

---

(١) سورة الفتح (٢٤).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾، رقم (١٣٣).

(٣) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب غزوة ذي قرد وغيرها ، رقم (١٣٢).

(٤) روى ابن مردويه بإسناد صحيح قصة كتابة قريش لليهود يهدّدونهم ، فأجمع بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبيّ ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ، ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ، ففعل ، فاشتمل اليهود على الخناجر ،... انظر فتح الباري (٧ : ٣٣١).

ونقضهم العهد ، وغدرهم بالمسلمين ، واكتفى بإجلائهم .

ـ ومنَّ ﷺ على يهود بني قريظة ، ولم يقتلهم ـ في المرة الأولى ـ بل أقرَّهم في ديارهم ، فلما تكرر غدرُهم ، وتمالؤهم مع المشركين ضد المسلمين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وبلغت خيانتهم حدّاً لا يطاق ، ولم يبق مجال في إصلاحهم ، قَتل مقاتلَتَهم ، وسبى ذراريهم(١) .

فعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما ، أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسولَ الله ﷺ ، فأجلى رسولُ الله ﷺ بني النضير ، وأقر قريظة ، ومنَّ عليهم . حتى حاربت قريظة بعد ذلك ، فقتل رجالَهم ، وقسم نساءَهم وأولادَهم وأموالَهم بين المسلمين ، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فآمنهم وأسلموا ،... الحديث بطوله ، متفق عليه(٢) .

ـ ومنَّ ﷺ على بني هوازن ، فأطلق سراح جميع المعتقلين منهم ؛ من نساء وأطفال وغيرهم ، بعد تقسيمهم على المقاتلين .

ـ ومنّ ﷺ على بني المصطلق ، فأُطلق سراح جميع الأسرى بعدما سمع المسلمون بزواج النبي المصطفى الكريم ﷺ من جُويرية رضي الله تعالى عنها بنت زعيمهم .

ـ وفعل ﷺ ذلك مع عدد من القبائل العربية .

---

(١) على حسب ما هو موجود في شريعتهم ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، نقلاً من كتابهم المقدس ، من سفر التثنية ، من العهد القديم .

(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب حديث بني النضير ، ومخرج رسول الله ﷺ في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب إجلاء اليهود من الحجاز ، رقم (٦٢).

ـ وأما على مستوى الأفراد :

ـ فقد منّ ﷺ على أبي العاص بن الربيع ـ زوج ابنته زينب رضي الله عنها ـ بعد أسره يوم بدر ، وردَّ عليه فداءَه .

ـ ومنّ ﷺ على ثُمامة بن أثال . فأسلم . كما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقد سبق ذكره ..

ـ ومنّ ﷺ على سفّانة بنت حاتم الطائي ، وطلب من المسلمين أن يردّوا عليها ما أُخذ منها ، وأَمر ﷺ بإيصالها إلى حيّها .

ـ ومنّ ﷺ على أبي عزة الجمحي يوم بدر ، تركه لبناته ، وأخذ عليه العهد أن لا يقاتله ، لكنه غدر ، وخان العهد ، فقدم يوم أحد مقاتلاً ، فأسره المسلمون ، فقتلوه .

وسيأتي ذكر بعض الأمثلة بعد قليل أيضاً ، إن شاء الله تعالى .

ب ـ الفداء : وهو : أن يفادي بهم بأسرى مسلمين ، يكونون عند العدو (تبادل الأسرى) وهذا من باب التعامل بالمثل .

فمن ذلك : أَسر المسلمون رجلاً من بني عُقيل ـ وهم حلفاء بني ثقيف ـ وكانت ثقيف قد أسرت اثنين من المسلمين ، ففادهما به .

فعن عمران بن حُصين رضي الله تعالى عنهما قال : كانت ثقيف حلفاءَ لبني عُقَيل ، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأسر أصحابُ رسول الله ﷺ رجلاً من بني عُقَيل ،...الحديث بطوله ، وفي آخره ـ ففُدي بالرجلين ،... الحديث بطوله ، رواه مسلم[1] وقد مر ذكره قبل قليل .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب النذر : باب لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد ، رقم (٨).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال : غزونا فَزارةَ ، وعلينا أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أمَّره رسول الله ﷺ علينا ،...وفيه : فنفَّلني أبو بكر ابنتَها ، فقدمنا المدينةَ ، وما كشفتُ لها ثوباً ، فلقيني رسولُ الله ﷺ في السوق ، فقال : « يا سلمة ، هب لي المرأة » فقلت : يا رسول الله ؛ والله لقد أعجبتني ، وما كشفتُ لها ثوباً ، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق ، فقال لي : « يا سلمة ، هب لي المرأةَ ، لله أبوك » فقلت : هي لك يا رسول الله ، فوالله ما كشفت لها ثوباً ، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، ففدى بها ناساً من المسلمين ؛ كانوا أُسروا بمكة . رواه مسلم(١).

في أمثلة متعددة .

ج ـ **المفاداة . وتكون في أمرين :**

١ ـ المفاداة بالمال ، وذلك بأخذ فدية مالية عن كل أسير :

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ جعل فداءَ أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . رواه أبو داود والنسائي والطبراني ، والبيهقي ، والحاكم وصححه(٢).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : أُتي النبيّ ﷺ بمال من البحرين ، فقال : « انثروه في المسجد »... إذ جاء العباس فقال : يا رسول الله ؛ أعطني ، فإني فاديتُ نفسي وفاديتُ عقيلاً . فقال : « خذ » فحثا في ثوبه ،... الحديث

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى ، رقم (٤٦).

(٢) سنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في فداء الأسير بالمال ، رقم (٢٦٩١) والسنن الكبرى للنسائي : كتاب السير : باب الفداء (٥ : ٢٠٠) والمعجم الكبير (١٢ : ١٨٣) والمستدرك (٢ : ١٢٥ ، ١٤٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٦ : ٣٢١ـ ٣٢٢) (٩ : ٦٨).

بطوله، رواه البخاري تعليقاً[١].

وعنه رضي الله تعالى عنه، أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابنِ أختنا عباس فِداءَه. فقال: « لا تَدَعون منه درهماً ». رواه البخاري[٢].

لقد طلبوا من النبي المصطفى الكريم ﷺ أن يُسقطوا فداءَ العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه ـ ابن أختهم ـ باعتبار أن أُمَّ عبد المطلب سلمى بنت عَمْرو بن أُحيحة، هي من بني النجار، ولكن النبي الكريم ﷺ رفض إلا أن يأخذوا فداءَه كاملاً، مع أن العباس رضي الله تعالى عنه هو عم رسول الله ﷺ.

وأَسر ﷺ سُهيل بن عَمْرو، وأبا وداعة السهمي، وغيرَهما، ففاداهم بأربعة آلاف، أربعة آلاف[٣].

بل فادى ﷺ بعضَهم بأقل من ذلك، لعدم قدرتهم على المال[٤].

٢ ـ المفاداة بغير المال. وذلك لمن لم يكن له مال، وعنده مهنة ـ مثلاً ـ يحتاج إليها المسلمون، فيعلِّم الأسيرُ عدداً من أبناء المسلمين، ثم يُطلَق

(١) صحيح البخاري: كتاب الجزية: باب ما أقطع النبيُّ ﷺ من البحرين، وفي غيرهما. وانظر: فتح الباري (١: ٥١٦) وهدي الساري (٢٥) وتغليق التعليق (٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٨) وعمدة القاري (٣: ٤١٦) لبيان من وصله.

(٢) صحيح البخاري: كتاب العتق: باب إذا أُسِر أخو الرجل أو عمُّه هل يُفادى إذا كان مشركاً؟ وفي غيرهما.

(٣) انظر اختلاف الحديث (٨٩) ومعرفة السنن والآثار (١٣: ١٩٩) ومجمع الزوائد (٦: ٨٨، ٩٠).

(٤) انظر اختلاف الحديث، ومعرفة السنن والآثار، وعامة كتب السير، عند غزوة بدر.

سراحُه بعد ذلك .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ فداءَهم أن يُعلِّموا أولادَ الأنصار الكتابة . قال : فجاء يوماً غلامٌ يبكي إلى أبيه ، فقال : ما شأنُك ؟ قال : ضربني معلِّمي . قال : الخبيثُ يطلب بِذَحَل بدر ؟ والله لا تأتيه . رواه أحمد والبيهقي ، والحاكم وصححه ، وأقره الذهبي(1).

والذّحل : العداوة والثأر .

د ـ هل يجوز قتل الأسرى ؟.

الأصل عدم جواز قتل الأسير ، لأنه ﷺ حث على الإحسان إليهم ، ومن الإحسان : عدم القتل . إلا إذا كانت مصلحةُ المسلمين تقتضي ذلك . كأن يكون أوهنَ للعدو ، وأنكأ له ، أو تكرَّر حربُه للمسلمين ، أو تكرَّر أسره ، أو كان من الخطورة البينة على المسلمين ، أو كان ممن يجمِّع لقتال المسلمين والفتك بهم ، أو ممن يعين عليهم ، أو كان تجاوز الحد في عدوانه ، أو كان مسلماً فارتد عن الإسلام ولم يعد إليه ، أو كان قَتل مسلماً عمداً ، فإن كان كذلك جاز ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ ، مع بعض الأسرى .

والخلاصة : إذا كان الخلاص منه راحةً للمسلمين ، فالراحة منه راحة .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : حاربتْ النضيرُ وقريظة ، فأجلى بني النضير ، وأقر قريظة ، ومنَّ عليهم . حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم ، وقسم نساءهم وأولادهم بين المسلمين ،... متفق عليه . وقد سبق ذكره قبل قليل .

---

(1) مسند أحمد (1 : 247) والمستدرك (2 : 140) والسنن الكبرى (6 : 322).

لم يقتل رسول الله ﷺ بني النضير ، ولكن أجلاهم ، مع أنهم حاولوا اغتياله ﷺ عندما قدم إلى ديارهم ـ سواء بإلقاء الرّحى من فوق السطح عليه ﷺ ، أو باغتياله بالخناجر التي اشتمل عليها أحبارُهم ـ فجاءه الوحيُ بذلك . وأقر بني قريظة في ديارهم ، فلما تكرّر الغدرُ منهم ، وتمالؤوا مع المشركين على المسلمين ، وذاق المسلمون ذرعاً منهم ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾(1). لذا كان الخلاص منهم ـ بقتلهم ـ هو الحل الوحيد لغدرهم وخيانتهم ، ونقضهم للعهد ، وتواطئهم مع الكفار . وهذه هي عقوبتهم كما نصت عليها التوراة ، في سفر التثنية ، من العهد القديم ، كما سيأتي بيانه بعد قليل إن شاء الله تعالى .

وقد أسر ﷺ عقبةَ بن أبي معيط يوم بدر ، فقتله ، لأنه كان من أشد المعارضين والمؤذين لرسول الله ﷺ حتى نزل فيه قرآن يتلى ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾(2).

وأسر ﷺ يومَ بدر : النضر بن الحارث ، الذي كان يخلُف النبيَّ ﷺ في مجلسه ، ويهزأ بالقرآن ، وأنه أساطير الأولين ، ويصد الناس عن الإسلام ، فأمر بقتله أيضاً(3).

(1) سورة الأحزاب (10).

(2) سورة الفرقان (27 ـ 29) وانظر أسباب النزول (347 ـ 348) وتفسير الطبري (19 : 262 ـ 263) وتفسير البغوي (3 : 367) وتفسير القرطبي (13 : 25 : 26) والدر المنثور (4 : 250 ـ 253) والأم (4 : 156) ومعرفة السنن والآثار (13 : 197).

(3) الأم (4 : 156) واختلاف الحديث (89) ومعرفة السنن والآثار (13 : 198).

وأسر رسولُ الله ﷺ أبا عزة الجمحي يومَ بدر ، فمنَّ عليه بلا فدية ، تركه رسول الله ﷺ لبناته ، وأخذ عليه عهداً ألّا يقاتله ، لكنه غدر فأخفره ، وقاتله يوم أحد . فدعا رسول الله ﷺ عليه أن لا يفلت منهم ، فما أُسر من المشركين رجلٌ غيره . فأمر ﷺ بقتله . رواه الشافعي[1].

ـ وقتل امرأة يهودية من يهود بني قريظة ـ بعد أسرها ـ لأنها كانت قد ألقت الرحى على خلّاد بن سُويد رضي الله تعالى عنه فقتلته . فقُتلت به ، رواه الشافعي في القديم وابن إسحٰق وأحمد وأبو داود والحاكم في آخرين[2].

وخلاصة الأمر : إذا كان سببٌ موجب لقتله جاز قتلُه ، أما إذا لم يوجد سببٌ موجب ؛ فالإحسان إليه هو المطلوب ، والله تعالى أعلم .

هـ ـ الاسترقاق .

إذا كان المسلمون بحاجة إلى الرقيق ، سواء للعمل في البيت ، أو غيره ، ورأى الإمامُ الحاجةَ ماسّةً لاسترقاق الأسرى ؛ من رجال أو نساء أو أولاد ، فإنه يأمر باسترقاقهم ، ونقلهم من أسرى إلى أرقاء . كما قسم رسول الله ﷺ السبيَ بين المسلمين ، وتكون قسمتهم كقسمة المال بينهم .

وقد أقر ﷺ حكمَ سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه في استرقاق ذراري بني قريظة ، مع أنهم مواليه .

---

(١) اختلاف الحديث (٨٩) والأم (٤ : ١٥٦) ومعرفة السنن والآثار (١٣ : ١٩٩) وعامة كتب السير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣ : ٣٣٤ ـ ٣٣٥) ومعرفة السنن والآثار (١٣ : ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ومسند أحمد (٦ : ٢٧٧) وسنن أبي داود : كتاب الجهاد : باب في قتل النساء ، رقم (٢٦٧١) والمستدرك (٣ : ٣٥ ـ ٣٦) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٨٢) وتاريخ الطبري (٢ : ٥٨٩).

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : نزل أهلُ قريظة على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ، فأتاه على حمار ، فلما دنا قريباً من المسجد[1]. قال رسول الله ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم - أو خيركم - ثم قال : إن هؤلاء نزلوا على حكمك » قال : تَقتل مقاتلتَهم ، وتَسبي ذرِّيتَهم . فقال النبيُّ ﷺ : « قضيت بحكم الله - وربما قال : بحكم الملِك ». متفق عليه[2].

وروياه[3] من حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها ، وفيه قوله رضي الله تعالى عنه : فإني أحكم فيهم ؛ أن تُقتلَ المقاتِلَةُ ، وأن تُسبى الذُّرِّيَّةُ والنساءُ ، وتُقسم الأموال.اهـ.

لقد كان في حكم التوراة أن الذين يغدرون : أن يُقتلوا وتُسبى نساؤهم وذراريهم ، وتؤخذ أموالهم ، لذا كان حكمُ سعدٍ رضي الله تعالى عنه مطابقاً لما هو موجود في أصل كتابهم ، فكان موافقاً لحكم الله تعالى ، والله تعالى أعلم[4].

---

(١) المراد به : المسجد الذي اتخذه رسول الله ﷺ ، ليصلي فيه عند حصاره لبني قريظة ، وبقي ﷺ يصلي فيه نحواً من (٢٥) يوماً ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، ويُعرف هذا المسجد بمسجد بني قريظة ، وقد أزيل قبل سنتين تقريباً .

(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب جواز قتال من نقض العهد ،... رقم (٦٤ - ٦٦).

(٣) في الصحيحين ، في الكتابين والبابين السابقين ، ورقمه عند مسلم (٦٥ - ٦٦).

(٤) جاء في سفر التثنية ، من العهد القديم ، الإصحاح الثالث عشر ، ما لفظه : إن سمعتَ عن إحدى مدنك - التي يعطيك الربُّ إلهُك لتسكن فيها - قولاً ، قد خرج أناسٌ بنو لئيم من =

= وسطك وطوَّحوا سكان مدينتهم قائلين : نذهب ونعبد آلهةً أخرى لم تعرفوها ، وفحصْتَ وفتَّشتَ وسألتَ جيِّداً وإذا الأمر صحيح وأكيد قد عُمل ذلك الرجسُ في وسطك ، **فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف ، وتحرِّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، تجمع كلَّ أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكلّ أمتعتها كاملةً للرب إلهك ، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد** ، ولا يلتصق بيدك شيء من المحرَّم لكي يرجع الرب من حموِّ غضبه ويعطيك رحمة .

وجاء في سفر التثنية ، من العهد القديم ، الإصحاح العشرين ، ما لفظه : حين تقرب من مدينة لكي تحاربها ؛ استدعها إلى الصلح ، **فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلُّ الشَّعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويُستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الربُّ إلهُك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما** في المدينة **كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربُّ إلهُك ، هكذا تفعل بكل المدن البعيدة منك جدّاً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهُك نصيباً فلا تَسْتَبْقِ منها نسمةً ما ، بل تحرّمها تحريماً** ؛ الحثيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الربُّ إلهُك ،...إلخ.

ففي هذين النصين ما يلي :

١ـ استعباد [استرقاق] الشعب الذي ينزلون على حكمه من غير قتال ، ويفتحون البلد له سلماً .

٢ ـ قتل جميع الرجال بالسيف ، إذا رفضوا فتح البلد سلماً ، وفتحها عنوة .

٣ـ استرقاق جميع النساء والأطفال والأموال ، فيكون الجميع غنيمة له .

٤ ـ البلاد التي تخالفه في الفكر والعقيدة ، يقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم ، ويجمع جميع الأموال في وسط البلد ويحرقها . وهكذا يفعل في جميع المدن إذا حاصرها أو فتحها .

هذه هي عقيدة اليهود ومن شايعهم ، لذا كان حكم سعد رضي الله تعالى عنه مطابقاً لما هو موجود في شريعتهم ،...

ثم لينظر إلى الفارق الكبير بين هذه النظرة ، وبين معاملة النبي المصطفى الكريم ﷺ =

وعن عطية القرظي رضي الله تعالى عنه قال : كنت من سبي بني قريظة ، فكانوا ينظرون ؛ فمن أنبتَ الشعَرَ قُتل ، ومن لم ينبت لم يقتل ، فكنت فيمن لم ينبت ، فخلّى سبيلي ، ولم يقتلني .

وفي رواية ـ فكشفوا عانتي ؛ فوجدوها لم تنبت ، فجعلوني في السبي . رواه الشافعي وعبد الرزاق والطيالسي والحميدي وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والدارمي والخمسة والطحاوي، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان[1]. والحديث له أصل في الصحيحين .

= للأسرى وللشعوب والقبائل التي يريد غزوها ، حيث يدعوها إلى الإسلام أولاً ، فإن أسلمت كان حكمُها حكمَ المسلمين ، وإن أبت فالجزية ، ولا يسمح للصحابة رضي الله تعالى عنهم باستباحة جميع الخلق ، كما هي نظرة اليهود الموجودة في النص الذي ذكرته .

(١) السنن (رقم ٦٥٣) ومعرفة السنن والآثار (١٣ : ١٩٤ ، ١٩٥) ومصنف عبد الرزاق (١٠ : ١٧٩) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢ : ٣٨٤ ، ٥٣٩ ـ ٥٤٠) والطبقات الكبرى (٢ : ٧٦ ـ ٧٧) ومسند الطيالسي (١٨١رقم ١٢٨٤) ومسند الحميدي (٢ : ٣٩٤) وسنن الدارمي (٢ : ١٤٢) وسنن سعيد ابن منصور (٢ : ٣٧٢) ومسند أبي عوانة (٤ : ٥٥ ـ ٥٧ من طرق) ومسند أحمد (٤ : ٣١٠ ، ٣٨٣) (٥ : ٣١١ ـ ٣١٢ ، ٣١٢) والمنتقى لابن الجارود (٣٤٨ ـ ٣٤٩) وسنن أبي داود : كتاب الحدود : باب في الغلام يصيب الحد ، رقم (٤٤٠٤ ، ٤٤٠٥) وسنن الترمذي : كتاب السير : باب ما جاء في النزول على الحكم ، رقم (١٥٨٤) وسنن النسائي : كتاب الطلاق : باب متى يقع طلاق الصبي (٦ : ١٥٥) وكتاب قطع السارق : باب حد البلوغ (٨ : ٩٢) والسنن الكبرى (٣ : ٣٥٩) (٤ : ٣٤٩) (٥ : ١٨٥) وسنن ابن ماجه : كتاب الحدود : باب من لا يجب عليه الحد ، رقم (٢٥٤١ ، ٢٥٤٢) وشرح معاني الآثار (٣ : ٢١٦ ـ ٢١٧ من طرق) والمعجم الكبير (١٧: ١٦٣ ـ ١٦٥ من طرق) والمستدرك (٢ : ١٢٣) (٣ : ٣٥) (٤ : ٣٨٩، ٣٩٠) وصحيح ابن حبان (١١: ١٠٣ـ ١٠٥ من طرق ، ١٠٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٦ : ٥٨) (٩ : ٦٣).

فمن رحمته ﷺ وشفقته وعفوه ،... أنه لم يقتل من لم يبلغ ، لأن من كان كذلك لا يشترك في القتال غالباً ، أما لو اشترك فحكمه حكم المقاتلين ، والله تعالى أعلم .

فمن كان خطراً على المسلمين ، ولا ينفع فيه النصح ، ولا تفيده الرحمة بل وجوده خطر ، وبقاؤه خطر وفساد ، فالرحمة في حق المجتمع هي الراحة منه . حالُه كحال العضو إذا صار خطراً على باقي الجسد ، فسلامة الجسد ببتر ذلك العضو ، والله تعالى أعلم .

- حسن معاملة العبيد .

ومن مظاهر الرحمة التي شملت الكفار : حثُّه ﷺ على حسن معاملة العبيد من ذكور وإناث ، خاصة إذا كانوا مسلمين ، بحيث إنه ﷺ جعلهم إخواناً للأسياد ، وطلب من الأسياد أن يجلسوهم معهم على المائدة ، فإن أبوا فليطعموهم من أصل الطعام ، ونهى ﷺ الأسيادَ أن ينادوا من تحت أيديهم باسم العبد والأَمَة ، وإنما بالفتوة ، ونهى ﷺ أيضاً أن يخاطِب العبيدُ أسيادَهم بالربوبية ، مع أنه جائز في اللغة كما سيأتي ، وهذا شامل للمؤمن والكافر .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقولن أحدُكم : أطعم ربَّك ، وضِّئ ربَّك ، اسق ربَّك . وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدُكم : عبدي وأَمَتي ، وليقل : فتايَ وفتاتي وغلامي ». متفق عليه[1].

وفي رواية لهما[2] قال ﷺ : « لا يقولن أحدُكم : عبدي وأمتي ، ولا

(١) انظر التخريج في الفقرة بعد التالية .

(٢) انظر التخريج في الفقرة التالية .

يقولَنَّ المملوك : ربي وربَّتي ، ليقل المالكُ : فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك : سيدي وسيدتي ، فإنكم المملوكون ، والربُّ : الله عز وجل ».

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه قال : قال ﷺ : « لا يقولن أحدُكم : عبدي ، فكلُّكم عبيدُ الله ، ولكن لِيَقل : فتاي ، ولا يقل العبدُ : ربي ، ولكن لِيَقل : سيدي » لفظ مسلم[1].

لقد كان إطلاق لفظ الرب على السيد شائعاً ومعروفاً في الأمم السابقة ، أما ترى قولَ يوسف عليه السلام ـ مخاطباً امرأة العزيز حينما راودته عن نفسه ـ : ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾[2]. ولكن الرحمة المهداة ﷺ أربأ بالمسلم أن يخاطب مملوكَه بالعبدية ، ويخاطبه العبدُ بالربوبية ؛ حرصاً على إنسانية العبد ، وعدم التعالي عند السيد ، والله تعالى أعلم .

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى[3] ـ مبيّناً سبب المنع : لأن الإنسان مربوبٌ متعبَّد بإخلاص التوحيد لله عز وجل ، وترك الإشراك معه ، فكره له المضاهاةَ بالاسم ، لئلا يدخل في معنى الشرك ، والحر والعبد في هذا بمنزلة واحدة ، فأما ما لا تعبُّد عليه من سائر الحيوان والجماد فلا بأس بإطلاق هذا الاسم عليه عند الإضافة ، كقولك : ربُّ الدّابّة ، وربُّ الدار ، وَ[رب] الثوب ، ونحوها .

ولم يمنع العبد أن يقول : سيدي ومولاي ، لأن مرجع السيادة إلى

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب كراهية التطاول على الرقيق . وصحيح مسلم : كتاب آداب الألفاظ : باب حكم إطلاق العبد والأَمَة والمولى والسيد ، رقم (١٣ ـ ١٥).

(٢) سورة يوسف (٢٣).

(٣) أعلام الحديث (٢ : ١٢٧١ ـ ١٢٧٢) ونقله الحافظ في الفتح (٥ : ١٧٩).

معنى الرئاسة على من تحت يده ، والسياسة له ، وحُسن التدبير لأمره ، ولذلك سُمِّي الزوج سيِّداً . قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ ﴾[1]. وقال النبيُّ ﷺ في الحسن بن علي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : « إن ابني هذا سيدٌ ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين ،... »[2]. وكان ما جرى منه رضوان الله عليه في ذلك المقام : حُسن تدبير ونظر سياسة.اهـ.

وعن المعرور بنِ سُويد رحمه الله تعالى قال : لقيتُ أبا ذرٍّ رضي الله تعالى عنه بالربذة ، وعليه حُلَّةٌ ، وعلى غلامه حُلَّةٌ . فسألته عن ذلك ، فقال : إني سابتُ رجلاً ، فعيَّرتُه بأُمِّه ، فقال ليَ النبيُّ ﷺ : « يا أبا ذرٍّ ، أَعَيَّرتَه بأمِّه ؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية ، إخوانُكم خَوَلُكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليُطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبُهم ، فإن كلّفتموهم فأعينوهم ». متفق عليه[3]. وللحديث روايات أخر .

أين دعاة الحضارة وحقوق الإنسان من هذه المكارم ، العبد : هو أخ ، وعلى سيده أن يطعمه مما يأكل ، وأن يلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه فوق طاقته ، وإن كلفه يلزمه إعانته ،... ولكنه الرحمة المهداة ، الرحمة للعالمين ﷺ ؛ الذي يشعر بشعور الإنسان ؛ مهما كان لونه أو جنسه أو عنصره ،...إلخ.

---

(١) سورة يوسف (٢٥).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه : كتاب الصلح : باب قول النبيِّ ﷺ للحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين »، وفي غيرهما . ولفظه في كل الأبواب فيه « ولعل الله أن يصلح به ... » الحديث .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الإيمان : باب المعاصي من أمر الجاهلية ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الأيمان : باب إطعام المملوك مما يأكل ،... رقم (٣٨ ـ ٤٠).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صنع لأحدكم خادمُه طعامَه ، ثم جاءه به ، وقد وَلِيَ حرَّه ودخانَه ، فليُقعدْه معه ، فليأكلْ . فإن كان الطعام مشفوهاً ـ قليلاً ـ فليضع في يده أُكلةً أو أُكلتين ». متفق عليه[1].

فيه بيان حسن معاملة الإسلام للعبيد والخدم ،... حيث أمر رسول الله ﷺ الأسياد أن يُجلسوا العبدَ والخادم معهم على المائدة ، إذا كان هو الذي تولى طبخه ـ جزاء تعبه ونفخه وطبخه ـ فإن أبى فليسكب له من رأس القِدر .

ـ فتح باب الإعتاق على مصراعيه .

من رحمة الإسلام ـ المتمثِّل بالكتاب والسنة ـ وعلى المسلمين التطبيق : حثُّه على الإعتاق ، فقد فتح الإسلام باب الإعتاق على مصراعيه ، يوم كان الناس يسترقّون الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، بل إن رسول الله ﷺ اعتبر العبد المؤمن ـ وإن كان عبداً مملوكاً ـ أخاً للسيد ، وحث على الإحسان إليه بما لم تعطه الدول الحاضرة للأحرار من البشر[2].

ومن فتح باب الإعتاق : جعله من الكفارات ، ومن التقرب إلى الله تعالى ، بالإضافة إلى تقسيمه للرقيق ، في تفاصيل يأتي بيان مختصرها .

ففي مجال الكفارات ؛ جعل الإعتاق هو ضمن الكفارة في القتل الخطأ ـ ولو كان المقتول من قوم عدو ـ وفي الظهار ، واليمين المنعقدة ،...إلخ.

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الأيمان : باب إطعام المملوك مما يأكل ،... رقم (٤٢).

(٢) انظر : الرحمة المهداة ﷺ ، في فصل (رحمته ﷺ بالعبيد).

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١).

ففي الآية ثلاث كفارات : كفارة قتل المؤمن خطأً من بلاد المسلمين ، وقتل المؤمن من قوم أعداء أهل حرب ، وقتل المؤمن وأولياؤه من أهل الذمة أو الهدنة ، في تفاصيل استوعبتها كتب الفروع . لكن لما كان المقتول مؤمناً خص الرقبة التي تُعتق بالإيمان أيضاً .

وقال الله تعالى عن كفارة الظهار : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

وقال جل شأنه ـ عن كفّارة اليمين المنعقدة ـ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ ... ﴾(٣).

لقد جاءت الرقبة المعتقة في هاتين الآيتين مطلقةً ، لذا ذهب جمعٌ من الفقهاء إلى جواز إعتاق الرقبة الكافرة ، والله تعالى أعلم .

بل حث الشارع الحكيم على بذل المال في إعتاق الرقاب ، وجعل ذلك

(١) سورة النساء (٩٢).

(٢) سورة المجادلة (٣).

(٣) سورة المائدة (٨٩).

أحد وجوه البر .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ،... ﴾[1].

بل جعل ذلك أحد وجوه مصارف الزكاة .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

بل جعل الله تعالى الإعتاق أحد وجوه تجاوز العقبات يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ،... ﴾[3]. الآيات .

بل دعا إلى الإحسان إلى الرقيق أيًا كان دينه ، وقرن ذلك بعبادته تعالى ، وعدم الشرك به ، وبالإحسان إلى الوالدين .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾[4].

ومن حثه ﷺ على إعتاق الرقبة المسلمة : أن جعل كلَّ عضو من العبد

---

(١) سورة البقرة (١٧٧).

(٢) سورة التوبة (٦٠).

(٣) سورة البلد (١١ ـ ١٤).

(٤) سورة النساء (٣٦)، في آيات متعددة .

المؤمن المعتَق يعتق عضواً من أعضاء سيده .

فعن سعيد بن مرجانة رحمه الله تعالى ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبةً مؤمنة ؛ أعتق الله بكل عُضوٍ منه عضواً من النار ، حتى يُعتق فرجَه بفرجه ».

قال : فانطلقتُ - حين سمعت الحديثَ من أبي هريرة - فذكرتُه لعليّ بنِ الحسين ، فأعتق عبداً له قد أعطاه به ابنُ جعفر عشرةَ آلاف درهم - أو ألفَ دينار . متفق عليه[1]. والأحاديث كثيرة في هذا الباب .

بل جعل من عمل أعمالاً صالحة وهو مشرك ، ثم أسلم ، فإنه ينتفع بها بعد إسلامه ، ولا تضيع عليه ، لا أنه ينتفع بها حال شركه ، والله تعالى أعلم .

فعن حكيم بن حِزام رضي الله تعالى عنه ، أنه قال : يا رسول الله ؛ أرأيتَ أموراً كنتُ أتحنّث بها في الجاهلية ؛ من صدقةٍ ، أو عتاقة ، أو صلةِ رحم ، أفيها أجرٌ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير ». متفق عليه .

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه ، أنه أعتق في الجاهلية مائةَ رقبةٍ ، وحمل على مائةِ بعيرٍ . ثم أعتق في الإسلام مائةَ رقبة ، وحمل على مائة بعير . الحديث ، متفق عليه[2].

والرقيق : ستة أقسام هي ؛ القِن ، والمكاتَب ، والمبعّض ، والمعلَّق عتقُه

(١) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب في العتق وفضله ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب العتق : باب فضل العتق ، رقم (٢١ - ٢٤).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الزكاة : باب من تصدّق في الشرك ثم أسلم ، وكتاب العتق : باب عتق المشرك ، وفي غيرها . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ، رقم (١٩٤ - ١٩٦).

بصفة ، والمدبَّر ، وأم الولد . ولكل قسم منها حكم خاصّ به ، استوعبته كتب الفقه . ولا أعني في باب المواريث ، إنما أتحدَّث عن الإعتاق .

فالمكاتب : هو الذي يشتري نفسَه من سيده لقاء مبلغ من المال يسدِّدُه على أقساط ، فيلزم السيد أن يكاتبه ، وأن يُسقط من ثمنه بعضَ الأقساط .

قال الله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ** ﴾[1].

فإذا سدَّد العبدُ غالبَ الأقساط ، فعلى السيد أن يُسقط عنه ما تبقى من المال ، أو يعطيه بعضَ المال ، لقول الله تعالى : ﴿ **وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ** ﴾.

بل من رحمة الله جل شأنه بالمكاتَب أن أوجب الله تعالى على ذاته الشريفة إعانة المكاتَب إذا كان مسلماً ، وإن كان اللفظ عامّاً .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاثٌ حقٌّ على الله أن يعينَهم : المجاهدُ في سبيل الله ، والناكحُ يريد أن يستعفف ، والمكاتَبُ يريد الأداء ». رواه أحمد وعبد الرزاق والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الجارود والبيهقي والبغوي ، وحسنه الترمذي والبغوي ، وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي[2]، في آخرين .

---

(١) سورة النور (٣٣).

(٢) مسند أحمد : (٢ : ٢٥١ ، ٤٣٧) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ٢٥٩) وسنن الترمذي : كتاب فضائل الجهاد : باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب ، وعون الله إياهم ، رقم (١٦٥٥) وسنن النسائي : كتاب الجهاد : باب فضل الروحة في سبيل الله عز وجل ، وكتاب النكاح : باب معونة الله الناكح يريد العفاف (٦ : ١٥-١٦ ، ٦١) والسنن الكبرى (٣ : ١٢ ، =

والمبَعَّض : فهو أن يكون مشترَكاً بين اثنين أو أكثر ، فإذا أعتق أحدُهما نصيبَه ، قُوِّم عليه قيمة العبد ، إن كان غنيّاً ، وإلا فقد عتق منه ما عتق ، وعلى العبد أن يستسعي[1]. لسداد بقية ثمنه .

فعن عبد الله بن عُمَر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن أَعتق شِركاً له في عبد ، فكان له مال يبلغُ ثمنَ العبد ؛ قُوِّم عليه قيمةُ العدل ، فأعطى شركاءَه حصصهم ، وعتَق عليه العبدُ ، وإلا فقد عتق منه ما عتق ». متفق عليه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « من أعتق شقيصاً له في عبد ، فخَلاصُه في مالِه إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال ، استسعى العبدُ غيرَ مشقوقٍ عليه ». متفق عليه[3].

فقد ألزم رسول الله ﷺ السيدَ الغنيَّ الذي يعتق نصيبَه ألا يُبقي العبدَ

= ١٩٤) وسنن ابن ماجه : كتاب العتق : باب المكاتب ، رقم (٢٥١٨) والمنتقى لابن الجارود (٣٢٦-٣٢٧) ومسند أبي يعلى (١١: ٤١٠) وصحيح ابن حبان (٩ : ٣٣٩) والمستدرك (٢ : ١٦٠ ، ٢١٧) وشرح السنة (٩ : ٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٧ : ٧٨) والجهاد لابن أبي عاصم (١ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(١) انظر : مكانة الصحيحين (٣٤٨ ـ ٣٦٠) فقد ذكرت روايات الاستسعاء ، ورد الشبه نحوها ، ومن قال به من الفقهاء .

(٢) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب إذا أعتق عبداً بين اثنين ، أو أمة بين الشركاء ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب العتق ، رقم (١) وكتاب الأيمان : باب من أعتق شركاً له في عبد ، رقم (٤٧ ـ ٥٢).

(٣) صحيح البخاري : كتاب العتق : باب إذا أعتق نصيباً في عبد وليس له مال استسعى العبد غير مشقوق عليه ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٥٢ ـ ٥٥) وفي كتاب العتق : باب ذكر سعاية العبد ، رقم (٢ ـ ٤).

معلَّقاً ، وعليه أن يشتري بقيتَه ، ويعتقه كاملاً ، أما إذا لم يكن عنده مال يَفي بقيمة بقيته فلا عليه شيء ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

والمدبَّر : هو أن يعلَّق عتقُه على موت سيده ، فإذا مات سيدُه عتق . ويكون ذلك من الثلث الذي جاز للمالك التصرف به بعد وفاته .

وأم الولد : وهي التي تسّرى بها سيدها ، فولدت منه ، فلا تُباع ، ولا تُوهب ، ولا تُعار ، وتبقى عند سيدها ، حتى إذا مات عتقت .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وَلدت أَمَةُ الرجل منه فهي معتقةٌ عن دُبُر منه » رواه أحمد وعبدالرزاق وابن أبي شيبة والدارمي وابن ماجه والدارقطني والحاكم[1].

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما ، أن النبيَّ ﷺ نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وقال : « لا يُبَعنَ ، ولا يُوهبنَ ، ولا يُورثْن ، يَستمتع بها سيدُها ما دام حيّاً ، فإذا مات فهي حرة ». رواه الدارقطني بإسناد جيد[2].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما ولدتْ أمُّ إبراهيم قال رسول الله ﷺ : « أعتقها ولدُها ». رواه ابن ماجه والدارقطني والحاكم، وصححه ابن حزم ، وجوّده ابن القطان والحافظ ابن حجر من طريق قاسم بن أصبغ[3].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٧ : ٢٩٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٦ : ٤٣٦) ومسند أحمد (١ : ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٠) وسنن الدارمي (٢ : ١٧٢) وسنن ابن ماجه : كتاب العتق : باب أمهات الأولاد ، رقم (٢٥١٥) وسنن الدارقطني (٤ : ١٣٠ ـ ١٣٣من طرق) والمعجم الكبير (١١ : ٢٠٩) والمستدرك (٢ : ١٩) والسنن الكبرى (١٠ : ٢٤٦).

(٢) سنن الدارقطني (٤ : ١٣٤) وانظر الاعتبار للحازمي (١٦).

(٣) سنن ابن ماجه : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٢٥١٦) وسنن الدارقطني(٤ : =

وعن سلامة بنت معقل رضي الله تعالى عنها ـ وهي امرأة من خارجة قيس عيلان ـ قالت : قدم بي عمي في الجاهلية ، فباعني من الحُباب بنِ عَمْرٍو ـ أخي أبي اليَسَر ـ فولدتُ له عبدَ الرحمن بنَ الحُبَاب ، ثم هلك ، فقالت لي امرأتُه : الآن والله لتباعين في دَينه ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ؛ إني امرأةٌ من خارجة قيس عَيلان ، قدم بي عمي المدينةَ في الجاهلية ، فباعني من الحُباب بنِ عَمْرو ـ أخي أبي اليَسَر بن عَمْرو ـ فولدتُ له عبدَ الرحمن بنَ الحُباب ، فقالت امرأتُه : الآن والله تُباعين في دَينه . فقال رسول الله ﷺ : « مَن وليُّ الحُباب بنِ عَمْرو ؟ » قيل : أخوه أبو اليَسَر . فبعث إليه رسول الله ﷺ ، فقال : « أعتقوها ، فإذا سمعتم برقيق قدم عَلَيَّ فائتوني به ، أُعوِّضْكم منها » قالت : فأعتقوني ، وقدم على رسول الله ﷺ رقيقٌ ، فعوَّضهم مني غلاماً . رواه أبو داود وأحمد والطبراني ، والبيهقي[1]. وقال : أحسن شيء روي فيه عن النبيّ ﷺ . وشاهده ما سبق ، فهو به حسن .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى[2] : إذا وطئ الرجلُ أَمَتَه بالملك ،

= ١٣١ ـ ١٣٣) والمستدرك (٢ : ١٩) والسنن الكبرى (١٠ : ٢٤٦) والمحلى (٩ : ١٨) ونصب الراية (٣ : ٢٨٧) والأحكام الوسطى (٤ : ٢٣ ـ ٢٤) وبيان الوهم والإيهام (رقم ٥٨) وانظر التمهيد لابن عبد البر (٣ : ١٣٧ ـ ١٣٨) حيث استدل به مرجّحاً به على غيره ، وشرح السنة (٩ : ٣٧٠) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠ : ٢٤٨) والدراية (٢ : ٨٧).

(١) مسند أحمد (٦: ٣٦٠) وسنن أبي داود : كتاب العتق : باب في عتق أمهات الأولاد ، رقم (٣٩٥٣) والمعجم الكبير (٤: ٥١ ـ ٥٢) (٢٤ : ٣٠٩ ـ ٣١٠) والسنن الكبرى (١٠: ٣٤٥) ومعرفة السنن والآثار (١٤ : ٤٧٠) وأسد الغابة (٦ : ١٤٦).

(٢) الأم (٦ : ٨٨) وانظر مختصر المزني (٥ : ٢٨٦) والسنن الكبرى (١٠ : ٣٤٢) ومعرفة السنن والآثار (١٤ : ٤٦٧).

فولدت له ، فهي مملوكة بحالها ، لا ترِث ولا تورث ،... ولا تخالف المملوكَ في شيء إلا أنه لا يجوز لسيدها بيعُها ، وإذا لم يحل له بيعُها لم يحل له إخراجُها عن ملكه بشيء غير العتق ، وأنها حرة إذا مات من رأس المال.اهـ.

ـ أخلاقه ﷺ وسعت الكفارَ جميعاً .

لقد وصف الله تعالى نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ بأنه على خلق عظيم .

قال الله تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(1).

لقد أقسم الله تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ بالنون والقلم وما يسطرون ، بأنه ليس بمجنون ، وعطف عليه كون أجره ﷺ غير ممنون ، وأنه ﷺ على خلق عظيم .

وقد أكد الله تعالى عظمة خُلقه ﷺ ، فهو عدا عن كونه مندرجاً فيما أقسم عليه ، فقد أتى باللام ، وأدخلها على (على) التي تفيد الاستعلاء والتمكن ، فقال تعالى : ﴿ لَعَلَىٰ ﴾ ولم يقل : (ذو خلق عظيم) للدلالة على الرسوخ في التمكن والاستعلاء ، وأنه ﷺ فوق كل خُلق عظيم .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ عَظِيمٍ ﴾ ولم يصفه بصفة أخرى ، لأن العظمة تفيد الاستعلاء والعلو والكمال .

ثم إنه تعالى أفرد الخُلق ، لينبه على أن هذا الخُلق الذي هو عليه لم يكن خُلقٌ أحسنَ منه ، فيكون شاملاً لجميع أجناس الخُلق ، ولا يختص بجزئية منها ، وأنه ﷺ جامع لمكارم الأخلاق المتفرقة في الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام ، لذا أُمر ﷺ أن يقتدي بكل واحد منهم فيما يختص به من

(1) سورة القلم (1 ـ 4).

الخلق الكريم ، فقال تعالى له : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[1].

فكأن كلّ واحد منهم كان مختصّاً بنوع واحد ، فلما أمر ﷺ بأن يقتدي بالكل صار كأنه أُمر بمجموع ما كان متفرِّقاً فيهم .

ولما كان ذلك درجةً عالية لم تتيسّر لأحد من الأنبياء قبله ﷺ ؛ لا جرم وصَف الله تعالى خُلُقَه بأنه عظيم ، لذا صار ﷺ مجمعَ أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وأنه ﷺ يوجد فيه ما كان متفرّقاً فيهم .

وهذا أعم ما امتدح الله تعالى به رسولاً في كتابه .

إن عناية الله تعالى بنبيه المصطفى الكريم ﷺ كانت قبل وجوده في هذه الدنيا ، وأن الله تعالى أنشأه على عينه ، وبقيت عنايته تعالى مستمرة به ، كما قال تعالى له : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾[2] لذا كانت أخلاقه ﷺ ـ وهو قبل أن يُبعث ـ غايةَ الكمال والعظمة ، لأنه ﷺ مجبول عليها في أصل خلقته ، وأول فطرته ، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة ، إنما بجودٍ إلهيٍّ ، وخصوصيةٍ ربانيةٍ ، وعناية خاصة من الله تعالى به .

وسُمِّي الخُلق خُلُقاً ؛ لرسوخه وثباته ، حتى صار بمنزلة الخِلقة التي جُبل عليها الإنسان ، وإن احتاج إلى اعتمال وطول رياضة ومجاهدة[3].

ومن كمال خُلقه ﷺ وعظمته : شموليته لجميع الخلق[4]، وهذا ما ظهر جليّاً في تعامله مع الناس ، حتى لو كانوا كفاراً ، بل مع الحيوان بل حتى مع

---

(١) سورة الأنعام (٩٠).

(٢) سورة الطور (٤٨).

(٣) انظر : مكانة النبيّ الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام (٧٨ ـ ١٣١) فقد لخصته منه .

(٤) انظر : الرحمة المهداة ﷺ ، فقد توسعت في بيان شمول الرحمة لكل الكائنات .

الجهاد ، حتى اشتاقت إليه ، وخافت عليه ، وحرصت على قربه ، وحزنت عند فراقه ، وحنَّت عند بُعده ،... وقد توسعت في بيان شمول أخلاقه الكريمة في (مكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام) فانظره .

ولهذا عُرف ﷺ منذ صغره في مكة بكمال الأخلاق ، حتى صار يلقب بالصادق الأمين ، وهو الذي بيّنه أبو سفيان ـ قبل أن يُسلم ـ لهرقل في الشام حين سأله عن أوصاف النبي المصطفى الكريم ﷺ وأخلاقه .

عن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ . قال : فبينا أنا بالشام ، إذ جيء بكتابٍ من رسول الله ﷺ إلى هرقل ـ يعني : عظيمَ الروم ،... الحديث بطوله ، وفيه : قال فدُعيت في نفر من قريش ، فدخلنا على هرقل ، فأجلَسنا بين يديه ،... فقال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ،... قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ،... قال : وسألتُك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا ، فقد عرفتُ أنه لم يكن لِيدع الكذبَ على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ،... وسألتُك : هل يغدر؟ فزعمتَ أنه لا يغدر ، وكذلك الرُّسُلُ لا تغدر ،... قال : إن يكن ما تقول حقّاً ، فإنه نبيٌّ . وقد كنتُ أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنّه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه ، لأحببتُ لقاءَه ، ولو كنتُ عنده لغسَلْتُ عن قدميه ، ولَيبْلغَنَّ ملكُه ما تحت قدمَيَّ . متفق عليه[1].

أبو سفيان كان إذ ذاك كافراً ، عدوّاً لرسول الله ﷺ ، مناصباً العداء له ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي : الباب (٧) وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، رقم (٧٤).

ومع هذا يعترف بعظمة أخلاق رسول الله ﷺ ، بأنه ﷺ لا يكذب ولا يغدر ، إضافة لسائر الصفات الأخرى ، مما حملت هرقل على التخوف على ملكه ، واعترافه بأنه نبي ، ولو كان عنده لغسل قدميه ، وأن ملك أمته ﷺ سيصل إلى بلاد الشام . وكان كذلك .

فهذه الأخلاق التي كان يتصف ﷺ بها من : تواضعٍ ، ورِقّة ، وكرم ، وجود ، وسخاء ، وكثرة احتمال ، وكظمٍ للغيظ ، وعفوٍ وصفحٍ ، وشجاعةٍ وإقدام ، وإغضاء ، وإعراض عما يكره ، ورِفقٍ ، وحسنِ استقبال ، وعدم مقابلة الآخر بما يكره ، وعدم التعالي ، واصطناعٍ للمعروف ، وكف الأذى ، وكرم السجية ، وجميل المعاشرة ، ولين الكلام ، وخفض الجناح ، وحفظ الأمانة ، والوفاء بالوعد ، وذم الخيانة ، وحفظ الجِوار ، وصلة الأرحام والعطف عليهم ، وشدةِ الحياء ، وكرم الضيافة ، وإطعام الطعام ، وإكرام الكبير ، والعطف على الصغير ، والانتصاف من نفسه ، وكف الأذى عن الناس ، وإصلاح ذات البين ، وحفظ اللسان، وستر المسلمين ، والرفق بالعبد والمملوك ، والإحسان إليه ، والصدق في القول ، والعطف على البنات ، والإحسان إليهم ، ورحمة النساء ، وكفالة اليتيم ، وحفظ الأخوة ، والأناة ، وعدم العجلة ، والتأني في الأمور ، والشفاعة لذي الحاجة ، وعدم مواجهة المسيء باسمه ، وأداء النصيحة ، والإحسان إلى البشرية ،...إلخ .

كل هذه الأخلاق وغيرها ليست خاصة بالمسلمين ، بل هي شاملة لكل الخلق ، كما مر نماذج كثيرة منها ، ذلك لأنه ﷺ كما وصفه ربُّه تعالى بأنه على خلق عظيم ، وأنه ﷺ كما أخبرنا عن نفسه ، ما بُعث إلا ليتمِّم مكارمَ الأخلاق[1]، والله تعالى أعلم .

(١) انظر : الموطأ : كتاب حسن الخلق : باب ما جاء في حسن الخلق ، رقم (٨) ومسند أحمد =

ـ أقسام الكفار في بلاد المسلمين :

إن الكفار والمشركين ينقسمون إلى قسمين : أهل حرب ، وأهل هدنة . ويدل على هذا التقسيم :

عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان المشركون على منزلتين من النبيِّ ﷺ والمؤمنين ؛ كانوا مشركي أهل حرب ، يقاتلهم ويقاتلونه . ومشركي أهل عهد ، لا يقاتلهم ولا يقاتلونه ،... رواه البخاري[1].

فأما أهلُ الحرب فلا حاجة للبحث في شأنهم ، لأنهم في الغالب ليسوا في بلاد الإسلام ، وتسمى ديارهم : دار الحرب .

وأما أهل الهدنة ـ في بلاد المسلمين ـ فسيكون الكلام خاصّاً بهم ، وهم على ثلاثة أقسام : مستأمنين ، ومعاهدين ، وذميين .

١ ـ أما **المستأمن** ؛ فقد عرفنا حاله ـ كما مر قبل قليل ـ بأن يُجِرْه حتى يسمع كلام الله تعالى ، ثم يُبلغه مأمنه ، سالماً غير معتدىً عليه .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

= (٢ : ٣٨١) والأدب المفرد (١٠٥رقم ٢٧٤)والتاريخ الكبير (٧: ١٨٨) والطبقات الكبرى (١ : ١٩٢) وكشف الأستار (٣ : ١٥٧) والمستدرك (٢ : ٦١٣) والسنن الكبرى للبيهقي (١٠ : ١٩١ ـ ١٩٢) وشعب الإيمان (٦ : ٢٣٠ ـ ٢٣١) والآداب (١٣٥ ـ ١٣٦) ومسند الشهاب (٢ : ١٩٢ ـ ١٩٣) ومكارم الأخلاق للخرائطي (١ : ١) ولابن أبي الدنيا (٢١ رقم ١٣) ومجمع الزوائد (٨ : ١٨٨) (٩ : ١٥) والجامع الصغير (١: ٣٩٥) وصححه ، وتجريد التمهيد (٢٥١رقم٨٤٧) ومكانة النبيّ الكريم ﷺ (٩٦).

(١) صحيح البخاري : كتاب الطلاق : باب نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن .

(٢) سورة التوبة (٦).

٢ـ وأما **المعاهد** : فهم نوعان ؛ من له عهد إلى أجل ، ومن له عهد مطلق .

أـ من كان له عهد إلى أجل محدد ، فعهده إلى مدته .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(١). وانظر الحديث بعد الفقرة التالية .

فمن كان له عهد إلى مدة معلومة يلزم ولي الأمر الوفاء بتلك المدة حتى تنتهي ، لكن ذلك مرهون بشرطين : ألّا ينقض المعاهدُ شيئاً من عهده ، وألّا يظاهر أحداً من المشركين على المسلمين .

ب ـ من كان له عهد مطلق ، فله أربعة أشهر ، يسيح في الأرض حيث يشاء ، ولا يُتعرض له ، ولا تُخفر ذمته ، شريطة ألا ينقض عهدَه ، ولم يظاهر على المسلمين أحداً .

قال الله عز وجل : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

عن زيد بن يُثَيْعٍ رحمه الله تعالى قال : سألْنا علياً ـ رضي الله تعالى عنه ـ بأي شيءٍ بُعثتَ في الحجة ؟ [زاد أحمد في روايته : يعني : بعثَ النبيِّ ﷺ إياه مع أبي بكر في ذي الحجة] قال : بُعثتُ بأربع ؛ لا يدخل الجنةَ إلا نفسٌ

(١) سورة التوبة (٣ ـ ٤).

(٢) سورة التوبة (١ ـ ٢).

مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ولا يجتمع مسلمٌ ومشرك في المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين النبيّ ﷺ عهدٌ فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهدٌ فأجلُه إلى أربعة أشهر . رواه الحُميدي وأحمد والدارمي وسعيد بن منصور وعبد الرزاق ، والترمذي وصححه وفي بعضها التحسين ، وأبو يعلى والبزار والطبري والبيهقي ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي ، وعزاه الحافظ للنسائي ، ولم أجده بلفظه ، وعزاه السيوطي في الدر لآخرين[1].

٣ـ وأما **الذِّمِّيُّ** ـ وهو الذي أَعطى المسلمين الجزيةَ ، مقابل حمايته والدفاع عنه ، وإبقائه في بلاد المسلمين ـ فهذا له حقوق كثيرة ، لا يجوز إيذاؤه ، أو الاعتداء عليه ، أو خفر ذمته . وقد سبق ذكر ذلك . وأشير إلى الحديث في ذلك .

فعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً من أهل الذِّمّة لم يجد ريحَ الجنة . وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً ». رواه أحمد والنسائي والبيهقي بإسناد صحيح ، والحاكم

---

(١) مسند الحميدي (١ : ٢٦ ـ ٢٧) وتفسير عبد الرزاق (٢ : ١٣٢) ومسند أحمد (١ : ٧٩) وسنن الدارمي (١ : ٣٩٤) وسنن سعيد بن منصور ـ الطبعة الجديدة ـ (٥ : ٢٣٣) وسنن الترمذي : كتاب الحج : باب ما جاء في كراهية الطواف عرياناً ، رقم (٨٧١ ، ٨٧٢) وكتاب التفسير : سورة براءة ، رقم (٣٠٩٢) ومسند أبي يعلى (١ : ٣٥١) والبحر الزخار (٣ : ٣٤) وتفسير الطبري (١٤ : ١٠٦ ، ١٠٩) والمستدرك (٣ : ٥٢) (٤ : ١٧٨) والسنن الكبرى (٩ : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ٢٠٧) ودلائل النبوة (٥ : ٢٩٧) وكتاب الناسخ والمنسوخ للنحاس (١٥٥) بنحوه ، وتحفة الأشراف (٧ : ٣٧٥) والدر المنثور (٤ : ١٢٥) وفيهما تصحيح الترمذي ، وزاد في الدر نسبتَه لآخرين . وفتح الباري (٨ : ٣١٩).

وصححه وأقره الذهبي . وقد سبق ذكره .

وعن القاسم بن مُخَيْمِرَة رحمه الله تعالى ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل رجلاً من أهل الذِّمَّة ؛ لم يجد ريحَ الجنة ، وإن ريحَها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً ». رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح . وقد سبق ذكره في بابه .

والمراد بالقتل هنا : ما كان من غير سبب يوجب قتله ، كالقصاص ونحو ذلك .

فهذا التشديد في عقوبة قاتل الذِّمّي من غير سبب ؛ تعطينا مدى رحمة النبي الكريم ﷺ بمواطنيه - ولو كانوا كفّاراً - وحرصه على سلامة المجتمع من الفوضى والاعتداء ،...لأن دينَه هو دينُ الرحمة والسماحة واليسر .

وهل يوجد مثل ذلك - بل دونه - في غير الإسلام ! لا ، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل .

*****

فصل
متى ينتقض عهد أهل الذِّمَّة

إن جميع دول العالم اليوم تضع ضوابط وشروطاً للهجرة والإقامة في ديارها ، سواء كانت سياسية أو عقدية أو اجتماعية أو تعليمية ،... وعلى كل راغب في الإقامة أو الهجرة الموافقة على تلك الشروط ، حتى يُسمح له بالهجرة والإقامة ، وإذا أخل المقيمُ بتلك الشروط يكون قد نقض الاتفاق بينه وبين دائرة الهجرة ، لذا يُعتذر له ، ويخرج من البلد . علماً بأن تلك الشروط والضوابط منها ما تعورف عليه ومنها ما وضعه أهل القانون .

والكافر الذي يرغب أن يقيم في بلاد المسلمين لا بد أن يوافق على شروط إمام المسلمين ، وهذه الشروط أغلبها دينية صرفة ، ومنها اجتماعية ، وأخرى سياسية ، وكلها تدخل تحت مضرة المسلمين .

وقد أُخذت هذه الشروط من الاتفاق الذي تم بين سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ، ومن ثم الخلفاء والولاة من بعده ، وبقي معمولاً بها قرون طويلة طيلة فترة قوة الدولة الإسلامية ، فلما ضعفت الدولة الإسلامية ضعف الأخذ بها حتى تلاشى .

وهذه الشروط ليست تعجيزية ، إنما هي شروط واقعية ، اتخذت لصيانة المسلمين ، والحفاظ على دينهم ، شأنهم في ذلك شأن كل الدول في العصر الحاضر كما قلت .

كما نراه في العصر الحاضر ، فمن أراد الذهاب إلى أي دولة للإقامة لابد

أن يوقع في سفارتها على أوراق ، فيها المحظورات ، من التعرض لسياسة البلد ، وأمنه ، وعقيدته ، ومذهبه ، واقتصاده ،...إلخ.

فإذا خالف المقيم تلك الشروط يكون قد نقض الاتفاق بينه وبين حكومة البلد المقيم فيه ، لذا يلزمه الخروج ، أو عدم التكرار ،...إلخ .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى[1] ـ فيما إذا أراد الإمام أن يكتب كتاب صلح مع نصارى ـ :... وعلى أن أحداً منكم إن ذكر محمداً ﷺ ، أو كتاب الله عز وجل ، أو دينَه ، بما لا ينبغي أن يذكره به ؛ فقد برئت منه ذمةُ الله ثم ذمةُ أمير المؤمنين وجميع المسلمين ، ونقض ما أُعطي عليه الأمان ،... وعلى أن أحداً من رجالهم إن أصاب مسلمة بزنا أو اسم نكاح ، أو قَطَعَ الطريقَ على مسلم ، أو فتن مسلماً عن دينه ، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال ، أو دلالةٍ على عورة المسلمين ، وإيواءٍ لعيونهم ؛ فقد نقض عهده ، وأحلَّ دمَه وماله .

وقال الإمام الماوردي رحمه الله تعالى[2]: ويُشترط عليهم في عقد الجزية شرطان : مستحقٌّ ، ومستحبٌّ .

أما المستحق ، فستة شروط :

أحدها : أن لا يذكروا كتابَ الله تعالى بطعن فيه ، ولا تحريف له .

والثاني : أن لا يذكروا رسولَ الله ﷺ بتكذيبٍ له ، ولا ازدراء .

والثالث : أن لا يذكروا دينَ الإسلام بذمٍّ له ، ولا قدح فيه .

والرابع : أن لا يصيبوا مسلِمةً بزنا ، ولا باسْمِ نكاح .

---

(١) الأم (٤ : ١١٨).

(٢) الأحكام السلطانية (١٤٥).

والخامس : أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ، ولا يتعرّضوا لماله ولا دمه

والسادس : أن لا يعينوا أهلَ الحرب ، ولا يؤووا أغنياءَهم .

فهذه الستة حقوق ملتزمة ، فتلزمهم بغير شرط ، وإنما تُشترط إشعاراً لهم ، وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم . ويكون ارتكابُها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.اهـ ثم ذكر الشروط المستحبة ـ وهي ستة أيضاً ـ وأن ارتكابها لا يُعتبر نقضاً للعهد ، لكن يعاقبون عليها حسب جرمها ، حسب ما فيها من حدودٍ أو قصاص أو تعزير .

وقال القاضي أبو يعلى الحنبلي رحمه الله تعالى[1]: ويلزم الذِّمِّي تركُ ما فيه ضررٌ على المسلمين وآحادهم ، في مال ، أو نفسٍ ، وهي ثمانية أشياء : الاجتماع على قتال المسلمين ، وأن لا يزنيَ بمسلمة ، ولا يصيبَها باسم نكاح ، ولا يفتنَ مسلماً عن دينه ، ولا يقطعَ عليه الطريق ، ولا يؤويَ للمشركين عيناً ـ أعني جاسوساً ـ ولا يعاونَ على المسلمين بدلالة ـ أعني لا يكاتب المشركين بأخبار المسلمين ـ ولا يقتلَ مسلماً ولا مسلمة .

وكذلك يلزم ترك ما فيه غضاضة ونقص على الإسلام ، وهي ثلاثة أشياء : ذكرُ الله تعالى ، وكتابه ، ودينه ، ورسوله ﷺ بما لا ينبغي .

فهذه الأشياء يلزمهم تركها ، سواء شرط ذلك الإمامُ عليهم أو لم يشترط .

فإن فعلوا ذلك ، أو شيئاً منه : نقض العهد في إحدى الروايتين ... ثم نقل نقولاً كثيرةً عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه نقضٌ للعهد . كما ذكر مما لا ضرر فيه على المسلمين ، ولا غضاضة على الإسلام منه ،... إذا فعله بعد

---

(١) الأحكام السلطانية (١٥٨ ـ ١٦١).

الشرط ، هل يكون نقضاً للعهد ؟ ونقل عن الخرقي أنه نقض للعهد بمخالفة شيء مما صولحوا عليه .

ثم قال : ومِن نقض العهد : عدمُ بذل الجزية .

ونقل ابنُ قدامة رحمه الله تعالى[1] عن القاضي أبي يعلى والشريف أبي جعفر ، أن الشروط قسمان ؛ أحدهما ينتقض بمخالفته ، وهو أحد عشر شيئاً ؛ الامتناع عن بذل الجزية ، وجري أحكامنا عليهم إذا حكم بها حاكم ، ثم ذكر نحو ما نقلته عن القاضي . ثم قال : فالخصلتان الأُوليان ينتقض العهد بهما بلا خلاف في المذهب ، وهو مذهب الشافعي ، وفي معناهما قتالهم للمسلمين ، منفردين أو مع أهل الحرب ، لأن إطلاق الأمان يقتضي ذلك . فإذا فعلوه نقضوا الأمان ،... ثم كرر انتقاض العهد بترك تلك الخصال الثلاث بكل حال ... ثم قال : وكلُّ موضع قلنا : لا ينتقض عهده ، فإنه إن فعل ما فيه حدٌّ أقيم عليه حدُّه ، أو قصاصه ، وإن لم يوجب حدّاً ، عُزِّر ، ويُفعل به ما يَنكفُّ به أمثالُه عن فعله ،...إلخ.

وقد أطال العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى النفَس في نقض عهد الذمي بسبب سبِّ النبي المصطفى الكريم ﷺ ، ثم قال : وهنا الشروط على أهل الذِّمَّة حقٌّ لله، لا يجوز للسلطان ولا لغيره أن يأخذ منهم الجزية ، ويعاهدهم على المقام بدار الإسلام ، إلا إذا التزموها ، وإلا وجب عليه قتالهم بنص القرآن . ولو فرضنا جوازَ إقرارهم بدون هذا الشرط فإنما ذاك فيما لا ضرر على المسلمين فيه . فأما ما يضر المسلمين فلا يجوز إقرارهم عليه بحال ، ولو فُرض إقرارهم على ما يضر المسلمين في أنفسهم وأموالهم

(١) المغني (١٣ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

فلا يجوز إقرارهم على إفساد دين الله ، والطعن على كتابه ورسوله .

ولهذه المراتب قال كثير من الفقهاء : إن عهدهم ينتقض بما يضر المسلمين من المخالفة ، دون ما لا يضرهم ، وخص بعضُهم ما يضرُّهم في دينهم ، دون ما يضرهم في دنياهم ، والطعن على الرسول ﷺ أعظم المضرات في دينهم ،...إلخ[1].

وخلاصة الأمر : إن أهل الذِّمَّة ينتقض عهدهم بأمور[2] : الطعن في ذات الله تعالى ، أو ذكره بسوء . والطعن بالنبيّ الكريم ﷺ أو سبه أو إنالته بسوء . والنيل من كتاب الله تعالى أو تكذيبه أو إهانته . والنيل من الدين الإسلامي أو الطعن فيه أو ذكره بما لا يليق به . والامتناع عن دفع الجزية . وعدم الالتزام بأحكام المسلمين . وقتال المسلمين . وقطع الطريق عليهم . وإيواء عين من المشركين على المسلمين (يعني أن يؤوي جاسوساً يتجسّس على المسلمين) أو يدل على عورات المسلمين ، بأن يكتب للمشركين بأخبار المسلمين . أو يقتل مسلماً . أو يفتنه عن دينه . وكذا إذا زنى بامرأة مسلمة . أو أصابها باسم النكاح . كل ذلك ينتقض به العهد إذا ذُكر في عهد الذِّمَّة . بل إن أغلبها ينتقض به العهد ولو لم يُذكر في العهد .

وأقتصر على ذكر مثال واحد حكم الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيه بنقض أهل الذمة العهد ، وأقاموا عليهم الحد ، وهو القتل .

عن سويد بن غفلة رضي الله تعالى عنه قال : كنت مع عمر بن الخطاب

---

(١) الصارم المسلول (٢١٣) وانظر فيه (٤ ـ ١٩٠).

(٢) انظر : مراتب الإجماع للإمام ابن حزم (١١٥ـ ١١٦) والمهذب للإمام الشيرازي (٢ : ٢٥٨) والروضة للإمام النووي (١٠ : ٣٣٧ ـ وما بعد) والذخيرة للإمام القرافي (٣ : ٤٥٩ ـ ٤٦٣) والبناية شرح الهداية للإمام العيني (٦ : ٦٨٩ ـ ٦٩٠).

رضي الله تعالى عنه ـ وهو أميرُ المؤمنين ـ بالشام ، فأتاه نبطي مضروبٌ ، مشجج ، مُستعدي ، فغضب غضباً شديداً ، فقال لصهيب : انظر من صاحبُ هذا ؟ فانطلق صهيبٌ ، فإذا هو عوفُ بن مالكٍ الأشجعيُّ [رضي الله تعالى عنه] فقال له : إن أمير المؤمنين قد غضب غضباً شديداً ، فلو أتيت معاذَ بنَ جبل فمشى معك إلى أمير المؤمنين ، فإني أخاف عليك بادرتَه . فجاء معه ، فلما انصرف عمر من الصلاة قال : أين صهيب ؟ فقال : أنا هذا يا أمير المؤمنين . قال : أجئتَ بالرجل الذي ضربه ؟ قال : نعم .

فقام معاذ بن جبل فقال : يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك ، فاسمع منه ، ولا تعجل عليه .

فقال له عمر : ما لَكَ ولهذا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيته يسوق بامرأة مسلمة ، فنخس الحمارَ ليصرعها ، فلم تصرع ، ثم دفعها ، فخرَّت عن الحمار ، ثم تغشاها . ففعلتُ ما ترى .

قال : ائتني بالمرأة لتصدّقك . فأتى عوفٌ المرأةَ ، فذكر الذي قال عمر رضي الله تعالى عنه . قال أبوها وزوجها : ما أردت بصاحبتنا ، فضحتَها !

فقالت المرأة : والله لأذهبن معه إلى أمير المؤمنين . فلما أجمعت على ذلك قال أبوها وزوجُها : نحن نُبلغ عنكِ أميرَ المؤمنين . فأتيا ، فصدّقا عوفَ بن مالك بما قال .

فقال عمر لليهودي : والله ما على هذا عاهدناكم ، فأمر به فصُلب .

ثم قال : يا أيها الناس ؛ فُوا بذمة محمد ﷺ ، فمن فعل منهم هذا فلا ذِمَّة له . رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأبو عبيد وابن زنجويه و البيهقي[1].

(١) الأموال لأبي عبيد (١٩٤ـ١٩٥) ولابن زنجويه (١: ٤٣٥ـ٤٣٦) ومصنف عبد الرزاق =

وقد عنون عليه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى : باب يشترط عليهم أن أحداً من رجالهم إن أصاب مسلمةً بزنا ، أو اسم نكاح ، أو قطع الطريق على مسلم ، أو فتن مسلماً عن دينه ، أو أعان المحاربين على المسلمين ؛ فقد نقض عهده.اهـ وذكر عدة حوادث فيه .

وقول عمر رضي الله تعالى عنه : يا أيها الناس ؛... فيه أمران : تنبيه منه وتخوُّف أن يستهين الناس بالعهود ، فيخفروا الذِّمة ، فيسارعوا بقتل أهل الذمة ، والثاني : أن الذِّمِّيَّ إذا فعل ما ينقض ما عاهد عليه فقد أهدر دمه بنفسه ، بنقضه ذمتَه ، والله تعالى أعلم .

وسيأتي ذكر بعض الأمثلة في الفصل القادم ـ إن شاء الله تعالى ـ فيها بيان قتل ، أو عقوبة الذمي عندما سبَّ النبيَّ الكريم ﷺ .

*****

= (٦ : ١١٤ ـ ١١٥) (١٠ : ٣١٥ ، ٣٦٣ ـ ٣٦٤) ومصنف ابن أبي شيبة (١٠ : ٩٦ ـ ٩٧) والسنن الكبرى (٩ : ٢٠١) وقد ذكره بعضهم مختصراً ، وانظر الخراج لأبي يوسف (١٧٨).

فصل

واجب الأمة نحو نبيِّ الرحمة ﷺ

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم عن نبيه المصطفى الرحيم ﷺ أنه رحمةٌ للعالمين ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ شاملة لجميع الخلق ، بما فيهم الإنس والجن ، والحيوان ، والنبات ،... كما مر بيانه .

لقد جعله الله تعالى رحمةً ، وخلقه كذلك ، وأهداها إلى العباد جميعاً ، وبهذا برزت تلك الرحمة في معاملته ﷺ للخلق جميعاً .

كما أخبرنا ﷺ أنه نبيُّ الرحمة . وهذه الرحمة لم ينلها ﷺ باجتهاد منه ومجاهدة ومصابرة ، إنما هي من الله تعالى ، جبل عليها رسولَه الكريم ﷺ . وقد ذكرت في فصل رحمته ﷺ عدة أحاديث ، أشير إلى بعضها .

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُسمّي لنا نفسَه أسماء ؛ فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والمقفّى ، والحاشرُ ، ونبيُّ التوبة ، ونبيُّ الرحمة ». رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ؛ ادع على المشركين . قال : « إني لم أُبعث لعّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمةً ». رواه مسلم .

وعن سلمان رضي الله تعالى عنه ـ في قصة شرطه ﷺ على ربه تعالى ، وفيه قوله ﷺ ـ : «... وإنما بعثني رحمةً للعالمين ». رواه أحمد وأبو داود والطبراني برجال ثقات ، وأصله في الصحيحين من غير طريقه .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ؛ إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ ». رواه الحاكم وصححه ، وأقره الذهبي ، والطبراني والبزار برجال الصحيح ، في آخرين .

إذا كان الله تعالى قد جعل نبيه المصطفى الكريم ﷺ رحمةً للعالمين ـ والناسُ من جملة العالَمين ـ وبعثه رحمةً ، وبالرحمة ، وقد ظهر ذلك جليّاً كما بينته في (الرحمة المهداة ﷺ) فكيف هو لأمته ؟

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى ورسولُه الرحيمُ ﷺ لنا ذلك، وأنه ﷺ رحمةٌ لأمته ، كما هو رحمة للعالمين ، لأن أمَّتَه ﷺ من جملة العالمين .

بل إن الله سبحانه وتعالى خصَّ أمة النبي المصطفى الكريم ﷺ من الخلق بشمولية أكثر ، حيث جعل نبيَّه الكريم ﷺ رحيماً بهم . والرحيم : على وزن فعيل . وهذه الصيغة : هي مبالغة من اسم الفاعل ، وهي غايةُ المبالغة في الرحمة مع أمته .

كما أضاف تعالى له وصفاً آخر هو غاية الرحمة أيضاً ، وهو الرؤوف ، لذا سمّاه الله تعالى رؤوفاً رحيماً .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

وقد ظهرت هذه الرحمة بمظاهر كثيرة ، شملت الخلقَ كلهم ، كما

---

(١) سورة التوبة (٦١).

(٢) سورة التوبة (١٢٨).

بينت ذلك في (الرحمة المهداة ﷺ) ومن جملة ما شملت : الكفار .

ومن مظاهر تلك الرحمة المهداة : أنه ﷺ لم يَقتل أو يُعذِّب أو يعنِّت ـ بل لم يأمر بقتل أو تعذيب ـ كلَّ من حاول الغدرَ به، أو قتله، أو اغتياله ، بأي نوع من أنواع الاغتيال : مِن قَتْلٍ ، أو سُمٍّ ، أو سحرٍ ،... كما أوضحته في هذا الكتاب ، وأنه ﷺ قد أسقط حقَّه (الشخصي) في ذلك .

بل منع ﷺ الصحابة الذين استأذنوه في قتل من أساء إليه ، أو اعتدى عليه ، سواء من الكفار ، أو من أهل الكتاب ، أو من المنافقين ، أو من الأعراب ، ذلك لأنه ﷺ رحمة مهداة ، وأنه يتألفهم إلى الإسلام .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أسقط حقَّه الشخصي ـ لأنه رحمة ، ولا يقابل السيئةَ بالسيئة ، ولا يقابل أحداً بما يكره ، وأنه يعفو ويغفر ، كما مر في حديث ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما عند البخاري ـ فلم يقتل ـ بل لم يعنِّف ـ من سبَّه أو شتمه ، أو تطاول عليه ، أو نال من عرضه ، ولم يقتص منهم ، وكذا لم يقتل من أراد قتلَه أو اغتياله ، ولم يعاقبهم ، بل عفا عنهم جميعاً ـ كما مر في هذا الكتاب ـ فما هو موقف الأمة ـ ابتداء من الصحابة رضي الله تعالى عنهم إلى نهاية الدنيا ـ حيال من يفعل ذلك ، سواء كان في حياة رسول الله ﷺ أو بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، ولو تطاول الزمان ؟

وقبل الجواب على هذا السؤال يقتضي ذكر بعض الحقائق :

١ـ لقد أوجب الله تعالى ـ في جميع الظروف ـ نصرةَ نبيّه الكريم ﷺ، ولو كان ذلك في أحلك الظروف .

قال الله جل شأنه : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ففي الآية الكريمة عدة مزايا منها ؛ نصره تعالى لنبيه الكريم ﷺ ، وهذا النصر دائم ، وإنزال السكينة عليه وعلى صاحبه الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه ، وتأييده بالملائكة ، وجعل كلمة الله تعالى هي العليا ، وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى ، وكل ذلك حاصل ، فإذا فرَّط المسلمون ، فلم ينصروا نبيَّهم ﷺ فهم السبب ، لضعف إيمانهم وضعف صلتهم بربهم تعالى ، وضعف محبتهم واتباعهم لرسولهم ﷺ .

٢ـ لقد جعل الله عز وجل من صفات المؤمنين الصادقين المخلصين : نصرةَ الله تعالى ونصرةَ رسوله الكريم ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[2].

بل جعل الله عز وجل من مفردات العهد الذي أخذه جل شأنه على الأنبياء عليهم السلام لرسوله الكريم ﷺ : نصرته .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[3] ووجوب النصرة يقتضي تقديم كل شيء في سبيلها ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة التوبة (٤٠).

(٢) سورة الحشر (٨).

(٣) سورة آل عمران (٨١).

٣ ـ لقد أوجب الله تعالى على الأمة تقديمَ نفس النبي الكريم ﷺ ، ورغباته على نفوسها ورغباتها ، بل يكون هواها تبعاً لهواه ، ولهذا عاتب الله تعالى المؤمنين حينما تباطؤوا عن الخروج سراعاً يوم خروجه ﷺ إلى غزوة تبوك .

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾(١) فهذا عتاب وتنبيه لأصحاب القلوب الحية ، أن يكون رسول الله ﷺ مقدَّماً عندهم حتى على أنفسهم ، فضلاً عن الرغبات والهوى .

٤ ـ لقد أوجب الله تعالى ورسوله ﷺ على الأمة أن تكون محبةُ الله تعالى ومحبةُ النبي المصطفى الكريم ﷺ مقدمةً على محبة جميع المخلوقات ، وقد حذّر الله تعالى من تقديم محبة أي شيءٍ عليها ، وإن غلا وارتفع .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٢) فهذا تهديد شديد ووعيد مخيف ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ... ﴾ الآية ، لمن كان له قلب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدُكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده ». رواه البخاري(٣).

(١) سورة التوبة (١٢٠).

(٢) سورة التوبة (٢٤).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الإيمان : باب حب الرسول ﷺ من الإيمان .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين ». متفق عليه ، واللفظ للبخاري[1].

وفي رواية لمسلم[2] عنه رضي الله تعالى عنه « لا يؤمن عبد - وفي رواية : رجل - حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين ».

وعن عبد الله بن هشام رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع النبيِّ ﷺ ، وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ؛ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلا من نفسي . فقال النبيُّ ﷺ « لا ، والذي نفسي بيده ، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك » فقال له عمر : فإنه - الآن - والله - لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي . فقال النبيُّ ﷺ : « الآن يا عمر ». رواه البخاري[3].

فقد اجتمع - من خلال الآية الكريمة والأحاديث الشريفة - النفس ، والوالد ، والولد ، والأخوة ، والزوجة ، والأهل ، والعشيرة ، وبقية الناس ، والمال ، والتجارة ، والمساكن ، فلم يبق شيء ، فيجب تقديم محبة الله تعالى ومحبة نبيه الكريم ﷺ على محبة هؤلاء جميعاً ، وإن قدَّم محبة هؤلاء على محبته ﷺ ، فالخطر محدق به .

ومن كانت محبة النبيِّ الكريم ﷺ مقدَّمةً عنده على محبة ما سواه من المخلوقين - حقيقة لا عقلاً - تذوَّق حلاوةَ الإيمان ، وذاق طعمه .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان : باب حب الرسول ﷺ من الإيمان . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، رقم (٧٠).

(٢) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٦٩).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الأيمان والنذور : باب كيف كانت يمين النبيِّ ﷺ .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهن حلاوةَ الإيمان ؛ من كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذفَ في النار ». متفق عليه(١).

٥ ـ لقد تكفَّل الله تعالى بحفظ نبيِّه الكريم ﷺ ، وعصمته من الناس ، بحيث لن يصلوا إليه ، وسخَّر الملائكةَ لحفظه والدفاع عنه .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾(٢) وقد بلّغ رسول الله ﷺ ، وشهد له ربُّه تعالى بالبلاغ ، وقد كثرت الأحاديث في ذلك .

وقد كان بعضُ الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم يحرسه ، فلما نزلت هذه الآية صرفهم ﷺ عن حراسته .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال أبو جهل : هل يعفِّر محمدٌ وجهَه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأُعفِّرن وجهَه بالتراب .

قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته . قال : فما فجِئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه . قال : فقيل له : ما بالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار ، وهولاً وأجنحةً .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان : باب حلاوة الإيمان ، وباب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار ، وفي غيرها . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، رقم (٦٧ ، ٦٨).

(٢) سورة المائدة (٦٧).

فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً ».
رواه مسلم ، ورواه البخاري[1] بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

٦ـ لقد كفى الله تعالى رسولَه الكريم ﷺ المستهزئين ، لأنه ﷺ بأعين ربِّه جل جلاله .

قال الله جل شأنه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقال عز وجل : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾[3].

فقد كفاه الله جل وعز شرَّ أعدائه ، وكبت كلَّ من سخر أو استهزأ ، والتاريخ شاهد على ذلك . لكن إذا كان الله تعالى قد كفاه ، فهل يقف المسلم موقفَ المتفرِّج ينتظرُ حلول العقوبة بالكافر ؟؟؟

٧ ـ لقد أوجب الله تعالى على هذه الأمة تعظيمَ نبيها الكريم ﷺ وتعزيره وتوقيره .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4].

وقال جل شأنه : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة إقرأ : باب ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ وصحيح مسلم : كتاب صفات المنافقين : باب قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، رقم (٣٨).
(٢) سورة الحجر (٩٤ـ ٩٦).
(٣) سورة الطور (٤٨).
(٤) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

والتعزير : المبالغة في التعظيم .

والتوقير : هو الاحترام والإجلال والإعظام والتبجيل ، فهو أعلى من مقام المحبة[2].

ومقتضى التعزير والتوقير : يقتضي الفداء ، والاستماتة دونه ،...

٨ ـ إن من شروط بيعة العقبة حين بايع النبي المصطفى الكريم ﷺ الأنصار : أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأبناءَهم وأزواجَهم .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ـ عن قصة بيعة العقبة ، وفيه قولهم ـ فقلنا : يا رسول الله ؛ على ما نبايعك ؟ قال : « تبايعوني على السمع والطاعة ، في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ،... وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم ، وتمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءَكم ، ولكم الجنة ». رواه أحمد والبزار والبيهقي برجال الصحيح ، وصححه ابن حبان والحاكم ، وحسنه الحافظ[3].

وقد ورد بنحوه عن عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

---

(١) سورة الأعراف (١٥٧).

(٢) انظر : محبة النبيِّ ﷺ وطاعته بين الإنسان والجهاد ، ومكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام ، وغيرهما . فقد أوضحتُ تقدم مقام التوقير على مقام المحبة .

(٣) مسند أحمد (٣ : ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، ٣٣٩ ـ ٣٤٠) وصحيح ابن حبان (١٤ : ١٧٢ ـ ١٧٣) (١٥ : ٤٧٤ ـ ٤٧٦) والمستدرك (٢ : ٦٢٤ ـ ٦٢٥) والسنن الكبرى (٨ : ١٤٦) (٩ : ٩) ودلائل النبوة (٢ : ٢٢٢) وكشف الأستار (٢ : ٣٠٧ ـ ٣٠٨) ومسند أبي يعلى (٣ : ٤٠٥) حيث روى قطعة منه . ومجمع الزوائد (٦ : ٤٦) وانظر : فضائل المدينة المنورة ، وساكن المدينة المنورة .

٩ ـ لقد جعل الله تعالى معيار من يدَّعي محبةَ الله تعالى : اتّباعَ النبي المصطفى الكريم ﷺ ، لينال متَّبعُه محبةَ الله تعالى له ، وغفرانَ ذنوبه .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

حيث جعل الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ حادياً يحدو بقلوب العباد ، في بيداء الدنيا ؛ أن اتبعوني ، حتى تصلوا إلى شاطئ السلامة ، فتنالوا محبةَ الله تعالى ومغفرة ذنوبكم ، فبقدر حرص المرء على أن يحبَّه الله تعالى ويغفر له ذنوبه يتمسك بالمتبوع ، والله تعالى أعلم[٢].

١٠ ـ لقد جعل النبي الكريم ﷺ صفة المؤمنين المحبين ـ بعد وفاته ﷺ ، سواء كانوا من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أم من غيرهم ـ أن أحدَهم يدفع أهلَه ومالَه في سبيل أن يراه مرةً واحدة ، ثم لا يراه بعدها أبداً .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ؛ ليأتينَّ على أحدكم يومٌ ولا يراني ، ثم لأن يراني أحبُّ إليه من أهله وماله معهم ». رواه مسلم[٣].

وعنه رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مِن أشدِّ أمتي حبّاً ؛ ناسٌ يكونون بعدي ، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله ». رواه مسلم[٤].

---

(١) سورة آل عمران (٣١).

(٢) لقد توسعت في بيان الاتباع في محبة النبيِّ ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد ، فانظره .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب فضل النظر إليه ﷺ ، رقم (١٤٢).

(٤) صحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها : باب فيمن يود رؤية النبيّ ﷺ بأهله وماله ، رقم (١٢).

وإذا كان الحديث الأول جاء في الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ كما هو واضح من لفظه ـ فإن الحديث الثاني جاء فيمن يأتي بعدهم من الأمة . وكلهم يشتركون في كون أحدهم يدفع أهلَه وماله كلَّه في سبيل أن يرى رسول الله ﷺ مرةً واحدة ، ثم لا يراه بعدها أبداً ،...

فإذا كان هذا المحبُّ يدفع ذلك كلّه في رؤية واحدة فكيف يكون حرصه على مجالسته على الدوام ؟ كيف يكون دفاعه واستماتته فيما لو تعرَّض ﷺ لسخرية أو استهزاء أو قتل ؟؟؟

١١ ـ ما امتاز به ﷺ عن سائر الأنبياء عليهم السلام ، من صفات الجمال والكمال ، في ذاته وصفاته ، وقد كنت تتبعت ذلك في كتاب الله تعالى وفي سنة النبي المصطفى الكريم ﷺ فبلغت نحواً من ثلاثمائة خصلة ، لا يشاركه في واحدة منها أحد .

ولو نظرنا إلى حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع نبيهم الكريم ﷺ لرأينا العجب ، إنهم يحرصون ألا تقع شعرةٌ من شعراته ﷺ الكريمة على الأرض ، ولا تقع قطرةُ ماء توضأ بها ومست جسده الشريف أن تقع على الأرض ، بل كانوا يرون غزوَ بني الأصفر أدنى بكثير من انشغال ذهن رسول الله ﷺ في قضية في بيته ، ثم تبين بطلانها ، وقد توسعت في بيان حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع رسول الله ﷺ في (الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان) وفي غيره ، وذكرت مظاهر حالهم رضي الله تعالى عنهم معه ﷺ ، ابتداء من تبركهم بآثاره ، وانتهاء بالاستماتة في الدفاع عنه ونصرته ﷺ .

إن وجوب تقديم محبة النبي المصطفى الكريم ﷺ على محبة جميع

المخلوقات ، ووجوب تقديم نفسه الشريفة على نفوسهم ، ووجوب تقديم هواه ورغباته على هواهم ورغباتهم ، ووجوب توقيره وتعظيمه وتعزيره ،... وكل ما مر وما لم أذكره ، كلُّ ذلك يقتضي الاستماتة في الدفاع عنه ، وعدم وصول العدو إليه ، أو الإساءة إليه ، وتقديم النفس والنفيس ، والغالي والرخيص ، والأهل والمال والولد ،... في سبيل المحافظة عليه وسلامته .

وأقتصر هنا على ذكر بعض الحالات ، في دفاع الصحابة رضي الله تعالى عنهم عنه ﷺ ، إذا أساء أحد إليه ﷺ ، أو نال منه ، أو قصّر معه ، أو لم يتأدب معه ، سواء كان الفعل من كافر أو منافق أو جاهل ،...

١ ـ مواقف أبي بكر رضي الله تعالى عنه في مكة .

هناك عدة مواقف مشرفة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه في الدفاع عن النبي المصطفى الكريم ﷺ ، ونال من جراء ذلك التعذيب الشديد من قبل كفار قريش ، أقتصر على ذكر بعضها .

* عن عروة بن الزبير قال : سألت ابنَ عَمْرو بن العاص ـ رضي الله تعالى عنهم ـ أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ . قال : بينا النبيُّ ﷺ يصلّي في حِجْر الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بنُ أبي مُعَيط، فوضع ثوبَه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ، حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، قال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ الآية[١]، رواه البخاري[٢].

* وعن عَمْرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال : ما رأيت قريشاً

(١) سورة غافر (٢٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب ما لقي النبيُّ ﷺ وأصحابُه من المشركين بمكة.

أرادوا قتلَ رسول الله ﷺ إلا يوماً ، رأيتهم وهم جلوس في ظل الكعبة ، ورسول الله ﷺ يصلّي عند المقام ، فقام إليه عقبةُ بن أبي مُعَيط ، فجعل رداءَه في عنقه ، ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ﷺ ، وتصايح الناس ، فظنوا أنه مقتول ، قال : وأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه يشتد ، حتى أخذ بضبُعَي رسول الله ﷺ مِن ورائه ، وهو يقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ ثم انصرفوا عن النبيِّ ﷺ ، فقام رسول الله ﷺ ، فلما قضى صلاتَه ، مرَّ بهم وهم جلوسٌ في ظل الكعبة ، فقال : « يا معشر قريش ؛ أما والذي نفسي بيده ما أُرسلتُ إليكم إلا بالذبح ». وأشار بيده إلى حلقه ، فقال له أبو جهل : يا محمد ؛ ما كنتَ جهولاً . فقال رسول الله ﷺ : « أنت منهم ». رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي ، ورواه النسائي مختصراً ، والبخاري تعليقاً ، وصححه ابن حبان(١).

* وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : لقد ضربوا رسولَ الله ﷺ مرة حتى غُشي عليه ، فقام أبو بكر ، فجعل ينادي : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾؟ فقالوا من هذا ؟ فقالوا : أبو بكر المجنون ، فتركوه ، وأقبلوا على أبي بكر . رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح ، وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي(٢).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ : ٢٩٧) وخلق أفعال العباد (٧٥) وتفسير النسائي (٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ٢٦٩ ـ ٢٧٠) وللبيهقي (٢ : ٢٧٧) وصحيح ابن حبان (١٤: ٥٢٩) ومجمع الزوائد (٦: ١٦) وعزاه لأبي يعلى والطبراني ، وإتحاف الخيرة المهرة (٨ : ١٥٠) وانظر : فتح الباري (٧ : ١٦٩).

(٢) مختصر زوائد مسند البزار (٢ : ٣) وكشف الأستار (٣ : ١٢٥) والمستدرك (٣ : ٦٧) =

* وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ـ أنهم قالوا لها : ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت : كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسولَ الله ﷺ ، وما يقول في آلهتهم ، فبينا هم كذلك ، إذ أقبل رسول الله ﷺ ، فقاموا إليه بأجمعهم ، فأتى الصريخ إلى أبي بكر ، فقيل : أدرك صاحبَك . فخرج من عندنا ، وإن له لغدائرَ أربعاً ، وهو يقول : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؟ فلهَوْا عن رسول الله ﷺ ، وأقبلوا على أبي بكر ، قالت : فرجع إلينا أبو بكر ، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام . رواه الحميدي وأبو يعلى بإسناد حسن كما قال الحافظ[1].

* وعن محمد بن عقيل رحمه الله تعالى قال : خطبنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال : أيها الناس ؛ أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنتَ يا أمير المؤمنين . قال : أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفتُ منه ، ولكن أخبروني بأشجع الناس ، قالوا : لا نعلم ، فمن ؟ قال : أبو بكر رضي الله تعالى عنه .

إنه كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً ، فقلنا : من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحدٌ من المشركين ، فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا

= والمطالب العالية (٤ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، ومجمع الزوائد (٦ : ١٧) وإتحاف الخيرة المهرة (٩ : ٥٥) وانظر : فتح الباري (٧ : ١٦٩).

(١) مسند الحميدي (١ : ١٥٥ـ١٥٦) ومسند أبي يعلى (١ : ٥٢) وإتحاف الخيرة المهرة (٩ : ٥٤) ومجمع الزوائد (٦ : ١٦ ـ ١٧) وانظر فتح الباري (٧ : ١٦٩).

أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ ، لا يهوي إليه أحد . فهذا أشجع الناس .

قال عليٌّ : ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش ، فهذا يجؤه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً ، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر ، يضرب هذا ، ويجأ هذا ، ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ ثم رفع عليٌّ بردةً كانت عليه فبكى ، حتى اخضلّت لحيتُه ، ثم قال : أنشدكم الله ، أمؤمنُ آل فرعون خيرٌ أم أبو بكر؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبوني ؟ فوالله ، لساعةٌ من أبي بكر خيرٌ من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون ، ذاك رجلٌ يكتم إيمانه ، وهذا أعلن إيمانه . رواه البزار[1].

* وكيف لا يكون كذلك وقد قال لرسول الله ﷺ : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، المتفق عليه[2]. فمن فداه بهؤلاء فكيف لا يفديه بنفسه ؟؟؟

٢ـ ضرب سيدنا حمزة رضي الله تعالى عنه لأبي جهل ، لإساءته إلى النبي الكريم ﷺ .

عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى قال : كان إسلامُ حمزة حميةً ، وكان رجلاً رامياً ، وكان يخرج من الحرم فيصطاد ، فإذا رجع مر بمجلس

(١) البحر الزخار (٣ : ١٤ـ ١٥) وكشف الأستار (٣ : ١٦١ ـ ١٦٢) ومختصر زوائد مسند البزار (٢ : ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ومجمع الزوائد (٩ : ٤٦ ـ ٤٧) وانظر فتح الباري (٧ : ١٦٩ ـ ١٧٠).

(٢) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، رقم (٢).

قريش ، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة ، فيمر بهم ، فيقول : رميتُ كذا وكذا ، وصنعتُ كذا وكذا ، ثم ينطلق إلى منزله .

وأقبل من رميه ذاتَ يوم ، فلقيته امرأةٌ ، فقالت : يا أبا عُمارة ، ماذا لقي ابنُ أخيك من أبي جهل بن هشام ، شتمه وتناوله وفعل به ، فقال : هل رآه أحدٌ ؟ قالت : إي والله ، لقد رآه ناسٌ . فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة ، فإذا هم جلوس ، وأبو جهل فيهم ، فاتّكأ على قوسه ، فقال : رميتُ كذا، وفعلتُ كذا ، ثم جمع يدَه بالقوس فضرب بها بين أُذنَي أبي جهل ، فدقَّ سيتَها ، ثم قال : خذها بالقوس ، وأخرى بالسيف ، أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأنه جاء بالحق من عند الله . قالوا : يا أبا عمارة ؛ إنه سبَّ آلهتَنا ، ولو كنتَ أنت - وأنت أفضلُ منه - ما أقررناك وذاك ، ما كنتَ يا أبا عمارة فاحشاً . رواه الطبراني برجال الصحيح ، كما رواه من حديث يعقوب بن عتبة بن الأخنس بن شريق برجال ثقات أيضاً ، ورواه ابن إسحٰق من وجه آخر مطوّلاً - ورواه الحاكم من طريقه أيضاً وعنه البيهقي[1].

٣ - المواقف يوم الهجرة .

لقد حصلت مواقف أربعة يوم الهجرة ، هي :

أ - مغامرة سيدنا عليٍّ رضي الله تعالى عنه بنومه في فراش رسول الله ﷺ ، وشبابُ قريش محدقون بباب البيت ، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ لينقضّوا عليه ، ويضربونه ضربة رجل واحد ، فمن نام في مثل هذا الظرف الحرج ، إنما يكون قد دفعه إلى ذلك : الفداء والجهاد ، لحفظه وحياطته ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ : ٣٦٠ - ٣٦١) والمعجم الكبير (٣ : ١٥٢ - ١٥٤) والطبقات الكبرى (٣ : ٩) والمستدرك (٣ : ١٩٢ - ١٩٣) ومجمع الزوائد (٩ : ٢٦٧) ودلائل النبوة (٢ : ٢١٣ - ٢١٤) والسيرة النبوية لابن كثير (١ : ٤٤٥ - ٤٥٧).

وإن كان رسول الله ﷺ أخبره أنهم لن يصلوا إليه ، لذا نام وهو في غاية الاطمئنان .

ب ـ موقف سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه من الهجرة .

لما أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر بالهجرة ، سأل الصحبةَ معه ، فوافق ﷺ على ذلك ، فعرض عليه إحدى راحلتيه ، فأخذها ﷺ بالثمن ، وصنعوا لهما سفرة ، وشقت أسماء قطعة من نطاقها وربطت بها فم الجراب . وكان عبد الله بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما يبيت عندهما ، ثم يدلج بسحر ، فيصبح مع قريش كبائت في مكة ، ويتتبع الأخبار ، ويأتيهما عند اختلاط الظلام ، ويرعى عليهما عامرُ بن فُهيرة مولى أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ، ويريح غنمه عليهما بعد الغروب ، فإذا أدلج عبد الله نعق عامر بغنمه خلفه حتى يعمّي على قصاص الأثر أثرَ أقدامه . وهكذا طيلة فترة الاختباء في غار ثور . ولا يعلم بهما أحد من البشر إلا آل أبي بكر رضي الله تعالى عنهم (بنتاه وولده ومولاه)[1].

ج ـ موقف سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه في الغار، حين وصل الكفار الذين يطلبونه ، فنظر أبو بكر رضي الله تعالى عنه وهم أمام الغار ، فبكى ، وقال : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم موضع قدمه لرآنا ، فقال له رسول الله ﷺ مُطَمْئِناً : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين ، الله ثالثهما ». كما في حديث أنس عن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ، المتفق عليه[2].

(١) انظر : صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، لحديثي عائشة وأسماء رضي الله تعالى عنهما .

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة : باب مناقب المهاجرين وفضلهم ، منهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب =

وبكاء أبي بكر رضي الله تعالى عنه إنما هو خوفه على رسول الله ﷺ ، وليس على نفسه ، كما هو مبين في الروايات الأخرى ، والله تعالى أعلم .

د ـ وفي حال سيرهم في طريق الهجرة ، كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه كثيرَ الالتفات ، كما كان يمشي مرة عن يمين رسول الله ﷺ ومرة عن يساره ، ومرة خلفه ، فقد كان من شدة محافظته على رسول الله ﷺ وحرصه عليه ، يتذكر الرصد عن اليمين فيمشي عن اليمين ، ويتصوره عن اليسار فيمشي عن اليسار ، ويتصوره يلحق بهم فيمشي خلفه ، فسأله ﷺ عن ذلك التحول في المشي فأخبره بذلك(١). كل ذلك خشيةً على رسول الله ﷺ ومحافظة عليه ، والله تعالى أعلم .

٤ ـ المواقف يوم بدر .

هناك عدة مواقف مشرِّفة للصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ وكلُّ مواقفهم مشرِّفة ـ في فدائهم رسول الله ﷺ ، أقتصر على ذكر بعضها .

* عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبي سفيان .

قال : فتكلم أبو بكر ، فأعرض عنه ، ثم تكلم عُمر فأعرض عنه .

فقام سعدُ بن عُبادة فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفسي بيده ، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادَها إلى

= من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، رقم (١).

(١) انظر : صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الأشربة : باب جواز شرب اللبن ، رقم (٩١) وكتاب الزهد : باب في حديث الهجرة ، رقم (٧٥) لحديثي سراقة ، وأنس والبراء كلاهما عن أبي بكر رضي الله تعالى عنهم . كما ورد عن غيرهم أيضاً .

بَرْكِ الغِماد لفعلنا ،... الحديث بطوله ، رواه مسلم[1] .

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : شهدتُ من المقداد ابن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبَه أحبُّ إليَّ مما عُدِل به ، أتى النبيَّ ﷺ - وهو يدعو على المشركين - فقال : لا نقول كما قال قومُ موسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخلفك ، فرأيت النبيَّ ﷺ أشرق وجهُه وسرَّه . رواه البخاري[2]. والقتال في هذه الجهات من أجل عدم الوصول إليه ، ولا يخفى ما فيه من الخطورة والفداء .

* وذكر أهل السير[3] أن رسول الله ﷺ - لما بلغه بمسير كفار قريش ، ليمنعوا عيرهم ، وهو قرب بدر ، قال : « أشيروا عليَّ أيها الناس » وتكلم أبو بكر وعمر والمقداد رضي الله تعالى عنهم .

قال سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ؛ لقد آمنا بك ، وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقَنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردتَ ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينُك ،

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد والمغازي : باب غزوة بدر ، رقم (٨٣).

(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب قول الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، وفي غيرهما .

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٢ : ٣٠٥ـ٣٠٦) وفتح الباري (٧ : ٢٨٧ـ٢٨٨) وذكر مصادره .

فسِر بنا على بركة الله .

فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشَّطه ذلك ، ثم قال : « سيروا ، وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ».

قلت : والبشارة ثابتة في الصحيح وغيره .

* ومما يدخل في ذلك : طلب سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه من رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشاً ، يكون فيه ، ويعدّون عنده ركائبَه ، ثم يلقون هم العدو ، فإن انتصروا فهو المطلوب ، وإن كانت الأخرى ـ لا سمح الله ـ لحِق رسولُ الله ﷺ بالمدينة ، ففيها أقوام من المؤمنين ليس من حضر بأشد حبّاً للنبي الكريم ﷺ منهم ، ولو أنهم ظنوا أنه ﷺ يلقى حرباً ما تخلّف منهم أحد ، فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له[1].

* وذكر أصحاب السير[2] موقفَ عُبيدة بن الحارث بن المطلب رضي الله تعالى عنه ـ وهو في جراحته ـ وهو على رِجْل النبي المصطفى الكريم ﷺ ، وهو يقول له : يا رسول الله ؛ لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق منه بما قال حين يقول :

كذَبْتُم وبيتِ الله نُبْزى محمداً ... ولَـمّا نُطاعِن دونَه ونُناضِل
ونُسْلِمَه حتى نُصَرَّع دونَه ... ونذهَلَ عن أبنائنا والحلائل

ثم مات رضي الله تعالى عنه ، فشهد له رسول الله ﷺ بالشهادة .

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢ : ٣١٣ ـ ٣١٤) ودلائل النبوة (٣ : ٤٤) وتاريخ الطبري (٢ : ٤٤٠).

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (٣ : ٣٤) وأسد الغابة (٣ : ٤٥٠) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ٤١٥) وعزاه للشافعي رحمه الله تعالى .

والبيت الثاني واضح في دلالته . فمن يناضل عنه ﷺ ، ويذهل عن أبنائه وزوجه حتى يموت ؛ ففيه دلالة على غاية الفداء ، والله تعالى أعلم .

* وسبق قول عليٍّ رضي الله تعالى عنه : من أشجع الناس ؟ وفيه بيان حراسة الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه رسولَ الله ﷺ ، وأنه لم يأت أحدٌ إلى رسول الله ﷺ ؛ إلا وجد الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه شاهراً سيفه ، فوق رأس النبي المصطفى الكريم ﷺ يحرسه ويحميه .

٥ ـ المواقف يوم أحد .

هناك عدة مواقف مشرفة للصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ـ وكلُّ مواقفهم مشرِّفة ـ في فداء رسول الله ﷺ يوم أحد ، أقتصر على ذكر بعضها

* عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : لما كان يوم أُحُدٍ ،... وأبو طلحة بين يدَي النبيِّ ﷺ ، مُجَوِّبٌ عليه بحجَفَة . قال : وكان أبو طلحة رجلاً رامياً ، شديدَ النَّزْع ، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً . قال : فكان الرجلُ يمرُّ معه الجعبةُ من النبل ، فيقول : « انثرها لأبي طلحة » قال : ويشرِف نبيُّ الله ﷺ ينظر إلى القوم . فيقول أبو طلحة : يا نبيَّ الله ؛ بأبي أنت وأمي ، لا تُشرف ، لا يُصبْك سهمٌ من سهام القوم . نحري دون نحرك ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

فهذا غاية المحبة والفداء ، حيث يتمنى أن يصاب نحرُه ، ويسلم نحرُ النبيِّ الكريم ﷺ .

* ويوم أحد هو يوم الفداء الحقيقي ، حيث ظهرت محبة الصحابة

(١) صحيح البخاري : كتاب المغازي : باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب غزوة النساء مع الرجال ، رقم (١٣٦).

الكرام رضي الله تعالى عنهم لرسول الله ﷺ ، ففدوه بأرواحهم وبكل ما يملكون ، ولن أستطيع ذكر جميع الحوادث لكثرتها ، لذا سأشير إشارة إلى بعضها للتنبيه .

* فمن تلك المظاهر : تترس أبي دجانة رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ ، يحميه من السهام ، حتى صار ظهره كالقنفذ .

* ومن ذلك : تترس سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه بين يدي رسول الله ﷺ ، يقاتل في سيفين .

* ومن ذلك : تترس قتادة بن النعمان رضي الله تعالى عنه بين يدي رسول الله ﷺ يرمي بقوسه حتى اندقت سيته ، فصار يتقي وجه رسول الله ﷺ من السهام القادمة بوجهه ، حتى أصابه سهم ، فندرت عينه ، فردّها رسول الله ﷺ بيده ، ودعا له ، فصارت أحدَّ عينيه .

* ومن ذلك : تترس سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه بين يدي رسول الله ﷺ ، يدافع عنه ، حتى رمى بين يديه ﷺ (١٠٠٠) ألف سهم ، وفي كل مرة يدعو له رسول الله ﷺ : « اللهم سدِّد رميتَه ، وأَجِب دعوته » فنالته دعوة النبي المصطفى الكريم ﷺ .

* ومن ذلك : أخذ رسول الله ﷺ لأْمة كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه ، وأعطاه لأمته ، فجُرح على إثرها بضعة وعشرين جرحاً ، يظن الكفار أنه رسول الله ﷺ .

* ومن ذلك : مقتل الأنصار السبعة رضي الله تعالى عنهم ـ واحداً بعد واحد ـ في دفاعهم عن رسول الله ﷺ .

* ومن ذلك : ارتثاث طلحة بن عُبيد الله رضي الله تعالى عنه بين يدي

رسول الله ﷺ ، وهو يدافع عنه ، حتى شُلَّت يده .

* ومن ذلك : ثبوت عدد كبير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع النبي المصطفى الكريم ﷺ يقاتلون عنه أشدَّ القتال ، منهم : أبو بكر وعلي وعمر وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وأبو دجانة في كثيرين من المهاجرين وأبو طلحة والحارث بن الصِّمة وسهل بن حُنيف وسهل بن بيضاء ورهط من الأنصار كثير غير ما ذكرت قُتل أغلبهم رضي الله تعالى عنهم جميعاً

* وأقتصر على ذكر امرأة ظهر من فدائها ما يكون غرةً في جبين البشرية ، وهي أم عمارة الأنصارية نُسيبة بنت كعب رضي الله تعالى عنها .

تقول : خرجتُ أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ ، وهو في أصحابه ، والدولةُ والريحُ للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ ، فقمتُ أباشر القتال ، وأذبّ عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ .

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابنُ قمئة ، أقمأه الله ، لما ولّى الناسُ عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : دلّوني على محمد ، فلا نجوتُ إن نجا ، فاعترضتُ له أنا ومصعب بنُ عُمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربني هذه الضربة ، ولكن فقد ضربتُه على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان[1].

---

(١) انظر قصتها في سيرة ابن هشام (٣ : ١١٨) والمغازي للواقدي (١ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩) والطبقات الكبرى (٨ : ٤١٢ ـ ٤١٥) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ٦٧ ـ ٦٨) والإصابة (٨ : ١٤٠ ـ ١٤١). وانظر : أسد الغابة (٦ : ٣٧١).

وكان معها ولدها أيضاً رضي الله تعالى عنهما .

* ويدخل في ذلك قول المرأتين الأنصاريتين رضي الله تعالى عنهما عندما أخبرا بمقتل أبويهما وأخويهما وزوجيهما ـ وولد إحداهما ـ قالتا : كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل . أي صغيرة ، لا تقابل المصاب بك .

٦ ـ تحذير عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من غدر عُمير بن وهب الجمحي الذي حزر عدد المسلمين يوم بدر .

* كان عُمير بن وهب شهد بدراً كافراً ، فأصابته جراحة ، فكان في القتلى ، فمر به رجل من الأنصار ، فعرفه ، فوضع سيفَه في بطنه حتى خرج من ظهره ، ثم تركه ، فلما دخل الليل ، وأصابه البرد ؛ لحق بمكة ، فبرأ ، لذا قرر الانتقام من النبي المصطفى الكريم ﷺ .

فعن عروة رحمه الله تعالى قال : جلس عُمير بنُ وهب الجمحي مع صفوان بن أمية ـ بعد مصاب بدر من قريش ـ في الحِجْر بيسير . وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابَه ، ويلقون منه عناء إذ هم بمكة ، وكان ابنُه وهب بن عُمير في أسارى أصحاب بدر . فذكروا أصحاب القليب ومصابهم .

فقال صفوان : والله إن في العيش بعدهم ، قال عُمير : صدقت والله ، والله لولا دَينٌ عليَّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي فيهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان فقال : عليَّ دَيْنُك أنا أقضيه عنك ، وعيالُك مع عيالي أسوتهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم . قال عُمير : أكتم علي شأني وشأنك . قال : أفعل . قال : ثم أمر عُمير بسيفه فشُحذ وسم .

ثم انطلق حتى قدم المدينة [فنزل بباب المسجد ، وعقل راحلته ، وأخذ

السيف لرسول الله ﷺ] فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمرُ إلى عُمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد ، متوشحاً السيف ، فقال : هذا الكلب ، عدو الله عُمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرَّش بيننا ، وحزرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عُمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبيَّ الله ؛ هذا عدوُّ الله عُمير ابنُ وهب ، قد جاء متوشِّحاً سيفَه . قال : « فأدخلْه عليَّ » .

قال : فأقبل عُمرُ حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه ، فلبَّبه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون . [فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ] ثم دخل به على رسول الله ﷺ .

فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال : « أرسله يا عمر ، أدن يا عُمير » فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً . وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم . فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير ؛ بالسلام تحية أهل الجنة » فقال : أما والله يا محمد إن كنتُ لحديث عهد بها .

قال : « فما جاء بكَ ؟ » قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا إليه .

قال : « فما بال السيف في عنقك ؟ » قال : قبَّحها الله من سيوف ، فهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : « اصدقني ما الذي جئتَ له ؟ » قال : ما جئتُ إلا لهذا .

قال : « بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش ، فقلتَ : لولا دَينٌ عليَّ وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً ، فتحمَّل صفوان لك بدَينك وعيالك ، على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك ».

قال عُمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله ؛ نكذِّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ، ثم شهد شهادةَ الحق .

فقال رسول الله ﷺ : « فقِّهوا أخاكم في دِينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيرَه » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله ؛ إني كنتُ جاهداً على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى على من كان على دين الله ، وإني أحبُّ أن تأذن لي ، فأقدَم مكة ، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتُهم كما كنتُ أؤذي أصحابَك في دينهم . فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ... فأسلم على يديه ناسٌ كثير .

[وفي رواية : فقال عمر : لقد قدم وإنه لأبغض إليَّ من الخِنزير ، ثم رجع وهو أحبُّ إليَّ من ولدي] رواه الطبراني وغيره من طرق مرسلاً ، بأسانيد حسان ، ورواه الطبراني وغيره عن أنس برجال الصحيح(١).

٧ ـ موقف عمر رضي الله تعالى عنه من زيد بن السعنة ـ حبر اليهود ـ

---

(١) المعجم الكبير (١٧ : ٥٦ ـ ٦٢) مجمع الزوائد (٨ : ٢٨٤ ـ ٢٨٧) وانظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ٣٧١ ـ ٣٧٤) وأسد الغابة (٣ : ٧٩٧ـ ٧٩٨) والإصابة (٤ : ٧٢٦ـ ٧٢٨).

الذي أساء إلى رسول الله ﷺ ، وإنما فعل ذلك ليختبر بعض صفات النبي المصطفى الكريم ﷺ الخفية الدّالة على نبوته .

* عن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال : إن الله تبارك وتعالى لما أراد هُدَى زيد بن سعْنَة ، قال زيد بنُ سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيءٌ إلا وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه ، إلا اثنتين لم أَخبَرهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيده شدَّةُ الجهل عليه إلا حلماً . فكنتُ أتلطَّف له لأن أخالطه فأعرف حلمَه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات ، ومعه عليُّ بنُ أبي طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي ، فقال : يا رسول الله ؛ قريةُ بني فلان قد أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وكنتُ أخبرتُهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزقُ رغداً ، وقد أصابهم شدةٌ وقحطٌ من العيش ، وأنا أخشى يا رسول الله ؛ أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيتَ أن ترسلَ إليهم من يُغيثُهم به فعلتَ . قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه ، أُراه عمر ، فقال : ما بقي منه شيء يا رسول الله .

قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه ، فقلت : يا محمد ؛ هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ؟ فقال : « لا ، يا يهودي ؛ ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجلِ كذا وكذا ، ولا أسمّي حائطَ بني فلان » قلت : نعم ، فبايَعَني ﷺ ، فأطلقتُ همياني ، فأعطيتُه ثمانين مثقالاً من ذهب في تمرٍ معلومٍ إلى أجلِ كذا وكذا . قال : فأعطاها الرجلَ ، وقال : « اعجل عليهم ، وأغثهم بها ».

قال زيد بنُ سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، خرج

رسول الله ﷺ في جنازةِ رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ونفرٌ من أصحابه ، فلما صلّى على الجنازة ، دنا من جدارٍ ، فجلس إليه ، فأخذتُ بمجامع قميصه ، ونظرتُ إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : ألا تقضيني يا محمد حقّي ؟ فوالله ما علمتُكم بني عبد المطلب إلا مطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم . قال : ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلَك المستدير ، ثم رماني ببصره ، وقال : أي عدوَّ الله ؛ أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتفعل به ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوتَه لضربتُ بسيفي هذا عنقَك . ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، ثم قال : « إنا كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر . أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة ، اذهب به يا عمر ؛ فاقضه حقَّه ، وزده عشرين صاعاً من غيره ، مكانَ ما رعتَه ».

قال زيد : فذهب بي عمر ، فقضاني حقي ، وزادني عشرين صاعاً من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتُك . فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ قلت : أنا زيدُ بنُ سعنة . قال : الحبر ؟ قلتُ : نعم ، الحبرُ .

قال : فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلتَ ، وتفعلَ به ما فعلتَ ؟ فقلت : يا عمر ، كلُّ علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتين ؛ لم أخبرهما منه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا يزيدُه شدةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُها ، فأُشهدك يا عمر أني قد رضيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً . وأُشهدك أن شطرَ مالي ـ فإني أكثرها مالاً ـ صدقةٌ على أمة محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضها ، فإنك

لا تسعهم كلَّهم . قلت : أو على بعضهم .

فرجع عمر وزيدٌ إلى رسول الله ﷺ . فقال زيدٌ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ . فآمن به وصدَّقه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة ، ثم تُوُفِّي في غزوة تبوك ، مقبلاً غير مدبر . رواه ابن حبان والحاكم وصححاه ، وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل ، والطبراني برجال ثقات ، وأبو الشيخ وغيرهم ، وحسنه الحافظ المزي ، وللحديث شاهدان(1) .

٨ ـ دفع ثوبان رضي الله تعالى عنه حبرَ اليهود الذي استفز النبي المصطفى الكريم ﷺ ، فلم يناده بالنبوة أو الرسالة ، مع أنه هو يريد سؤاله ليختبر نبوته .

* عن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ رضي الله تعالى عنه قال : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ ، فجاء حبرٌ من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعةً كاد يُصرع منها . فقال : لمَ تدفعني ؟ فقلت : ألا تقولُ يا رسول الله !!! فقال اليهوديُّ : إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهلُه . فقال رسول الله ﷺ : « إن اسمي محمد الذي سمّاني به أهلي » .

فقال اليهودي : جئتُ أسألك .

---

(1) صحيح ابن حبان (١ : ٥٢١ ـ ٥٢٤) والمستدرك (٣ : ٦٠٤ ـ ٦٠٥) والمعجم الكبير (٥ : ٢٥٣ ـ ٢٥٥) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ١٠٨ ـ ١١٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٧٨ ـ ٢٨٠) وأخلاق النبيّ ﷺ : باب ما ورد في كظمه الغيظ وحلمه ﷺ (٧٢ ـ ٧٤) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠) والإصابة (١ : ٥٦٦) وتهذيب الكمال (٧ : ٣٤٤ ـ ٣٤٧) والاستيعاب (٢ : ١٢٢) وأسد الغابة (٢ : ١٣٦ ـ ١٣٧) وانظر : دلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٨٠ ـ ٢٨١) والطبقات الكبرى (١ : ٣٦١) لبيان الشاهدين . وضبط سعنة : بفتح السين ، وقيل : بضمها .

فقال له رسول الله ﷺ : « أينفعك شيءٌ إن حدَّثْتُك ؟ ».

قال : أسمعُ بأذنيَّ . فنكتَ رسول الله ﷺ بعودٍ معه، فقال : « سل ».

فقال اليهوديُّ : أين يكون الناسُ يومَ تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمٰوات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم في الظلمة دون الجسر ».

فقال : فمن أولُ الناس إجازةً ؟ قال : « فقراءُ المهاجرين ».

قال اليهوديُّ : فما تُحفتُهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « زيادةُ كبد النون ».

قال : فما غداؤهم على إثرها ؟ قال : « يُنحر لهم ثورُ الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ».

قال : فما شرابُهم ؟ قال : « من عين فيها تسمّى سلسبيلاً ».

قال : صدقتَ .

قال : وجئتُ أسألك عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض ، إلا نبيٌّ أو رجُلٌ أو رجلان .

قال : « ينفعك إن حدَّثْتُك ؟ ».

قال : أسمعُ بأُذنَيَّ .

قال : جئتُ أسألك عن الولد ؟ قال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله ، وإذا عَلا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله ».

قال اليهوديُّ : صدقتَ ، وإنك لنبيٌّ . ثم انصرف .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد سألني هذا عن هذا الذي سألني عنه وما لي علمٌ بشيء منه ، حتى أتاني الله به ». رواه مسلم[1].

(١) صحيح مسلم : كتاب الحيض : باب صفة مني الرجل والمرأة ، وأن الولد مخلوق من مائهما ، رقم (٣٤).

٩ـ موقف سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه في إعذار النبي الكريم ﷺ بقتل من يؤذيه يوم حادثة الإفك .

* عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ ـ وذلك بعدما أُنزل الحجاب ،... الحديث بطوله في حادثة الإفك ، وفيه : وكان الذي تولّى كِبره عبد الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلول . فقدمنا المدينة ،... قالت : فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فاستعذر من عبد الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ؛ من يعذِرُني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ فقال : أنا أَعذِرُك منه يا رسول الله ؛ إن كان من الأوس ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتَنا ففعلنا أمرك ،...الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

١٠ ـ لطم اليهودي الذي قال : والذي فضّل موسى على العالمين .

* عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : بينما يهوديٌّ يعرض سلعته أُعطي بها شيئاً كرهه ، فقال : لا ، والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجلٌ من الأنصار فقام فلطم وجهَه ، وقال : تقول والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا ؟ قال : فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فقال : أبا القاسم ؛ إن لي ذِمَّةً وعهداً ، فما بال فلان لطم

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة النور : باب ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا...﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب التوبة : باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، رقم (٥٦ ـ ٥٨).

وجهي . فقال [رسول الله ﷺ] : « لِمَ لطمتَ وجهه ؟ » قال : قال (يا رسول الله) : والذي اصطفى موسى على البشر ، وأنت بين أظهرنا ؟ قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرِف الغضب في وجهه ، ثم قال : « لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله [أولياء الله]... » الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

* وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه قال : استبَّ رجلان ؛ رجلٌ من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهوديُّ : والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلمُ يدَه عند ذلك ، فلطم وجهَ اليهودي . فذهب اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم . فدعا النبيُّ ﷺ المسلمَ فسأله عن ذلك ، فأخبره ،... فذكر الحديث بطوله ، متفق عليه[2].

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس جاء يهوديٌّ فقال : يا أبا القاسم ؛ ضرب وجهي رجلٌ من أصحابك . فقال : « مَن؟ » قال : رجلٌ من الأنصار . قال : « ادعوه » فقال : «أضربتَه؟ » قال : سمعتُه بالسوق يحلفُ : والذي اصطفى موسى على البشر . قلت : أي خبيث ، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غضبةٌ فضربتُ وجهه . فقال النبيُّ ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ،... » الحديث ، متفق عليه ، واللفظ للبخاري[3].

---

(١) صحيح البخاري : أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب من فضائل موسى ﷺ ، رقم (١٥٩).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الخصومات : باب ما يُذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) صحيح البخاري : في الكتاب والباب السابقين ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (١٦٢).

الذي يهمني من الحديث : هو ضرب الأنصاري رضي الله تعالى عنه اليهوديَّ عند قوله تلك المقالة ، لما رأى فيها من تنقيص قدر النبي المصطفى الكريم ﷺ ، والله تعالى أعلم .

١١ ـ مقالة خُبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنَة رضي الله تعالى عنهما عند صَلبهما في مكة .

* عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرةَ رهطٍ سريّةً عيناً ، وأمَّر عليهم عاصم بنَ ثابت الأنصاريَّ ـ جدَّ عاصم بن عُمر بن الخطاب ـ فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بالهَدَأَة ـ وهو بين عُسفان ومكة ـ ذُكِروا لحَيٍّ من هُذيل ، يقال لهم : بنو لحْيان ، فنفروا لهم قريباً من مائتي رجلٍ كلُّهم رامٍ ، فاقتصّوا آثارهم حتى وجدوا مأكَلَهم تَمْراً تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تَمْرُ يثرب ، فاقتصّوا آثارَهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابُه لجؤوا إلى فَدْفَدٍ ، وأحاط بهم القوم ، فقالوا : انزلوا وأعطونا بأيديكم ، ولكم العهدُ والميثاق ، ولا نقتلُ منكم أحداً .

فقال عاصمُ بنُ ثابت أميرُ السرية : أمّا أنا فوالله لا أنزل اليومَ في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيَّك ﷺ ، فرموهم بالنبل ، فقتلوا عاصماً في سبعة ، فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهد والميثاق ، منهم خُبيب الأنصاريُّ وَ [زيد] بن دَثِنَة ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم ، أطلقوا أوتارَ قسيِّهم فأوثقوهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أولُ الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن لي في هؤلاء لأسوة ـ يريد القتلى ـ وجرَّروه ، وعالجوه على أن يصحبهم فأبى ، فقتلوه .

فانطلقوا بخُبيب وابن دَثِنة حتى باعوهما بمكة ـ بعد وقيعة بدر ـ فابتاع خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خُبيبٌ هو قتَل الحارثَ بن عامر يوم بدر ، فلبث خُبيبٌ عندهم أسيراً .

[قال الزهري] : فأخبرني عُبيدُ الله بنُ عِياض ، أن بنتَ الحارث أخبرته ، أنهم حين أجمعوا [قتلَه] استعار منها موسى يستحدُّ به ، فأعارته ، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة ، حتى أتاه . قالت : فوجدتُه مُجلِسه على فخذه والموسى بيده ، ففزعت فزعةً عرفها خُبيبٌ في وجهي ، فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلك . والله ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خُبيب ، والله لقد وجدتُه يوماً يأكل من قِطفِ عنبٍ في يده ، وإنه لموثقٌ في الحديد ، وما بمكة من ثَمَرٍ . وكانت تقول : إنه لرزقٌ من الله رزقه خُبيباً .

فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خُبيبٌ : ذروني أركع ركعتين . ثم قال : لولا أن تظنّوا أن ما بي جزعٌ لطوَّلتُها ، اللهم أحصهم عدداً .

وَلَسْتُ أُبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلى أَيِّ شِقٍّ كان لله مَصْرَعي
وذَلِكَ فِي ذاتِ الإلَهِ ، وَإِنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ عَلى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله ابنُ الحارث ، فكان خُبيبٌ هو سنَّ الركعتين لكلِّ امرئ مسلم قُتِل صبراً .

فاستجاب الله لعاصم بنِ ثابت يومَ أُصيب ، فأَخبر النبيُّ ﷺ أصحابَه خبرَهم وما أصيبوا .

وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصمٍ حين حُدِّثوا أنه قُتل ، ليُؤتَوا بشيءٍ منه يعرف ـ وكان قد قَتل رجلاً من عظمائهم يومَ بدر ، فبُعث على عاصم مثلُ الظُّلَّة من الدَّبْر ، فحمته من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً . رواه البخاري(١).

(١) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب هل يستأسر الرجل ؟ ومن لم يستأسر ،... وكتاب المغازي : باب غزوة الرجيع ، ورعل وذكوان ،... وعاصم بن ثابت وخُبيب وأصحابه ، =

* جاء في روايات المغازي[1] : فلما وضعوا في خُبيب رضي الله تعالى عنه السلاحَ وهو مصلوب ، نادوه وناشدوه : أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال : لا ، والله العظيم ، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه .

* وأما زيد بنُ الدَّثِنَة رضي الله تعالى عنه فقد ابتاعه صفوان بنُ أمية بأبيه ؛ أُمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له : نسطاس ، إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهطٌ من قريش ، فيهم : أبو سفيان بنُ حرب ، فقال له أبو سفيان ـ حين قُدِّم ليُقتل ـ : أنشدك الله يا زيد ؛ أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟

قال : والله ، ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكةٌ تؤذيه ، وإني جالس في أهلي[2].

قال : يقول أبو سفيان : ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمد محمداً ، ثم قتله نسطاس .

رحم الله تعالى زيداً وخُبيباً ورضي عنهما ، فقد أعطيا المؤمنين المسلمين المحبّين درساً في الفداء ، لن تصل إليه عقول الناس بعد .

١٢ ـ طلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ضرب أعناق المنافقين .

* عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع النبيِّ ﷺ في غزاة ، فكسع

= وفي غيرها .

وانظر سيرة ابن هشام (٣ : ٢٤١ ـ ٢٦٠) والطبقات الكبرى (٢ : ٥٥ ـ ٥٦) وتاريخ الطبري (٢ : ٥٣٨ ـ ٥٤١) ودلائل النبوة (٣ : ٣٢٣ ـ ٣٢٥) والسيرة النبوية لابن كثير (٣ : ١٢٣ وما بعد) وسبل الهدى والرشاد (٦ : ٤٢ وما بعد) لبيان تلك الواقعة ، وما قيل فيها من شعر .

(١) وانظر فتح الباري (٧ : ٣٨٤).

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ :٢٤٥).

رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاريُّ : يا للأنصار . وقال المهاجريُّ : يا للمهاجرين . فسمعها رسول الله ﷺ . قال : « ما هذا؟ [ما بال دعوى الجاهلية ؟ »] فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجريُّ : يا للمهاجرين . فقال النبيُّ ﷺ : « دعوها ، فإنها منتنةٌ » ـ.

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبيُّ ﷺ أكثرَ ، ثم كثر المهاجرون بعد ـ فقال عبد الله بنُ أُبي : أَوَقد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . فقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله ؛ أضربُ عنقَ هذا المنافق . قال النبيُّ ﷺ : « دعه ، لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابَه ». متفق عليه[1].

* وعنه رضي الله تعالى عنه قال : أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ بالجعرانة ـ منصرفَه من حُنين ـ وفي ثوب بلال فضةٌ ، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس . فقال : يا محمد ؛ اعدل . قال : « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : دعني يا رسول الله ؛ فأقتلَ هذا المنافق . فقال : « معاذ الله أن يتحدَّث الناسُ أني أقتلُ أصحابي . إن هذا وأصحابَه يقرؤون القرآن ؛ لا يجاوز حناجرَهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ». متفق عليه[2].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة المنافقين : باب ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، رقم (٦٢ ـ ٦٤).

والكسع : أن يضرب دبر الآخر بظهر قدمه .

(٢) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب من الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين =

لقد سُمي صحابيّاً لوجوده بينهم ، وهو منتسب إليهم .

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بعث عليٌّ رضي الله عنه ـ وهو باليمن ـ بذَهَبة في تربتها إلى رسول الله ﷺ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر ... فجاء رجل كثُّ اللحية ، مشرف الوجنتين ، غائرُ العينين ، ناتئ الجبين ، محلوق الرأس ، فقال : اتق الله يا محمد . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فمن يطع الله إن عصيتُه ! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ » قال : ثم أدبر الرجل ، فاستأذن رجل من القوم في قتله (يرون أنه خالد بن الوليد) فقال رسول الله ﷺ : « إن من ضئضئ هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرَهم ، يقتلون أهلَ الإسلام ، ويَدَعون أهلَ الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة . لئن أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قتلَ عاد ».

* وفي رواية : فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقَه ؟ فقال : « لا ، لعله أن يكون يصلي » قال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال رسول الله ﷺ : « إني لم أُومر أن أُنقِّب عن قلوب الناس ، ولا أشقَّ بطونهم ».

* وفي رواية أخرى : فقام إليه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقه ؟ قال : « لا » قال : ثم أدبر فقام إليه خالد ـ سيف الله ـ فقال : يا رسول الله ؛ ألا أضربُ عنقه ؟ قال : « لا ».

* وفي رواية : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قَسماً ، أتاه ذو الخُوَيْصِرة ـ وهو رجلٌ من بني تميم ـ فقال : يا رسول الله ؛ اعدل (وفي

= ما سأل هوازن النبيَّ ﷺ برضاعة فتحلّل من المسلمين . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم (١٤٢).

رواية : يا محمد ؛ اعدل) قال رسول الله ﷺ : « ويلك ، ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل ». فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ؛ ائذن لي فيه أن أضربَ عنقه ،... الحديث بطوله ، متفق عليه(١) وللحديث روايات أخرى متعددة .

والنصوص في هذا الباب كثيرة ، اكتفيت بما ذكرتُ ، والله تعالى المعين .

لما شعر الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم أن في مقولة هؤلاء تنقيصاً بحق النبي المصطفى الكريم ﷺ طلبوا منه ﷺ قتلهم .

١٣ ـ موقف أبي بكر والمغيرة رضي الله تعالى عنهما يوم صلح الحدَيْبِيَة .

عن المسور بن مخرمة ومروان ـ يصدِّق كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه ـ قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحُدَيْبِيَة ،... الحديث بطوله . وفيه :

* فقال عروة بنُ مسعود : أي محمد ؛ أرأيتَ إن استأصلتَ أمرَ قومك ، هل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أهلَه قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فإني ـ والله ـ لا أرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك . فقال له أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : امصُص بَظْرَ اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟! فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده ، لو لا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

* قال : وجعل يكلم النبيَّ ﷺ ، فكلما تكلّم كلمةً أخذ بلحيته [أي : أخذ بلحية النبي المصطفى الكريم ﷺ كما هي عادتهم] والمغيرةُ بنُ شعبة [وهو

---

(١) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب علامات النبوة في الإسلام ، وفي غيرهما . حيث رواه في فضائل القرآن ، والأدب ، واستتابة المرتدين ، في أبواب عدة فيها . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج ، رقم (١٤٣ ـ ١٥٣).

ابنُ أخي عروة بن مسعود] قائم على رأس النبيِّ ﷺ ومعه السيف ، وعليه المِغفَر ، فكلما أهوى عروةُ بيده إلى لحية النبيِّ ﷺ ضرب يدَه بنعل السيف ، وقال له : أخِّر يدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروةُ رأسَه ، فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غُدر ، ألستُ أسعى في غدرتك ؟

* ثم إن عروة جعل يرمق أصحابَ النبيِّ ﷺ بعينيه . قال : فوالله ما تنخّم رسولُ الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمرَه ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم ؛ والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت مليكاً يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحابُ محمد ـ ﷺ ـ محمداً ،... ثم ذكر لهم ما رآه . رواه البخاري(١) .

في هذا الحديث أمور كثيرة فيها دلالة على تفاني الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ومحبتهم له ﷺ .

١٤ـ موقف الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الأعرابي الذي رفع صوته بحضرة النبي المصطفى الكريم ﷺ .

* عن صفوان بن عسّال رضي الله تعالى عنه قال : ... بينا نحن مع رسول الله ﷺ في مسير له ، إذ ناداه أعرابيٌّ بصوت له جهوريٍّ : يا محمد ، فأجابه النبيُّ ﷺ بنحوٍ من صوته : « هاؤم » فقلنا له : اغضض من صوتك ، فإنك نُهيتَ عن هذا . فقال : لا ، والله لا أغضض من صوتي . فقال : يا

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الشروط : باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط .

رسول الله ، المرءُ يحبُّ القومَ ولـمّا يلحق بهم . قال : « المرءُ مع من أحبَّ » الحديث بطوله ، رواه عبد الرزاق والحميدي والطيالسي وأحمد ، وصححه الترمذي وابن حبان[1].

١٥ـ موقف الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الأعرابي الذي أنكر جميل النبي المصطفى الكريم ﷺ معه .

* عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه رداءٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجبذه بردائه جبذةً شديدةً ، [رجع نبيُّ الله ﷺ في نحر الأعرابيِّ ، حتى انشق البرد ، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ] نظرتُ إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثَّرت بها حاشيةُ الرداء ، من شدة جبذته . ثم قال : يا محمد ؛ مُر لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء . متفق عليه[2].

هكذا جاءت هذه الرواية مختصرة ، لكن جاء في الروايتين التاليتين مفسرة مطوَّلة .

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦) ومسند الطيالسي (١٦٠) ومسند الحميدي (٢ : ٣٨٨ ـ ٣٨٩) ومسند أحمد (٤: ٢٤٠) وسنن الترمذي : كتاب الدعوات : باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده ، رقم (٣٥٣٦،٣٥٣٥) وصحيح ابن حبان (٢ : ٣٢٢) (٤: ١٤٩ـ١٥١) والمعجم الكبير (٨ : ٦٤ ـ ٦٥ ، ٦٨ ـ ٧٠ ، ٧٢) وهو مروي من طرق مختصراً ومطولاً عند كثير من المصنفات .

(٢) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس : باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلفةَ قلوبهم وغيرهم من الخمس ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة ، رقم (١٢٨).

* فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد ، فإذا قام قمنا . فقام يوماً وقمنا معه ، حتى لـمّا بلغ وسط المسجد أدركه رجل ، فجبذ بردائه من ورائه ـ وكان رداؤه خشناً ـ فحمَّر رقبتَه . فقال : يا محمد ؛ احمل لي على بعيرَيَّ هذين ، فإنك لا تحملُ من مالك ولا من مال أبيك . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، وأستغفر الله ، لا أحمل لك حتى تُقيدني مما جبذتَ برقبتي » فقال الأعرابيُّ : لا ، والله لا أقيدك . فقال رسول الله ﷺ ذلك ثلاثَ مرّات ، كلُّ ذلك يقول : لا ، والله لا أقيدك . فلما سمعنا قولَ الأعرابي ، أقبلنا إليه سراعاً ، فالتفتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال : « عزمتُ على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذَن له » فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم : « يا فلان ؛ احمل له على بعيرٍ شعيراً ، وعلى بعيرٍ تمراً » ثم قال رسول الله ﷺ : « انصرفوا ». رواه أبو داود والنسائي وأحمد والبيهقي[1]. وشاهده حديث أنس رضي الله تعالى عنه ، فهو به حسن .

* وعنه رضي الله تعالى عنه ، أن أعرابيّاً جاء إلى النبيِّ ﷺ يستعينه في شيء ، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال : « أحسنتُ إليك؟ » قال الأعرابيُّ : لا ، ولا أجملتَ ، قال : فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كُفّوا . ثم قام النبيُّ ﷺ فدخل منزلَه ، ثم أرسل إلى الأعرابي ، فدعاه إلى البيت ، فقال : « إنك قد جئتَنا فسألتَنا ، فأعطيناك ، فقلتَ ما قلتَه » فزاده رسول الله ﷺ شيئاً ، ثم قال : « أحسنتُ إليك ؟ » قال الأعرابيُّ :

---

(١) مسند أحمد (٢ : ٢٨٨) وسنن أبي داود : كتاب الأدب : باب في الحلم وأخلاق النبي ﷺ ، رقم (٤٧٧٥) وسنن النسائي : كتاب القسامة : باب القود من الجبذة (٨ : ٣٣ ـ ٣٤) والسنن الكبرى له (٤ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨) في الكتاب والباب نفسيهما ، وشعب الإيمان (٦: ٣٥٠ ـ ٣٥١) والآداب (١٢٥ ـ ١٢٦).

نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرةٍ خيراً . فقال له النبيُّ ﷺ : « إنك كنتَ جئتنا فسألتَنا ، فأعطيناك ، وقلتَ ما قلتَ ، وفي أنفس أصحابي [عليك] شيءٌ من ذلك ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدَيَّ ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك » قال : نعم .

فلما كان الغدُ أو العشيُّ ، جاء ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبَكم هذا كان جاء فسألنا ، فأعطيناه ، وقال ما قال ، وإنّا دعوناه إلى البيت فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضي ، أكذلك ؟ ».

قال الأعرابيُّ : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

قال أبو هريرة : فقال النبيُّ ﷺ : « ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي ؛ كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها وأعلَم ، فتوجَّه لها صاحبُ الناقة ، فأخذ لها من قمام [قتام] الأرض ، فردّها هوناً هوناً هوناً ، حتى جاءت ، واستناخت ، وشدَّ عليها ، وإني لو تركتُكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار ». رواه البزار وأبو الشيخ بإسناد ضعيف كما قال الحافظ العراقي ، ولكن يشهد له الروايتان السابقتان فهو بهما حسن[1]، والله تعالى أعلم .

١٦ ـ إفداء الصحابة رضي الله تعالى عنهم للنبي الكريم ﷺ بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم .

وذلك كقول أحدهم : فديناك بآبائنا وأمّهاتنا ، أفديك بأبي وأمي ، بأبي

(١) كشف الأستار (٣ : ١٥٩ـ ١٦٠) وأخلاق النبيِّ ﷺ (٧١ ـ ٧٢) والمغني عن حمل الأسفار (٢ : ٣٧٩) بهامش الإحياء .

أنت وأمي ، نفسي لك الفداء ،... ونحو ذلك . والأحاديث كثيرة ، لا يستوعبها هذا المختصر ، لذا أكتفي ببعض النماذج .

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال : « عبدٌ خيَّره الله بين أن يؤتيَه زهرةَ الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر ، وبكى ، فقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ،... الحديث بطوله ، متفق عليه[1].

* وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ـ في وفاة رسول الله ﷺ ، وفيه : فجاء أبو بكر ، فكشف عن رسول الله ﷺ ، فقبَّله ، فقال : بأبي أنت وأمي يا نبيَّ الله ؛ طبتَ حيّاً وميِّتاً ،... الحديث ، رواه البخاري[2].

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ ، معنا أبو بكر وعمر في نفر ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا ، ... الحديث بطوله ، وفي آخره ، فقال ـ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ـ يا رسول الله ؛ بأبي أنت وأمي ، أَبَعثْتَ أبا هريرة بنعليك ، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه بشَّره بالجنة ؟ الحديث بطوله ، رواه مسلم[3].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، رقم (٢).

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة : باب قول النبيِّ ﷺ : « لو كنتُ متخذاً خليلاً » وفي غيرهما ، وانظر : كتاب الصوم : باب الريّان للصائمين ، لحديث أبي هريرة لقولٍ آخر لأبي بكر رضي الله تعالى عنهما . وباب صوم الدهر لقول عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، =

* وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : مُرَّ بجنازة فأُثنِي عليها خيراً، فقال نبيُّ الله ﷺ: « وجبت وجبت وجبت » ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرّاً ، فقال نبيُّ الله ﷺ : « وجبت وجبت وجبت » قال عُمر : فدىً لك أبي وأمي ،... الحديث ، وفيه « أنتم شهداء الله في أرضه ». رواه مسلم[1].

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن وفدَ عبد القيس لـمّا أتَوا نبيّ الله ﷺ قالوا : يا نبيَّ الله ؛ جعلنا الله فداك ، ماذا يصلح لنا من الأشربة ؟... الحديث بطوله ، رواه مسلم[2].

* وعن أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه قال : انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة ، فلما رآني قال : « هم الأخسرون وربِّ الكعبة » قال : فجئتُ حتى جلستُ ، فلم أتقارّ أن قمتُ فقلت : يا رسول الله ؛ فداك أبي وأمي من هم ؟... الحديث بطوله ، متفق عليه[3].

* وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسَبُ إلا هلك » قالت : قلت : يا رسولَ الله ؛ جعلني الله فداءك ، أليس الله عز وجل يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

= رقم (٥٢) وانظر صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، لحديث جابر ، عن قول آخر لعمر رضي الله تعالى عنهما . وكتاب النكاح : باب الغيرة له أيضاً.

(١) صحيح مسلم : كتاب الجنائز : باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى ، رقم (٦٠).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب الأمر بالإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ ،... رقم (٢٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الأيمان والنذور : باب كيف كانت يمين النبي ﷺ . وصحيح مسلم : كتاب الزكاة : باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة ، رقم (٣٠) وانظر : باب الترغيب في الصدقة ، رقم (٣٣) وصحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب المكثرون هم المقلّون ، لرواية أخرى .

يَسِيرًا ﴾ قال : « ذاك العرْض ، يُعرضون ، ومن نوقش الحسابَ هلك ». رواه البخاري[1].

* وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ـ في قصة إردافه ﷺ صفية رضي الله تعالى عنها ، وفيه ـ قول أبي طلحة رضي الله تعالى عنه : يا نبي الله ؛ جعلني الله فداك ،... الحديث بطوله ، رواه البخاري[2].

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة هنيَّة ، فقلت : بأبي وأمي يارسول الله ؛ إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟... الحديث بطوله ، رواه البخاري[3].

* وعن أم العلاء رضي الله تعالى عنها ـ في قصة وفاة عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ، وفيه قولها : فقال لي النبيُّ ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه؟ » فقلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،... الحديث بطوله ، رواه البخاري[4].

فالذي يفدي رسول الله ﷺ بنفسه وولده ووالديه إنما الدافع هو المحبة والمفاداة والحرص ، وإلا فما الذي يدفعه على ذلك الفداء ؟؟؟

١٧ ـ تنبيه أبي بكر الصّدّيق لمن طلب منه قتل من أغضبه رضي الله تعالى عنهما أن ذلك خاص بالنبي الكريم ﷺ .

* عن أبي برزةَ الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال : كنا عند أبي بكر

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ باب : ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴾.

(٢) صحيح البخاري : كتاب الأدب : باب قول الرجل : جعلني الله فداك .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الأذان : باب ما يقول بعد التكبير .

(٤) صحيح البخاري : كتاب الشهادات : باب القرعة في المشكلات ، وفي غيرهما .

الصّدِّيق ـ رضي الله تعالى عنه ـ في عمله ، فغضب على رجل من المسلمين ، فاشتد غضبُه عليه جدّاً ، فلما رأيت ذلك ، قلت : يا خليفةَ رسول الله ﷺ ؛ أضربُ عنقَه ! فلما ذكرتُ القتلَ صَرَف عن ذلك الحديث أجمعَ إلى غير ذلك من النحو .

فلما تفرَّقنا أرسل إليَّ بعد ذلك أبو بكر الصّدِّيق . فقال : يا أبا برزةَ ؛ ما قلتَ ؟ قال : ونسيتُ الذي قلتُ . قلت : ذكِّرنيه . قال : أما تذكرُ ما قلتَ ؟ قال : قلتُ : لا والله ، قال : أرأيتَ حين رأيتَني غضبتُ على الرجل فقلتَ أضربُ عنقه يا خليفةَ رسول الله ﷺ ؛ أما تذكر ذاك ؟ أَوَكنتَ فاعلاً ذاك ؟

قال : قلتُ : نعم والله ، والآن إن أمرتَني فعلتُ . قال : ويحك ـ أو ويلك ـ إن تلك ـ والله ـ ما هي لأحد بعد محمد ﷺ .

زاد الحاكم في روايته : فقال : ليس هذا إلا لمن شتم النبيَّ ﷺ . رواه أحمد والطيالسي والحميدي وأبو داود والنسائي والمروزي وأبو يعلى والبزار بإسناد صحيح ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي[1].

والزيادة عند الحاكم صريحة في قتل من شتم رسول الله ﷺ ، وأما باقي الروايات ففيها الدلالة على تخصيص النبي المصطفى الكريم ﷺ بالعموم .

---

(١) مسند أحمد (١ : ٩ ، ١٠) ومسند الحميدي (١ : ٥ رقم ٦) ومسند الطيالسي (٣ رقم ٤) وسنن أبي داود : كتاب الحدود : باب الحكم فيمن سب النبيَّ ﷺ ، رقم (٤٣٦٣) وسنن النسائي : كتاب تحريم الدم : باب الحكم فيمن سب النبيّ ﷺ ، وباب ذكر الاختلاف على الأعمش (٧ : ١٠٨ ـ ١١١ من طرق) والسنن الكبرى له (٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٦ من طرق) ومسند أبي بكر الصديق (١٠٨ـ ١١٠رقم ٦٦ ـ ٦٨) ومسند أبي يعلى (١: ٨٢ ـ ٨٤ من طرق) والبحر الزخار (١: ١١٥ ـ ١١٧) والمستدرك (٤ : ٣٥٤ ، ٣٥٤ـ ٣٥٥).

١٨ ـ إهدار دم من شتم النبي المصطفى الكريم ﷺ .

لقد وُجد في زمن النبي المصطفى الكريم ﷺ بعضُ أهل الكتاب من سبَّ رسول الله ﷺ أو شتمه ، فقتله بعض الصحابة ، فأهدر النبي المصطفى الكريم ﷺ دمَه . وهذه بعض النماذج .

* عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، أن يهودية كانت تشتم النبيَّ ﷺ وتقع فيه ، فخنقها رجلٌ حتى ماتت ، فأبطل رسول الله ﷺ دمَها . رواه أبو داود والبيهقي[١].

* ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبيَّ ﷺ وتقع فيه ، فينهاها ، فلا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر ، قال : فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبيّ ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْولَ فوضعه في بطنها ، واتكأ عليها فقتلها ،... الحديث ، وفيه ، فقال النبيُّ ﷺ : « ألا اشهدوا أن دمَها هدر ». رواه أبو داود والنسائي والطبراني ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي ، ووثق الحافظ رجاله[٢].

لقد أهدر النبي المصطفى الكريم ﷺ دم هاتين لأن هذا هو الحكم ، والنصان يدلان على قيام الصحابة رضي الله تعالى عنهم بواجبهم .

---

(١) سنن أبي داود : كتاب الحدود : باب الحكم فيمن سب النبيّ ﷺ ، رقم (٤٣٦٢) والسنن الكبرى للبيهقي (٩ : ٢٠٠).

(٢) سنن أبي داود : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٤٣٦١) وسنن النسائي : كتاب تحريم الدم : باب فيمن سب النبيّ ﷺ (٧ : ١٠٧ـ١٠٨) والسنن الكبرى له (٢ : ٣٠٤) من كتاب المحاربة ، والمعجم الكبير (١١ : ٣٥١) وسنن الدارقطني (٣ : ١١٢، ١١٢ ـ ١١٣) (٤ : ٢١٦ ، ٢١٧) والمستدرك (٤ : ٣٥٤) وبلوغ المرام (٢٢٣) وانظر نيل الأوطار (٧ : ٣٧٩ـ٣٨١).

١٩ـ حكم الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ بعقوبة الذمّي الذي سب النبي المصطفى الكريم ﷺ .

* ـ عن غَرَفَة بن الحارث الكندي رضي الله تعالى عنه ، أنه مر به نصرانيٌّ فدعاه إلى الإسلام ، فتناول النصرانيُّ النبيَّ ﷺ وذكره ، فرفع غَرَفَةُ يدَه فدقَّ أنفه [وفي رواية : فقتله غَرَفَة] فرفع إلى عَمْرِو بن العاص . فقال عَمْرو : أعطيناهم العهد .

فقال غَرَفة : معاذ الله أن نكون أعطيناهم على أن يُظهروا شتمَ النبيِّ ﷺ ، إنما أعطيناهم على أن نخلّي بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يُطيقون ، وإن أرادهم عدوٌّ قاتلناهم مِن ورائهم ، ونخلّي بينهم وبين أحكامهم ، إلا أن يأتوا راضين بأحكامنا ، فنحكمُ بينهم بحكم الله وحكم رسوله ، وإن غيبوا عنا لم نعرض لهم فيها . قال عَمْرو : صدقت . رواه البخاري في تاريخه ، والبيهقي وابن الأثير، وأبو يعلى مطوّلاً وعزاه الحافظ لابن السكن[١].

* وعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنه ، أنه مر براهب ، فقيل : إن هذا سبَّ النبيَّ ﷺ ، فقال : لو سمعتُه لضربتُ عنقَه ، إنّا لم نعطهم العهدَ على أن يسبوا نبيَّنا ﷺ . رواه الحارث برجال ثقات ، ومسدد[٢].

هذه عقوبة كلِّ ذمِّيٍّ تعرَّض لمقدساتنا . لأنه بذلك نقض العهد .

---

(١) التاريخ الكبير (٧ : ١٠٩ ـ ١١٠) والسنن الكبرى (٩ : ٢٠٠) وإتحاف الخيرة المهرة (٥ : ٢١٢ ـ ٢١٣) والمطالب العالية (٢ : ٣٣٨ ـ ٣٣٩) وأسد الغابة (٤ : ٣٨) والإصابة (٥ : ٣٠٩).

(٢) بغية الباحث (٢ : ٥٦١) والمطالب العالية (٢ : ٣٣٨) وإتحاف الخيرة المهرة (٥ : ٢١٢).

٢٠ ـ غيرة الحيوان ودفاعه عن رسول الله ﷺ .

هذا باب واسع ، ذكرت جملةً منه في (شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ) كما ذكرت خلاصةً له في (محبة النبيّ ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد) وأقتصر هنا على بعض النصوص للتنبيه . لكن قبل ذكري لها أذكر حديثاً دالّا على معرفة الكون بجميع عناصره برسول الله ﷺ ، سوى الكفار من الإنس والجن .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر ، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار ، إذا فيه جمل ، لا يدخل الحائطَ أحدٌ إلا شدَّ عليه ، قال : فجاء النبيُّ ﷺ ، حتى أتى الحائطَ ، فدعا البعيرَ ، فجاءه واضعٌ مشفره في الأرض ، حتى برك بين يديه ، فقال النبيُّ ﷺ : « هاتوا حزاماً » فخطمه إلى أصحابه ، ثم التفت إلى الناس فقال : « إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله ، غير عاصي الجن والإنس ». رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة وعبد بن حُميد والطبراني والبزار ، وأبو نعيم والبيهقي والتيمي ـ ثلاثتهم في دلائل النبوة ـ والضياء المقدسي من طرق برجال ثقات . كما ورد عن عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

وقال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى : هذه طرق جيدة ، متعددة ، تفيد غلبة الظن أو القطع.اهـ[1].

(١) مسند أحمد (٣ : ٣١٠) وسنن الدارمي (١ : ١٩ رقم ١٨) ومصنف ابن أبي شيبة (١١ : ٤٧٣) ومسند عبد بن حُميد (٣٣٧ رقم ١١٢٢) وكشف الأستار (٣ : ١٥٠ـ ١٥١) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢ : ٤٩١ ـ ٤٩٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٢٢ ـ ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠) ودلائل النبوة للتيمي (١٢٩ ، ١٥٨رقم ١٣٩، ١٨٣) وانظر : كنز العمال (١١ : ٤١٧) والشمائل =

وأذكر مثالين في حرص الحيوان على رسول الله ﷺ ، ودفاعه عنه .

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن امرأةً يهوديةً أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ ، فسألها عن ذلك ، فقالت : أردتُ لأقتلك . قال : « لا ، ما كان الله ليسلِّطكِ على ذلك ». متفق عليه ، واللفظ لمسلم(1).

جاء في رواية البزار ـ لهذا الحديث ـ فلما مد يده ليأكل ، قال رسول الله ﷺ : « إن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة » ثم ذكر الحديث .

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : لـمّا فُتحت خيبر ، أُهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سم [زاد في رواية أبي داود وغيره ، فقال ﷺ : « ارفعوا أيديَكم ، فإنها أخبرتني أنها مسمومة »] فقال رسول الله ﷺ : « اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود » فجُمعوا له .

فقال رسول الله ﷺ : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أبوكم ؟ » قالوا : فلان . فقال رسول الله ﷺ : « كذبتم ، بل أبوكم فلان » فقالوا : صدقت وبررت ،...

ثم قال لهم : « هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا : نعم . فقال : « هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » فقالوا : نعم . فقال : « ما

= لابن كثير (٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، ٢٧٠) ومجمع الزوائد (٩ : ٤ ـ ٧) وإتحاف الخيرة المهرة (٩ : ٤٨) وسبل الهدى والرشاد (٢ : ٣٩٢) والمعجم الكبير (١٢ : ١٥٥) (٢٢ : ٢٦١ ـ ٢٦٢) والأحاديث الطوال (٣٠٦ـ٣٠٧ رقم ٥٤) وعلامات النبوة (١٢٥ ـ١٢٦).

(١) صحيح البخاري : كتاب الهبة : باب قبول هبة المشرك . وصحيح مسلم : كتاب السلام : باب السم ، رقم (٤٥) وكشف الأستار (٣ : ١٤٠ ـ ١٤١) ومجمع الزوائد (٨ : ٢٩٥).

حملكم على ذلك ؟ » فقالوا : أردنا إن كنتَ كاذباً نستريح منك ، وإن كنتَ نبيّاً لم يضرك . رواه البخاري[1].

وقد ورد ذلك من حديث عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما ذكرته في الكتابين المذكورين .

* وعن رجل من الأنصار رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة ، فرأيت رسول الله ﷺ ـ وهو على القبر ـ يوصي الحافر : « أوسِع من قِبَل رِجليه ، أوسع من قِبَل رأسه » فلما رجع ، استقبله داعي امرأة ، فجاء ، وجيء بالطعام ، فوضع يدَه ، ثم وضع القومُ ، فأكلوا ، فنظر أباؤنا رسولَ الله ﷺ يلوك لقمةً في فمه ، ثم قال : « أجد لحم شاة أُخذت بغير إذن أهلها » فأَرسلت المرأةُ قالت : يا رسول الله ؛ إني أرسلت إلى البقيع ، ليُشترى لي شاة ، فلم أجد ، فأرسلتُ إلى جارٍ لي قد اشترى شاةً ؛ أن أرسل إليَّ بها بثمنها ، فلم يوجد ، فأرسلتُ إلى امرأته ، فأرسلتْ إليَّ بها .

فقال رسول الله ﷺ : « أطعميه الأسارى ». رواه أحمد وأبو داود والطحاوي والبيهقي والدارقطني بأسانيد صحيحة ، وصححه الزيلعي[2].

* وعن جابر رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ وأصحابَه مرّوا بامرأة ، فذبحت لهم شاةً ، واتّخذت لهم طعاماً ، فلما رجع قالت : يا رسول الله ؛

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الطب : باب ما يذكر في سم النبيِّ ﷺ ، وفي غيرهما . وسنن أبي داود : كتاب الديات : باب في من سقى رجلاً سمّاً أو أطعمه فمات ، رقم (٤٥١٢).

(٢) مسند أحمد (٥ : ٢٩٣ ـ ٢٩٤) وسنن أبي داود : كتاب البيوع : باب في اجتناب الشبهات ، رقم (٣٣٣٢) وشرح مشكل الآثار (٧ : ٤٥٥ ، ٤٥٦) وشرح معاني الآثار (٤ : ٢٠٨) وسنن الدارقطني (٤ : ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ، ٢٨٦) والسنن الكبرى للبيهقي (٥ : ٣٣٥) ودلائل النبوة (٦ : ٣١٠) ونصب الراية (٤ : ١٦٨).

إنّا اتّخذنا لكم طعاماً ، فادخلوا فكلوا . فدخل رسول الله ﷺ وأصحابُه ، وكانوا لا يبدؤون حتى يبتدئ النبيُّ ﷺ ، فأخذ النبيُّ لقمةً ، فلم يستطع أن يسيغها ، فقال : النبيُّ ﷺ : « هذه شاةٌ ذُبحت بغير إذن أهلها » فقالت المرأة : يا نبي الله ؛ إنّا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ ، ولا يحتشمون منّا ، نأخذ منهم ، ويأخذون منا . رواه أحمد برجال الصحيح ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي ، وروى أحمد والنسائي والحاكم أوله[1].

وأذكر بعض النصوص فيها دفاع الحيوانات عن رسول الله ﷺ ، وفيها عظات وعبرٌ ، وتنبيه لمن له قلب يعقل ، أذكرها من غير تعليق ، لأنها تُنبئ عن نفسها ومحتواها .

* فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال : تشاورت قريش ليلةً بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح ، فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي ﷺ ـ وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأَطلع الله عز وجل نبيَّه على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النبيِّ ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبيُّ ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليّاً يحسبونه النبيَّ ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليّاً ، ردَّ الله مكرَهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خُلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسجَ العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال . رواه أحمد والطبراني والخطيب

(١) مسند أحمد (٣ : ٣٥١ ، ٣٦٥) والسنن الكبرى (٤ : ١٧٣) والمستدرك (٤: ١٠٩، ٢٣٤ ـ ٢٣٥) ومجمع الزوائد (٤ : ١٧٢ ـ ١٧٣).

البغدادي ، وعبد الرزاق ـ ضمن حديث طويل ـ ورواه الطبري في تاريخه مطولاً من أربع طرق بعضها صحيح ، وقد ورد من غير هذا الطريق بنحوه أيضاً ، وله شواهد مراسيل ، لذا حسنه ابن كثير والحافظ ابن حجر(١)، والله تعالى أعلم .

* وعن أبي مصعب المكي رحمه الله تعالى قال : أدركتُ زيد بنَ الأرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بنَ مالك ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يتحدَّثون ، أن النبيَّ ﷺ لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرةً فنبتت في وجه الغار ، فسترت وجه النبي ﷺ ، وأمر تبارك وتعالى العنكبوتَ فنسجت على وجه الغار ، وأمر تبارك وتعالى حمامَتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار .

وأتى المشركون من كل فج ، حتى كانوا من النبيِّ ﷺ على قدر أربعين ذراعاً ، معهم قسيهم وعصيهم [وسيوفهم] وتقدّم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين ، فرجع ، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار ، فعرفتُ أن ليس فيه أحد . فسمع النبيُّ ﷺ قولَه ، فعلم أن الله تبارك وتعالى قد درأ بهما عنه ، فسمَّتَ عليهما ، وفرض جزاءَهما ، واتخذ في حرم الله تبارك وتعالى فرخين ، فأصل كل حمام الحرم من فراخهما . رواه البزار والطبراني وابن سعد وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل ، وابن عساكر ،

(١) مسند أحمد (١ : ٣٤٨) والمعجم الكبير (١١ : ٤٠٧) ومصنف عبد الرزاق (٥ : ٣٨٩) وتاريخ بغداد (١٣ : ١٩١ ـ ١٩٢) ومجمع الزوائد (٧ : ٢٧) وتاريخ الطبري (٢ : ٣٧٠ ـ ٣٧٤). والسيرة النبوية لابن كثير (٢ : ٢٣٩) وفتح الباري (٧ : ٢٣٦) وانظر : الطبقات الكبرى (١ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ومسند أبي بكر الصديق (١١٧ ـ ١١٨ رقم ٧٣) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ٢٥٧ ـ ٢٦٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٢ : ٤٦٨ ـ ٤٦٩) وانظر فيه ما قبله . وانظر سيرة ابن هشام .

وفي إسنادهم أبو مصعب ، لا يعرف ، لكن شاهده الحديث السابق ، فهو به حسن[1].

* عن أبي عقرب رضي الله تعالى عنه قال : كان لهب بن أبي لهب يسبُّ النبيَّ ﷺ ، فقال النبيُّ : « اللهم سلِّط عليه كلبَك » فخرج في قافلة يريد الشام ، فنزل منزلاً فقال : إني أخاف محمداً ـ ﷺ ـ قالوا له : كلا ، فحطّوا متاعهم حوله ، وقعدوا يحرسونه ، فجاء الأسد فانتزعه ، فذهب به . رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وحسنه الحافظ ، ورواه آخرون[2].

* وعن هبّار بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال : كان أبو لهب وابنه عتيبة قد تجهّزا إلى الشام ، وتجهَّزتُ معهما ، فقال ابنُه عُتيبة : والله لأنطلقنَّ إليه ، ولأوذينَّه في ربِّه ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد هو يكفر بالذي ﴿ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك » ثم انصرف عنه ، فرجع إليه فقال : أي بُنَي ، ما قلتَ له ؟ قال : كفرتُ بإلهه الذي يعبد . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال « اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك ».

فقال : أي بُنَيَّ ؛ والله ، ما آمن عليك دعوةَ محمد .

---

(١) كشف الأستار (٢ : ٢٩٩ ـ ٣٠٠) والمعجم الكبير (٢٠ : ٤٤٣) والطبقات الكبرى (٢ : ٢٢٨) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢ : ٤١٩ ـ ٤٢٠) وللبيهقي (٢ : ٤٨١ ـ ٤٨٢) ومجمع الزوائد (٥ : ٥٢ ـ ٥٣) ومختصر زوائد البزار (٢: ٩ـ١٠) وانظر السيرة النبوية لابن كثير (٢: ٢٤٠ـ ٢٤١) والخصائص الكبرى للسيوطي (١ : ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) المستدرك (٢ : ٥٣٩) وبغية الباحث (٢ : ٥٦٢) وفتح الباري (٤ : ٣٩) ومعرفة الصحابة (٥ رقم ٦٠٥٠، ٦٩٢٦) ودلائل النبوة للبيهقي (٢ : ٣٣٨ ، وانظر فيه ٣٣٨ ـ ٣٣٩) لبيان أنه عُتيبة ، وإتحاف الخيرة المهرة (٥ : ٢١٢).

قال : فسرنا حتى نزلنا الشَّراةَ ، وهي مأسدة ، فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يا معشر العرب ؛ ما أنزلكم هذه البلاد ، وإنها لمسرح الضَّيغم [أي : الأسد] فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم حقّي ، قلنا : أجل يا أبا لهب ؛ فقال : إن محمداً قد دعا على ابني هذا دعوةً ، والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، ثم افرشوا لابني عُتيبة ، ثم افرشوا حوله . قال : ففعلنا . جمعنا المتاع حتى ارتفع ، ثم فرشنا له عليه ، وفرشنا حوله ، فبينا نحن حوله ، وأبو لهب معنا أسفل ، وبات هو فوق المتاع .

فجاء الأسد ، فشمَّ وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبَّض ، ثم وثب ، فإذا هو فوق المتاع ، فجاء الأسد فشم وجهَه ، ثم هزمه هزمةً ففضخ رأسَه ، فقال : سيفي يا كلب ؛ لم يقدر على غير ذلك ، ووثبنا ، فانطلق الأسد ، وقد فُضخ رأسه ، فقال له أبو لهب : قد عرفتُ ـ والله ـ ما كان لينفلت من دعوة محمد . رواه أبو نعيم وابن قانع[1] كما ورد من غير هذا الطريق أيضاً .

* وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله ابن قَمِئة بحجر يومَ أُحُدٍ ، فشجَّه في وجهه ، وكسر رباعيتَه ، وقال : « خذها وأنا ابنُ قَمِئة . فقال له رسول الله ﷺ ـ وهو يمسح الدمَ عن وجهه : « مالَك ، أقمأك الله » فسلَّط الله عليه تيسَ جبلٍ ، فلم يزل ينطحه ، حتى قطَّعه قِطعةً قطعةً . رواه الطبراني[2].

* وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في ترجمة علي بن مرزوق بن

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٨٥ ـ ٥٨٦، وانظر فيه ٥٨٦ ـ ٥٨٧)ومعجم الصحابة (٣ : ٢٠٧).

(٢) المعجم الكبير (٨ : ١٥٤) ومجمع الزوائد (٦ : ١١٧) وفي السند : حفص بن عمر العدني .

أبي الحسن الرَّبَعي السُّلامي[1] ذكر عن جمال الدين إبراهيم بن محمد الطِّيبي : أن بعض أمراء المغل [المغول] تنصَّر ، فحضر عنده جماعةٌ من كبار النصارى والمغل [المغول] فجعل واحدٌ منهم ينتقص النبيَّ ﷺ ، وهناك كلبُ صيدٍ مربوط ، فلما أكثر من ذلك ؛ وثب عليه الكلبُ ، فخمشه ، فخلَّصوه منه .

وقال بعض من حضر : هذا بكلامك في محمد (ﷺ) فقال : كلا ، بل هذا الكلبُ عزيزُ النفس ، رآني أشير بيدي ، فظن أني أريد [أن] أضربه .

ثم عاد إلى ما كان فيه [يعني من الكلام في رسول الله ﷺ] فأطال ، فوثب الكلبُ مرةً أخرى ، فقبض على زَرْدِمَتِهِ [ما كان مقابل الحنجرة ، وهي من زرد الطعام ، أي ابتلعه] فقلعها ، فمات من حينه ، فأسلم بسبب ذلك نحوُ أربعين ألفاً من المغل [المغول].اهـ.

* إذا كانت الشاة المسمومة غارت عليه ﷺ، وخافت أن يدخل جوفَه الكريم ﷺ لحمٌ مسمومٌ ، فيتضرر به ، فإن الشاة التي ذُبحت بغير إذن أهلها خافت هي الأخرى أن يدخل جوفَه الكريمَ لحمٌ مشبوه ، والحيونات الأخرى قامت بواجب الدفاع ، حيث قتل الأسد من أهان رسول الله ﷺ ، وقطع تيسُ الجبل من آذى رسول الله ﷺ ، وكذا قتل الكلب من شتم النبي المصطفى الكريم ﷺ ، هذه حيوانات ، لكنها تعقل وتعلم رسول الله ﷺ ، كما بينته في غير ما كتاب[2].

فإذا كانت الحيوانات هكذا تفعل معه ؛ فكيف بحال المسلم العاقل المحب ، الذي يجب عليه حمايتُه ونصرتُه والدفاعُ عنه .

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) انظر : الإدراك عند الجمادات ، وشوق الجمادات واستجابتها له ﷺ ، ومحبة النبيِّ ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد .

* إن مقتضى وجوب نصرته ﷺ ، وتقديم نفسه الشريفة على نفوس المسلمين ، ووجوب تقديم محبته ﷺ على محبة جميع الكائنات ، ووجوب توقيره ﷺ وتعزيره وتكريمه ، ومقتضى البيعة مع المسلمين ـ من الأنصار رضي الله تعالى عنهم ـ أن يمنعوه مما يمنعون منه النفس والزوج والولد ،... كل ذلك ـ وغيره كثير لم أذكره ـ يقتضي فداءه والدفاع عنه ، والاستماتة دونه ، والموت بين يديه ، والمحافظة على رفعة قدره ﷺ ، وعلو مكانته ،...

* فكيف وقد جعل ميزان إيمان المحب ـ بعده ﷺ ـ دفع الأهل والمال وما يملك ، من أجل رؤيةٍ واحدة لذلك الوجه الكريم ، ممن فاته الإكرام برؤية تلك الطلعة البهية ، والجثو بين يديه ، والسعادة بمرافقته ولو لحظة .

* إن ما رأيناه من إقدام الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وقد فعل ، من تقديمه ﷺ على النفس والزوج والولد والخلق جميعاً : هو برهان على صدقهم معه ﷺ ، وصحة معتقدهم ، وقوة إيمانهم ، ولم يكونوا مبالغين فيما فعلوا ، بعد إقرار الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ لهم .

* لقد عبّرت المرأة الأنصارية رضي الله تعالى عنها عن محبتهم جميعاً ، بعد أن أشيع قتله ﷺ يوم أُحُد ـ وقد قُتل أبوها وأخوها وزوجها ـ بقولها : كلُّ مصيبةٍ بعدك يا رسول الله جلل . نعم إن المصيبةَ به وبفقده ﷺ لا تقابلها مصيبةٌ أخرى ، ولو كانت جميع مصائب الدنيا .

* ولا أدل على حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وقد فعل يوم وفاته ﷺ ، كيف صار معهم ، إذ منهم من أُقعد ، ومنهم من خشي على عقله ، ومنهم من ذُهل ، ومنهم من كُسر ظهره فلم يقدر على القيام ، ومنهم من عمي فلا يرى أحداً بعده ﷺ ، ومنهم ، ومنهم ،...إلخ .

* إن ما مر في هذه الكتاب من تركه ﷺ عقوبة من حاول الغدر به أو اغتياله ، أو الإساءة إليه ،... فهذا حقُّه ﷺ الشخصي ، وقد أسقطه ، لأنه رحمة مهداة ، ولكي يتألف الخلق على الإسلام ، لكن ما فعله الصحابة رضي الله تعالى عنهم فهو واجبهم ، وكذا هو واجب كلّ مسلم بعدهم ، يحب الله تعالى ورسوله ، لأنه لا يوجد من يُسقط حقَّ رسول الله ﷺ بعده ، ولا يملك أحدٌ القيامَ به ، إنما الباقي في حق المسلمين هو الواجب في حقهم من النصرة والتأييد والتوقير والتعزير والفداء والاستماتة والدفاع ، وتقديم نفسه وهواه على نفس المسلم وهواه ، وتقديم محبته ﷺ على محبة من سواه من الخلق ، والله تعالى أعلم .

وحبذا إفراد واجب الأمة نحوه ﷺ ، في رسالة مستقلة ، وأرجو الله تعالى أن يعينني على إفرادها ، حتى يكون التوازن بين الأمرين ، والله تعالى هو الموفق والمعين .

وصلى الله على سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته المقربين المبجلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

* * * * *

المبحث الثاني
مظاهر الرحمة المهداة ﷺ في الآخرة

إن مظاهر الرحمة المهداة في الآخرة تظهر بأوسع صورها ، وأكمل أشكالها ، وأتم أحوالها ، وذلك حين امتناع جميع الأنبياء والرسل وأولو العزم منهم عليهم السلام عن الشفاعة للخلق ، في بدء الحساب ، ويتخَلَّوْن عن أممهم ، ويسألون نجاةَ أنفسهم ، من هول ما يرونه يومئذ ، ولم يتقدَّم لها سوى الرحمة المهداة ﷺ . حيث يقول كلُّ واحد منهم : « نفسي نفسي » إلا هو - بأبي هو وأمي - فيقول : « أنا لها ، أنا لها » فيفوِّض أمرَ نفسه إلى خالقه ومُكرِمه ، ويسأل ربَّه تعالى الشفاعةَ للخلق جميعاً بما فيهم الكفار ، بل يكون الكفارُ أكثرَ الناس يومئذ . ويخص ﷺ أمَّتَه بالذكر ، ولن يتخلّى عنها البتة .

- منحه ﷺ المقام المحمود .

لقد اختص الله تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بأن أعطاه الشفاعةَ العظمى ، وهي المقام المحمود الذي يحمده عليه أهلُ الجمع كلهم ، إضافة إلى عدد كبير من الشفاعات ، أغلبُها لم يعطها أحد من الخلق سواه .

وإذا تصوّرنا الموقف وهوله ، حيث إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق ، ويغرق الناس بالعرق الذي خرج من أجسادهم على حسب ذنوبهم ، ويستمر الحال خمسين ألف سنة ، ويدوك الناس بحيث إن أحدهم يتمنى أن يُلقى في النار ، ليتخلص مما هو فيه . ويأتون الرسلَ الكرامَ أولي

العزم عليهم السلام ليشفعوا لهم عند ربهم ، فيعتذرون ، من هول ما هم فيه ، وكلٌّ واحد منهم يسأل نجاةَ نفسه ، إلا هو ـ بأبي هو وأمي ـ ﷺ ، فيقول : « أنا لها ، أنا لها » عرفنا قيمة تلك الشفاعة ، وذلك الموقف الكريم المشرّف منه ﷺ ، ومدى رحمته بالخلق جميعا .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1].

ـ بعض الأحاديث الدّالة على المقام المحمود .

إن الأحاديث الشريفة الدّالة على الشفاعة ـ بأنواعها ـ كثيرة جدّاً ، تزيد على المئات ، وقد ذكرتُ كثيراً منها في كتاب (الشفاعة) لكن أذكر هنا بعض تلك الأحاديث الدالة على المقام المحمود ، وهو شفاعة النبي المصطفى الكريم ﷺ للخلائق كلها في بدء الحساب ، مع اعتذار جميع الأنبياء عليهم السلام عن ذلك ، حتى يُميَّزوا إما إلى الجنة وإما إلى النار ، لهول ما هم فيه .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ [من الأنبياء] قبلي ؛ كان كلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصةً ، وبُعثتُ إلى كلِّ أبيض وأسود [وعند البخاري : وبُعثتُ إلى الناس عامّةً] وأُحلّت ليَ الغنائمُ ، ولم تَحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلت ليَ الأرضُ طيِّبَةً ؛ طهوراً ومسجداً ، فأيّما رجلٍ أدركتْه الصلاةُ صلّى حيث كان ، ونُصرتُ بالرعب بين يدَيَّ مسيرةَ شهر ، وأُعطيتُ الشفاعة » . متفق عليه[2].

---

(١) سورة الإسراء (٧٩).

(٢) صحيح البخاري : كتاب التيمم : الباب الأول ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب المساجد ، رقم (٣).

وعن عبد الله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما قال : « إن الناس يصيرون يومَ القيامة جُثاً ، كلُّ أمة تتبع نبيَّها ، يقولون : يا فلان ؛ اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود ». رواه البخاري[1].

وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « إن الشمسَ تدنو يوم القيامة ، حتى يبلغ العرقُ نصفَ الأذن ، فبينا هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد ﷺ ، فيشفع ، ليُقضى بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذَ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ؛ يحمدُه أهلُ الجمع كلهم ». رواه البخاري[2].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : حدَّثني نبيُّ الله ﷺ قال : « إني لقائمٌ أنتظرُ أُمّتي يعبرون الصراط ، إذ جاءني عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد ؛ هذه الأنبياء قد جاءتك يسألونك أن يجتمعوا إليك ، فتدعو الله أن يفرِّق بين جَمْع الأمم إلى حيث يشاء ، لِغَمِّ ما هم فيه ، فالخلقُ مُلجَمون في العَرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزُّكمة ، وأما الكافر فيتغشّاه الموت . قال : قال[3]: عيسى ، انتظر حتى أرجع إليك . قال : فذهب نبيُّ الله ﷺ ، حتى قام تحت العرش ، فلقي ما لم يلق مَلَكٌ مصطفى ، ولا نبيٌّ مرسلٌ ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل : اذهب إلى محمد ، فقل له : ارفع رأسَكَ ، سل

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة الإسراء : باب ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾.

(٢) صحيح البخاري : كتاب الزكاة : باب من سأل الناس تكثراً ، وفي غيرهما .

(٣) القائل ـ والله تعالى أعلم ـ هو النبيُّ الكريم ﷺ ، ويكون المعنى : قال أنس : قال النبيُّ ﷺ : « يا عيسى انتظر ... ».

تعطَ ، واشفع تشفَّع ،... » الحديث بطوله ، رواه أحمد وابن خزيمة وسعيد ابن منصور برجال الصحيح[1].

فمن رحمته ﷺ التي خصّه الله تعالى بها أن يشفع للخلائق جميعاً بما فيهم الكفار ، وللأمم جميعاً ، في بدء الحساب ، لأنه ﷺ يرى ما حل بالخلق ، فلم تطب نفسه أن يبقوا مدة أخرى أطول ، وهم في العذاب ، لذا يشفع ﷺ لهم ، ليتميّز الناس ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

ـ تخلّي الأنبياء عليهم السلام عن الخلق بما فيهم أممهم إلا هو ﷺ .

إن الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ينظرون يوم القيامة إلى موقفين ؛ غضب الله تعالى في ذلك اليوم ، وما صدر منهم في حال الحياة الدنيا ، لذا لا يستطيعون أن يتقدّموا بين يدَي الله تعالى ليشفعوا للخلق ، خشية المؤاخذة عما صدر منهم ، وخجلاً من الله تعالى ، لذا فإنهم يسألون نجاةَ أنفسهم ، ويتخلون عن الخلق جميعاً .

أما النبي المصطفى الكريم ﷺ ؛ فقد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ـ لذا لا يُسأل ولا يؤاخذ عن شيء ـ وحفظه الله تعالى من كل صغير وكبير ،... وجعله لا يتحرك إلا بالوحي الذي يوحيه إليه ،... وأكرمه بما لم يُكرم أحداً من خلقه ، وخصّه بما لم يخص أحداً من أنبيائه ورسله ، فجعله رحمةً مهداةً ورؤوفاً رحيماً ،... واستعلاه على الخُلُق العظيم ،... لذا كما كان ﷺ مفوِّضاً أمر نفسه إلى ربه تعالى في الدنيا ـ لأنه بأعين الله عز وجل ـ فهو مفوِّضٌ أمر نفسه لربه تعالى في الآخرة ، وعلى الحالتين ؛ فهو رحمة ، وهو رحيم رؤوف ،

(١) مسند أحمد (٣ : ١٧٨) وكتاب التوحيد لابن خزيمة (٢ : ٦١٦ ـ ٦١٧) ومجمع الزوائد (١٠ : ٣٧٣ ـ ٣٧٤) والترغيب والترهيب (٦ : ٢١٨ ـ ٢١٩) وكنز العمال (١٤ : ٤٠٥ ـ ٤٠٦) وفتح الباري (١١ : ٤٣٦).

وكيف يكون رحمةً رؤوفاً رحيماً ولا يظهر أثرُ تلك الرحمة في ذلك الموقف الرهيب ، الذي لا أحوج للخلق للرحمة منه . لذا فإنه ﷺ يتقدّم للشفاعة ، لأن الله تعالى أعطاه إياها ، وجعله رحمةً للخلق جميعاً ، كما هو ﷺ رسولٌ لهم جميعاً ، فيعرفون فضلَه ثانية ، كما عرفوه في الدنيا ليلة الإسراء ، حيث صلى الأنبياء عليهم السلام خلفه مأمومين ، وهم مؤتمّون به ﷺ .

والأحاديثُ النبوية الشريفة في بيان تخلي أولي العزم من الرسل عليهم السلام يوم العرض عن الخلق جميعاً ـ بما فيهم أممهم ـ وتقدُّمه هو ﷺ بالشفاعة ، فيُقضى بين الناس : كثيرةٌ جدّاً . أقتصر على ذكر ثلاثة منها .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : أُتي رسول الله ﷺ يوماً بلحم ، [وفي رواية : كنا مع رسول الله ﷺ في وليمة] فرفعت إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة ، فقال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخِرين في صعيدٍ واحد ، فيُسمعهم الدّاعي ، ويَنفُذُهم البصر ، وتدنو الشمسُ ، فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون ، وما لا يحتملون ، فيقول بعضُ الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفعُ لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضُ الناس لبعض : ائتوا آدم . فيأتون آدمَ ، فيقولون : يا آدم ؛ أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا . فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ؛ أنت أول الرسل إلى

الأرض ، وسمّاك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبيُّ الله وخليلُه من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه ، ولا يغضب بعده مثلَه ، وذكر كذباته . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى ﷺ ، فيقولون : يا موسى ؛ أنت رسول الله ، فضلَّك الله برسالاته ، وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه ، ولن يغضب بعده مثلَه ، وإني قتلتُ نفساً لم أُومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ . فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ؛ أنت رسول الله ، وكلّمتَ الناس في المهد ، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه ، ولن يغضب بعده مثلَه ـ ولم يذكر له ذنباً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ . فيأتوني ، فيقولون : يا محمد ؛ أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليَّ ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ،

ثم يقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفَّع ، فأرفع رأسي فأقول : يا ربِّ أمَّتي ، أمَّتي . فيقال : يا محمد ؛ أدخل الجنةَ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَر ـ أو كما بين مكة وبُصرى ». متفق عليه(١).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : حدثنا محمد ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناسُ بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم فيقولون له : اشفع لذريتك . فيقول : لستُ لها [ولكن ائتوا نوحاً أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض . قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئتَه التي أصاب ، فيستحي ربَّه منها](٢) ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام ، فإنه خليل الله . فيأتون إبراهيم ، فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بموسى عليه السلام ، فإنه كليم الله . فيُؤتى موسى ، فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام ، فإنه روح الله . فيؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ . فأُوتى ، فأقول : أنا لها ، فأنطلق فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن ؛ يلهمنيه الله ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ؛ ارفع رأسَك ، وقل يُسمع ، وسل تعطه ، واشفع تُشفَّع . فأقول : يا ربِّ أمتي أمتي ،...» الحديث بطوله ، متفق عليه(٣).

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة الإسراء : باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ... ﴾ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، رقم (٣٢٧).

(٢) يعني ـ والله تعالى أعلم ـ : فيستحي من ربِّه منها .

(٣) صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء =

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله تعالى عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناسَ . فيقوم المؤمنون حتى تُزلفَ لهم الجنةُ . فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنةَ . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم آدم ! لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليلِ الله . قال : فيقول إبراهيم : لستُ بصاحب ذلك ، إنما كنتُ خليلاً مِن وراء وراء ، اعمِدوا إلى موسى ﷺ الذي كلَّمه الله تكليماً . فيأتون موسى ﷺ فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمةِ الله وروحِه . فيقول عيسى ﷺ : لست بصاحب ذلك . فيأتون محمداً ﷺ . فيقوم ، فيُؤذن له ـ وترسلُ الأمانة والرَّحمُ ، فتقومان جنبتي الصراط ؛ يميناً وشمالاً ـ فيمر أولُكم كالبرق » قال : قلت بأبي أنت وأمي ، أي شيء كمر البرق ؟ قال : « ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم كمر الطير وشدِّ الرجال ؛ تجري بهم أعمالُهم . ونبيُّكم قائم على الصراط يقول : ربِّ ، سلِّم سلِّم . حتى تعجزَ أعمالُ العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيعُ السيرَ إلا زحفاً . قال : وفي حافَتَي الصراط كلاليبُ معلَّقةٌ ، مأمورةٌ بأخذ مَن أُمرتْ به ؛ فمخدوشٌ ناجٍ ، ومكدوسٌ في النار ». رواه مسلم[1].

ففي هذه الأحاديث الشريفة ـ وغيرها مما لم أذكره ـ دلالة صريحة على تخلي أولي العزم عليهم السلام عن الشفاعة للخلق في ذلك اليوم ، كما فيه دلالة على تخليهم أيضاً عن أممهم ، كما فيه دلالة على سؤال كل واحد منهم مصلحة نفسه ، لما يرى من الهول وخطورة الموقف ، لذا يقول كلُّ واحد

= وغيرهم ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٢٦).

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : الباب السابق ، رقم (٣٢٩).

منهم : « نفسي نفسي ».

أما النبي المصطفى الكريم ﷺ فعلى العكس من ذلك ، فله موقفان ، موقف بالنسبة للخلق جميعاً ولو كانوا كافرين ، وموقف متعلق بأمته . ومن كمال رحمته في الموقفين فإنه ﷺ قد فوَّض أمر نفسه لربه تعالى ،... وسأل الخلاصَ للخلق .

ـ **أما بالنسبة للخلق جميعاً** ؛ فقد سأل ربّه عز وجل بدءَ الحساب لهم جميعاً ، لأنه الرحمة المهداة لهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فكيف يتخلّى عنهم وهم في هذا الموقف الرهيب ، ويعانون من العذاب النفسي ، الذي لا يدري أحدُهم ما مصيره بعد قليل ؟ ولا يدري متى يتبين مصيره ، ولا أشد ولا أصعب من الانتظار ، مع تخلي أنبيائهم عنهم .

بل إن الأنبياء عليهم السلام أنفسهم يرغبون إليه ﷺ في ذلك اليوم ـ كما في حديث أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه ، الذي في آخره قوله ﷺ : « فقلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي ، وأخّرتُ الثالثةَ ليومٍ يرغب إليَّ الخلقُ كلُّهم ، حتى إبراهيم ﷺ ». رواه مسلم[1].

فإذا كان إبراهيم عليه السلام ـ وهو أفضلُ الخلق بعد رسول الله ﷺ ـ يرغبُ إليه ، فكيف بمن دونه من الرسل والأنبياء عليهم السلام ؟ وكذا كيف بمن هو دون الرسل والأنبياء عليهم السلام ؟

إن كلّ نبيّ يرى في نفسه تقصيراً عن مقام الشفاعة ـ مع وجود ما صدر منه في الدنيا ، لذا هو مشفق من المؤاخذة ـ أو أن كلَّ واحد منهم يعلم أنه

(١) صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين : باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف ، رقم (٢٧٣).

ليس هو صاحب الشفاعة ـ بخلاف نبينا الكريم ﷺ في ذلك كله ، ومن ثَمّ احتج عيسى عليه السلام بأنه ﷺ صاحب الشفاعة ، لأنه ﷺ قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، بمعنى أن الله تعالى أخبر أنه لا يؤاخذه بذنب ، لذا يخاطبه عيسى عليه السلام بذلك ، وأن الأنبياء يسألونه في ذلك[1].

فآدم عليه السلام أكل من الشجرة ، ونوح عليه السلام دعا على قومه بالهلاك ، فهلكوا جميعاً ، إلا من آمن وهم قلة ، وإبراهيم عليه السلام ذكر ما حصل له من التورية ، وموسى عليه السلام قتل نفساً بريئة بغير ذنب ، وعيسى عليه السلام عُبد من قومه مع الله تعالى .

أما هو ﷺ فلم يحصل له شيء من ذلك ، ولم يصدر منه شيء يُنقم عليه فيه ، ومع هذا فقد غفر الله تعالى له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ، وجعله الله تعالى رحمةً للعالمين ، وأعطاه الشفاعة وهو في الدنيا ، لذا يتقدّم هو ﷺ للشفاعة ، لأن ذلك من آثار الرحمة الكاملة ، التي خصه الله تعالى بها ، والله تعالى أعلم .

لذا لما يأتيه الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ كمندوبين عن الخلق ـ وأطلب السماح عن هذا التعبير ـ كما مر في حديث أنس رضي الله تعالى عنه ـ يسألونه أن يشفع للخلق جميعاً ـ مع تخليهم عن أممهم ، يقول ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ : « أنا لها ، أنا لها ».

هذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[2].

---

(١) انظر فتح الباري (١١ : ٤٣٦).

(٢) سورة الإسراء (٧٩).

لذا عُرف فضله ومكانته ومنزلته ﷺ... عند ربه تعالى[1]. بالإضافة إلى تحقق الرحمة الكاملة بالعالمين ، حيث لم يتخل ﷺ عن الخلق ، بل يشفع لهم جميعاً ، ولو كانوا كافرين ، وظهر مصداق قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، والله تعالى أعلم .

ـ **وأما بالنسبة لأمته** ﷺ ؛ فإنه يسأل ربَّه عز وجل نجاتَها ، ويكرِّر : « ربِّ ، أمتي أمتي » لذا شفَّعه الله تعالى فيها ، وقد أعطاه الله عز وجل (١٣) نوعاً من الشفاعات ، فيخرج مِن النار مَن دخلها منها . بل أعطى الله تعالى أمةَ نبيه الكريم ﷺ أنواعاً من الشفاعات ـ إكراماً لنبيه الكريم ﷺ ـ ليشفعوا في إخوانهم من المؤمنين المقصرين ، الذين وقعوا في نار جهنم . وقد توسعتُ في بيان الشفاعة في كتاب (الشفاعة ، والرد على منكريها)، والله تعالى أعلم .

أسأله تعالى أن يكرمنا بشفاعة نبيه الكريم ﷺ ، وبمرافقته ، والحشر معه ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

*****

---

(١) انظر : الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن الأنبياء عليهم السلام ، وعظيم قدره ﷺ ، والشفاعة .

وانظر : الفصل الرابع والخمسين ، والخامس والخمسين ، والسادس والثلاثين بعد المائة ، من (**إنجيل برنابا**) لبيان ما ذكر من الشفاعات له ﷺ ، وكيف أن الأنبياء عليهم السلام يعتذرون عنها ، ويأتونه ويُقَبِّلون يدَه الكريمة ، ويتقدّم ﷺ هو الوحيد للشفاعة ، وسيأتي ذلك بعد قليل ، إن شاء الله تعالى .

إشكال

الجمع بين هذه الرحمة وأمره بقتل بعض الكفار[1].

إن قيل : إذا كان رسولُ الله ﷺ رحمةً للعالمين ، وهو رحمة للكفار : فكيف أَمر بقتل بعض الكفار ، سواء كانوا جماعة أو أفراداً ؟

والجواب على ذلك من وجوه[2]:

أولاً : نعم إن رسول الله ﷺ هو رحمة للعالمين ، وأنه رؤوف رحيم ، ولكنه في الوقت نفسه جاء بالسيف لمن عاند واستكبر ، ولم يتفكر ، ولم يتدبر ، أو نقض العهد وتكبر .

ونظيرُ ذلك : إن من أوصاف الله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3] وأنه تعالى أرحم بعباده منهم ، وأنه تعالى جعل الرحمة مائة جزء ، أنزل منها جزءاً واحداً إلى الأرض ، ليتراحم الخلق به ، ويعيد هذا الجزء ليرحم عباده بالمائة يوم القيامة ، بل لو علم الكافر بكل ما عند الله تعالى من الرحمة ما أيس من الجنة ،...

ومع هذا كله فإن الله تعالى شديد العقاب ، منتقم من العصاة . بل لو علم المسلم بما عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار ، ولم يطمع بالجنة[4]، والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر الرحمة المهداة ﷺ ، فقد أخذته منه .

(٢) انظر تفسير الرازي (٢٢ : ٢٣٠ ـ ٢٣١) والكشاف (٣ : ٢٢ ـ ٢٣) فقد ذكرا بعض الأجوبة .

(٣) فقد ورد لفظ الرحمن (٥٧) ولفظ الرحيم (١١٥) عدا عن البسملة ، التي وردت (١١٣) مرة في أوائل السور .

(٤) انظر : صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب الرجاء مع الخوف . وصحيح مسلم : كتاب التوبة : باب في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه ، رقم (٢٣).

ثانياً : إن كل نبي قبل نبينا المصطفى الرحيم ﷺ كان إذا كذَّبه قومُه ولم يُؤمنوا به ،... أهلكهم الله سبحانه وتعالى ، بمختلف أنواع العذاب ؛ بالخسف أو المسخ أو الغرق ،...

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١).

ويلاحظ بعد تعداده تعالى لأنواع الهلاك والعذاب الذي حل بالأمم السابقة ؛ بيّن تعالى أنه جل شأنه ما ظلمهم ، ولكن كانوا هم الظالمين ، حيث ظلموا أنفسهم ، فلم يؤمنوا به تعالى ، ولم يطيعوا رسله عليهم السلام ، ولم يرتدعوا بما حصل بمن سبقهم من العذاب ، كما أنهم ركبوا رؤوسَهم ، واتبعوا الشيطان وأطاعوه ، لذا هلكوا ، كما أراد ، لأنه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢) ، والله تعالى أعلم .

أما بعد بعثته ﷺ فإن الله عز وجل أخَّر عذابَ من كذَّب رسولَه الكريم ﷺ ولم يؤمن به ؛ إما إلى الموت ، أو إلى يوم القيامة ، وأن الله تعالى أمَّنهم بسببه ﷺ من عذاب الاستئصال ؛ الذي كان تعالى يوقعه على الأمم السابقة عند تكذيبها لرسلها ، فقال الله تعالى مخاطباً حبيبه وصفيّه الكريم ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾.

ثالثاً : ما تقدم من الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ من بيان عداوة الشيطان وغوايته لبني آدم ، ومن تحذير الله تعالى والرسل جميعاً عليه وعليهم الصلاة

---

(١) سورة العنكبوت (٤٠).

(٢) سورة فاطر (٦).

والسلام من عداوة الشيطان ،... وإخبار الله تعالى عنه أنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

فمن خالف وتنكب وعصى فمصيره ما كان قد حُذِّر منه . فيكون هو السبب في هلاك نفسه ، لسبق التحذير له .

رابعاً : إن الله تعالى قد أخذ العهد على البشرية كلها ـ قبل خلقها في الدنيا ـ وهي في عالَم الذر ؛ أن إذا بُعِث النبي الكريم ﷺ يلزمهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ، وبيَّن الله تعالى لهم ثوابَ من آمن به وأطاعه واتَّبعه ؛ وهو المغفرة والرحمة ، ومحبة الله تعالى للمتَّبع ، وأن عقوبة العاصي الذي لم يُؤمن ولم يُطع ولم يتَّبع : هي النار .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(١) .

وقال الله جل شأنه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾(٢) .

لذا فمن خالف وتنكب فهو مستحقٌّ لما كان قد أُخِذ عليه .

خامساً : إن هذه الرحمة جاءت لإسعاد البشرية ونجاتها ؛ إن اتَّبعوه وأطاعوه ، لأنه يحدو بقلوب الخلق في غياهب بيداء الدنيا ، وتعرجات سبلها ويقول : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ فمن أطاعه واتَّبعه ؛ سلِم

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة آل عمران (٣١) وانظر مكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام ، لبيان معنى الاتباع ، والفرق بينه وبين الطاعة .

ونجا ووصل إلى شاطئ السلامة . ومن عصاه وخالف أمره وسلك غير سبيله ضل وتاه في تلك البيداء ، وأهلك نفسه بيده ، ويكون قد أتى من عند نفسه .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثل الناس ؛ كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار : يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ ويغلبنه فيتقَحَّمْنَ فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحَّمون فيها ». متفق عليه ، واللفظ للبخاري(١).

فمن خالف وعصى وأدبر ولم يؤمن يكون هو الذي ألقى نفسه في النار ، ولم يرض بالنجاة .

سادساً : لقد جعل الله تعالى نبيَّه المصطفى الكريمَ ﷺ نذيراً وبشيراً للبشرية ، والمنذِرُ لا يُنذر إلا من خطر داهم ، والمبشِّر يُبشِّر من يطيعه ويتبعه ، والنصوص في كونه ﷺ مبشِّراً ونذيراً كثيرة جدّاً ، ذكرتها في (الرحمة المهداة ﷺ) لذا فمن لم يطع النذير خسر آخرته ، كما يخسر من لم يطع مَن ينذر في أمور الدنيا دنياه ، وقد يخسر حاله ونفسه أيضاً .

وقد نبَّه النبي المصطفى الكريم ﷺ أمتَه ـ والبشريةَ كلها من بعدها ـ أنه هو النذير العريان ، الذي لا يدل أمته إلا على الخير ، ولا يحذِّرها إلا من الشر والخطر .

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب الانتهاء عن المعاصي . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب شفقته ﷺ على أمته ، رقم (١٧ ، ١٨).

« مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً ، فقال : رأيتُ الجيشَ بعَيني ، وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفةٌ فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة [فأصبحوا مكانهم] فصبَّحهم الجيشُ ؛ فاجتاحهم ». متفق عليه[1].

فمن لم يتبعه ﷺ فقد ضيَّع نفسه وأهلكها ، فحاله كحال من أصبح مكانه ولم يسمع كلام النذير ، فجاءه العدوُّ فقضى عليه ، وأما من سمع قوله فأدلج فقد نجا . وقد قام ﷺ بتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة . لأنه ﷺ بشَّر وأنذر .

سابعاً : لقد جعل الله تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ رحمةً للعالمين ، ونبيَّ الرحمة ، ورؤوفاً رحيماً ، ويقابل الرحمةَ العذابُ ، والرحمةُ نافعةٌ جدّاً ، لمن تعرَّض لها واقترب منها وسعد بصحبتها ونيلها ، أما من أعرض عنها ؛ ولم يقترب منها ، ولم ينلها ، فإنه لا يسعد بها ، ولا تشمله ، فيكون المعرِضُ هو السبب في عدم نوله لها ، وليست هي السبب ،...

مثاله : أن يفجر الله تعالى عيناً غديقةً ، فيسقي بعضُ الناس منها زروعَهم ومواشيهم بمائها العذب ؛ فتروى مواشيهم ، وتنبت زروعهم وقد تزيد ، فيفلحوا . ويبقى ناسٌ آخرون مفرطون عن السقي، فتعطش مواشيهم ـ وقد تموت ـ وتذبل زروعهم ـ وقد تموت ـ فيضيعوا .

فالعين المتفجرة في نفسها نعمةٌ من الله عز وجل ، ورحمةٌ للفريقين ، وهي موجودة ، ولكن الكسلان هو محنةٌ على نفسه ؛ حيث حرمها المسكين ما

---

(١) صحيح البخاري ، وصحيح مسلم : في الكتابين والبابين السابقين ، ورقمه عند مسلم (١٦).

ينفعها . وهذا حال من لم يُطع رسول الله ﷺ ، ولم يتعرّض للرحمة التي جاء بها ، فهو المفرِّط في نفسه ، لذا يهلَك مع الهالكين ، والله تعالى أعلم .

ثامناً : إن كل إنسان يولد على الفطرة سليمها ، كما يولد كامل الأعضاء سليمها ، وكما يسري عليه الخلل بالنسبة لأعضائه من عضو مصاب ، كذلك يسري عليه الخلل على فطرته فينقلها إلى غير الفطرة التي فُطر عليها ـ وهذا خلل يقع على الفطرة ، وقد ينقلها كليّاً عنها .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه ، كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هل تحسُّون فيها من جدعاء »... متفق عليه(١).

فإذا وقع مرض خطير ـ لا سمح الله تعالى ، كالسرطان مثلاً ـ في عضو من الأعضاء ، وصار موضعَ ضرر بالنسبة لسائر الأعضاء ماذا يفعل هذا الإنسان المصاب ؟ إن بقاءه على قيد الحياة مرهون بسلامة ذلك العضو ، فإذا تقرر استحالة البرء ، وأن وجوده صار خطراً على حياة الإنسان ، فإن الإنسان يُقدم على الموافقة على قطع ذلك العضو ، لكي يبقى بقية الجسد سليماً ، ولفترة من الحياة أطول . وإلا فقد ينتقل الخطر إلى سائر أعضاء الجسد ، كما هو ملاحظ ، والعياذ بالله تعالى .

وكمثل صندوقٍ من الفاكهة السليمة الغالية ، فسدت فيه واحدة ، فإن صاحب الصندوق ـ أو البائع ـ يلقيها ـ مهما كانت غالية ـ ليسلم له بقية ما في الصندوق ، وإلا لو بقيت أفسدت جميع ما في الصندوق ، والله تعالى أعلم .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يُصلّى عليه ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب القدر : باب كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، رقم (٢٢ ـ ٢٥).

وهكذا يقال فيمن يُقتل أو يقام عليه الحدُّ ،... إن بقاءَه فسادٌ لبقية المجتمع ، وأن التخلصَ منه حياة وسلامة لبقية الآخرين ، لذا وجب التخلص منه .

تاسعاً : لقد جعل الله عز وجل الحدودَ والقصاصَ : حياةً للنفس البشرية ؛ للفرد وكذا للمجتمع . لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل إذا قتل ، فإنه سيمتنع عن القتل ، ولهذا اشتُهر قولُهم : القتلُ أنفى للقتل .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

فمن يقدم على القتل فهو لا يريد حياته ، وكذا لو فعل ما يستحق عليه الحد ، فهو الذي يُلام ، وليس الشرع ، لأن الشرعَ حذَّره من مغبة فعله ، وبيّن له عقوبةَ جريمته ، فمن أقدم عليها - وهو عارف بالتحذير والعقوبة - يكون هو الذي ألقى بنفسه إلى تهلكة العقوبة والقتل ، والله تعالى أعلم .

عاشراً : إن الرسولَ هو مبلِّغٌ عمن أرسله ، وقد قام رسول الله ﷺ بأداء الرسالة كما أُنزلت عليه ، وبلَّغها كما جاءت ، ولم يكتم منها شيئاً ، وقد شهد الله تعالى له بالبلاغ والأداء ،...

ومع هذا فقد أشهد رسولُ الله ﷺ على تبليغه ربَّه تعالى - في مرات متعددة - وأشهد المسلمين على ذلك أيضاً ، فيقول ﷺ : « اللهم هل بلَّغتُ ؟ » فشهدوا بذلك دائماً .

فمن أعرض بعد ذلك فقد قامت الحجة عليه ، واستحق العقوبة ، والله تعالى أعلم .

الحادي عشر : إن رسول الله ﷺ لم يَدْعُ على أمته ، بل حتى على أعدائه

---

(١) سورة البقرة (١٧٩).

من الكفار بالهلاك العام الذي يستأصل شأفتهم ، حتى في أحلك الظروف المؤلمة التي مرت به ﷺ ، بخلاف أغلب الأنبياء عليهم السلام ، حيث دعوا على أممهم بالهلاك ، فاستجاب الله تعالى دعواتهم ، وأهلك أقوامهم ، ومن أراد أن يعرف سعة رحمته ﷺ وشمولها لأعدائه فلينظر إلى موقفه ﷺ الشريف يوم الطائف ، وموقفه ﷺ الكريم النبيل يوم أحد ، مع ما حصل له في الموقفين . وانظر المقارنة اللطيفة بينه ﷺ وبين عدد من الرسل عليهم السلام في الخاتمة .

الثاني عشر : ليس من فطرة النبي المصطفى الكريم ﷺ أن يدعو على قوم بالهلاك ، بل قد يدعو عليهم بالتشديد عليهم ، ليرعَوُوا ، ويرجعوا عن غيهم ، وهذا ما حصل بالنسبة لقريش وغيرها .

فقد دعا ﷺ على قريش بما هو دون الهلاك العام حتى يرجعوا إلى ربهم تعالى ، فلما أصابهم الجوع والعطش ، وأيقنوا بالهلاك ،... شملتهم رحمة الرحيم ، وكرم الكريم ،... فدعا لهم ﷺ بالإنقاذ ، واستسقى ﷺ لهم ، فسُقوا . وهذا بخلاف ما حصل مع أغلب الأنبياء عليهم السلام ، حيث هلكت أممهم وهم ينظرون .

الثالث عشر : إن رسول الله ﷺ لم يقتل من حاول قتله ، أو اغتياله ، أو سَحَره ، أو سَمَّه ،... من اليهود والمنافقين والكفار ـ كما مر ـ مع أن عقوبة هؤلاء في مختلف الأنظمة والقوانين غالباً الإعدام ، ولكنه ﷺ أسقط حقه الشخصي ، فلم يقتلهم ، ولم يأمر بقتلهم ، بل لم يعنِّفهم . ابتداء من سُراقة بن مالك ، وانتهاء بالمنافقين الذين أرادوا قتله ﷺ يوم تبوك ، ومروراً باليهودي الذي سحره ، وباليهودية التي سمته ، وبني النضير الذين حاولوا قتله ، وبالأعرابي الذي أراد اغتياله ، وغيرهم كثير مر ذكرُ بعضهم من قبل .

إنما أمر ﷺ بقتل من كان خطراً على الدين ، وعلى الأمة ، الذي أراد القضاء على الإسلام والمسلمين ، كبني قريظة ، وابن أبي الحقيق اليهودي ، والهذلي عند مكة ، وأمثالهم .

الرابع عشر : إن أنظمة جميع الدول تحكم على المجرمين بالعقوبات الجسدية ، حسب ضخامة الجرم ، من الإعدام حتى السجن ، بالإضافة إلى الغرامات المالية ، فما الذي حملها على قتل القاتل عمداً ، وعلى الخارج الخطر على الأمة ؛ المتعاون مع العدو ، الخائن لوطنه ، والجاسوس الذي يفشي الأسرار الخطيرة للعدو ،... فلِمَ تُقدم تلك الدول بأنظمتها على قتل هؤلاء المجرمين أو سجنهم عشرات السنين ؟ أليس لما ترى في فعلهم من الخطورة على المجتمع ، وأن طهارة المجتمع لا تتم إلا بالتخلص من هذا المجرم ؟ مع أن كثيراً من الدول تتشدق بالحرية والعدالة وَ (الديمقراطية) ولكنها الحرية التي تجاوزت الحدود المتفق عليها عند العقلاء .

الخامس عشر : لقد نهى الله تعالى المؤمنين أن تأخذهم رأفة ورحمةٌ في إقامة الحدود - حتى لو كانت على المسلمين - مع أن الله تعالى جعل المؤمنين إخوة ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(١). وجعلهم في موادّتهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، كما قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسدِ الواحد ، إذا شتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمّى ». متفق عليه(٢).

---

(١) سورة الحجرات (١٠).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الأدب : باب رحمة الناس والبهائم . وصحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم (٦٦).

ومع هذا فقد نهى عن الرأفة والرحمة في إقامة الحد عليهم إذا ارتكبوا ما يقتضي الحد أو القصاص ، لأنه نكال منه تعالى بالعصاة .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ ﴾(١) .

فالكافر المعاند الذي ينقض العهد والميثاق الذي وقعه مع المسلمين بالتزامه وعدم الخروج عنه ، فإن خرج عنه بانتقاضه استُحل دمُه ومالُه ، والكافر الذي يريد القضاء على الإسلام والمسلمين فهو من باب أولى ألّا تأخذ المؤمنين رأفة ورحمة معه .

إن الله تعالى الرؤوف الرحيم أمر جميع الخلق بالإيمان بهذا النبي الكريم ﷺ ، وأخذ تعالى هذا العهد على الأنبياء عليهم السلام بذلك ، وأمرهم أن يأخذوه على أُممهم ، ومع هذا فإنه تعالى أمر المؤمنين بأخذ الجزية من أهل الكتاب مع إقرارهم على دينهم ، مع التزامهم بالعهد الذي يجرونه مع المؤمنين ، فإذا نقضوا العهد فلا أمان لهم .

السادس عشر : لقد أرسل الله عز وجل نبيَّه الكريم ﷺ شاهداً على الخلق جميعاً ، ومبشِّراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ، وأمر الله تعالى الناسَ جميعاً بالإيمان به تعالى وبرسوله الكريم ﷺ ، وتعظيم رسوله وتوقيره واحترامه وتبجيله .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(٢) .

---

(١) سورة النور (٢).

(٢) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

وأهل الكتاب جميعاً لا يؤمنون به ، ولا يصدِّقونه ، وأن اليهود لا يؤمنون بعيسى عليه السلام ، ولا يصدِّقونه . ومع هذا فقد أمر الله تعالى بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، وهم في حال كونهم لا يؤمنون بالنبي الكريم ﷺ . والنبي المصطفى الكريم ﷺ يعلم ذلك منهم ، ومع هذا فقد جعلهم ﷺ أهلَ ذمة ، ومعاهَدين ، ومستَأمنين .

وإذا امتنعوا من تطبيق شرط الإيمان ، فلن يسقط الشطر الآخر ، وهو التوقير والاحترام والتبجيل والتعظيم ، لأن هذا لا يمثل الحقَّ الشخصي لرسول الله ﷺ فقط ، بل هو حقٌّ لله تعالى ، وللدِّين ، وللأمة . لذا فلن يسقط أبداً ، وعهدُ الذِّمَّة يسقط عمن طعن أو سبَّ رسول الله ﷺ أو نال منه ، لأن هذا يمثل الحق العام ، ولا يسقط بحال . ولا يوجد من ينوب عن رسول الله ﷺ من يُسقطه ، وكانت عقوبة الفاعل القتل بالاتفاق(1).

وقد وُجد في زمن النبي المصطفى الكريم ﷺ بعضُ أهل الكتاب من سبَّ رسول الله ﷺ أو شتمه ، فقتله بعض الصحابة ، فأهدر النبي المصطفى الكريم ﷺ دمَه . وقد سبق ذكر هذه الأحاديث ، وأذكرها ثانية للتنبيه .

* فعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، أن يهودية كانت تشتم النبيَّ ﷺ وتقع فيه ، فخنقها رجلٌ حتى ماتت ، فأبطل رسول الله ﷺ دمَها . رواه أبو داود.

* وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبيَّ ﷺ وتقع فيه ، فينهاها ، فلا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر ،

(1) انظر معالم السنن (٦ : ١٩٩ ـ ٢٠٠) فإن كان مسلماً فقد ارتد ، وأهدر دمه ، وإن كان ذمِّيّاً فيقتل عند الجمهور ، بما فيهم مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى .

قال : فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبيّ ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْوَلَ فوضعه في بطنها ، واتكأ عليها فقتلها ،... الحديث ، وفيه ، فقال النبيُّ ﷺ : « ألا اشهدوا أن دمَها هدر ». رواه أبو داود والنسائي والطبراني ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي ، ووثق الحافظ رجاله .

* وعن غَرَفَة بن الحارث الكندي رضي الله تعالى عنه ، أنه مر به نصرانيٌّ فدعاه إلى الإسلام ، فتناول النصرانيُّ النبيَّ ﷺ وذكره ، فرفع غَرَفَةُ يدَه فدقَّ أنفه [وفي رواية : فقتله] فرُفع إلى عَمْرِو بن العاص . فقال عَمْرو : أعطيناهم العهد . فقال غَرَفة : معاذ الله أن نكون أعطيناهم على أن يُظهروا شتمَ النبيِّ ﷺ ، إنما أعطيناهم على أن نخلّي بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يُطيقون ، وإن أرادهم عدوٌّ قاتلناهم مِن ورائهم ، ونخلّي بينهم وبين أحكامهم ، إلا أن يأتوا راضين بأحكامنا ، فنحكمُ بينهم بحكم الله وحكم رسوله ، وإن غيبوا عنا لم نعرض لهم فيها . قال عَمْرو : صدقت . رواه البخاري في تاريخه ، والبيهقي وابن الأثير ، وأبو يعلى مطوَّلاً ، وعزاه الحافظ لابن السكن .

وهناك نصوص كثيرة في بيان نقض العهد بمثل هذا الفعل ، ويأتي في آخر الرسالة ذكر عدة نصوص من إنجيل برنابا فيها تعظيم المسيح عليه السلام لرسول الله ﷺ ، ذلك أن تعظيم النبي المصطفى الكريم ﷺ مطلوب من جميع الخلق ، كالإيمان به ، وبضده ينتقض العهد ، والله تعالى أعلم .

السابع عشر : قبل إنهاء هذا المبحث أحب أن أُبيِّن أن جميعَ من أمر النبي الكريم ﷺ بقتلهم لم يكن اعتداؤهم على شخصه الكريم ، لأن الذين اعتدوا على شخصه الكريم ﷺ أو حاولوا الغدر به ، أو اغتيالَه ، أو سمَّه ، أو

أساؤوا إليه ،... لم يقتلهم ، بل عفا عنهم ، كأمثال لبيد بن الأعصم اليهودي ، واليهودية التي سمَّته ، والأعرابي الذي أراد اغتياله ﷺ وهو نائم ، وفَضالة بن عُمير ، وشيبة بن عثمان بن طلحة ، وعُمير بن وهب ، وزيد بن السعنة ، وعبد الله بن أبيٍّ ابن سلول ، ويهود بني النضير الذين أرادوا اغتياله ، والمنافقين الذين حاولوا اغتياله يوم تبوك ، وعامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ،... في آخرين ، فأسلم من أسلم منهم ، كفضالة وشيبة وعُمير وزيد ،... وهلك الباقون .

كما لم يقتل ﷺ صفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وعتّاب بن أسيد، وعكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وأبا سفيان بن حرب ، وأبا سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي ،... وغيرهم كثير ، ممن كانوا ألدَّ الأعداء ، فمنّ عليهم فأسلموا ، وعفا عنهم ما كان منهم ، فصار أقربَ إلى نفوسهم من عيونهم . وأكرمهم فصاروا يفدونه بكل غال ورخيص .

إنما أمر بقتل كعب بن الأشرف ، وسلام بن أبي الحقيق ، والهذلي ، وابن خطل ، والحويرث بن نُقيد ، ومقيس بن صبابة . ولكل واحد منهم سبب في قتله ، يستحق بموجبه القتل ، ولو وُجد ذلك الشخص في أي بلد سيُؤمر بقتله لفعله المشين .

ـ **أما كعب بن الأشرف** فهو ـ بعد نقضه العهد ـ حرَّض كفار قريش على رسول الله ﷺ ، وصار يبكي أصحاب القليب من قتلى قريش ، وهو المحرّض الكبير في غزوة أحد ، ورجع إلى المدينة فصار ينشد الأشعار في هجاء النبي المصطفى الكريم ﷺ ، ويشبِّب بنساء المسلمين .

ـ **وأما سلام بن أبي الحقيق** ، فهو الذي حزّب الأحزاب يوم غزوة الخندق (الأحزاب) على رسول الله ﷺ ، وكان معه حيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحُقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في آخرين ، مع نقضه العهد ، وهجائه لرسول الله ﷺ والمسلمين ، وإعلان عداوته لهم .

ـ **وأما عبد الله بن خطل** ، فقد كان أسلم ، وأرسله رسول الله ﷺ مصدّقاً ، وبعث معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له مسلم ، يصنع لهم الطعام ، فتأخر عن صنع الطعام له ، فغضب عليه فقتله ، ثم ولّى إلى مكة هارباً ، وارتد عن الإسلام ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين . لذا استحق القتلَ للأمور كلها .

ـ **وأما مِقيس بن صبابة** ، فقد قدم المدينة مظهراً الإسلام ، وأخذ ديةَ أخيه الذي قتله أحدُ المسلمين خطأً ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم ولّى إلى مكة هارباً ، وارتد عن الإسلام ، وصار يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، لذا استحق القتل للأمور كلها .

ـ **وأما الحُويرث بن نقيد** ، فقد كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة ، ولما تحمّل العباس رضي الله تعالى عنه بفاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله ﷺ رضي الله تعالى عنهما ليذهب بهما إلى المدينة يُلحقهما برسول الله ﷺ في أول الهجرة ، نخس بهما الحويرث الجمل الذي هما عليه ، فسقطتا إلى الأرض ، وصار يؤذي المسلمين .

ـ **وأما خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلي** ، فقد كان يجمع القبائل لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة ، فأمر عبدَ الله بنَ أُنيس رضي الله تعالى عنه بقتله . فهل ينتظر حتى يغزوهم !!!

- **وأما اليُسير بن رِزام** - من خيبر - فكان يجمع قبائل غطفان لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ نفراً من أصحابه ، فأقنعوه بالمجيء إلى رسول الله ﷺ ، فخرج مع بعض اليهود ، فلما وصل القرقرة من خيبر ندم على مسيره ، وأراد الغدر بمن معه من المسلمين ، فانتبهوا له ، فقتلوه ومن معه ، وفر واحد منهم .

وهناك أمور غيرها تركتها مكتفياً بما ذكرتُ ، لقصد الاختصار ، ولأنها لا تخرج عما ذكرته من نقض العهد - إذا كان يهوديّاً - أو تجميع القبائل لغزو المسلمين - إذا كان ذا شوكة - أو إعلان عداوةٍ للإسلام والمسلمين ، أو هجاءٍ لرسول الله ﷺ وللإسلام وللمسلمين ، أو تشبُّبٍ بنساء المسلمين ،... ونحو ذلك ، لأني لو ذكرتها بتفاصيلها لخرجت عن الاختصار ، والله تعالى هو المتفضل والمعين .

*****

الخاتمة (أحسن الله تعالى ختامنا)

قبل أن أنهي هذا المختصر أحب أن أنبه على بعض الأمور ، تكون خاتمةً لهذه الرسالة ، ومنبهة للخلق جميعاً ، على أن رسول الله ﷺ لم يكن أحدٌ من الخلق يقاربه أو يدانيه في رحمته التي شملت جميعَ الخلق ؛ بما فيهم الكفار ، والأعداء ، ذلك أن الرحمة التي أُكرم بها ﷺ إنما هي من الله تعالى ، أَكرمه بها ، وجبله عليها ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ليكون المظهر الكامل لرحمة الله تعالى في خلقه . وأذكر بعض الفقرات للتنبيه .

أولاً : سعة رحمة الله تعالى ، فهو الرحمن الرحيم ، الرؤوف الكريم ، وأنه تعالى جعل الرحمة مائة جزء ، أنزل منها جزءاً ليتراحم الخلق فيه ، وادّخر عنده تسعة وتسعين جزءاً ، حتى يرحم بها الخلق يوم القيامة ، كما مر .

ثانياً : لقد جعل الله عز وجل الرحمةَ في نبيه الكريم ﷺ منه تعالى ، وليست هي من صنع البشر ، أو نالها ﷺ باجتهاد منه ، أو تخلُّقٍ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ فهي منه تعالى ، جبله عليها ، وأرسله بها ، بل جعله هو رحمة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ كما جعله تعالى رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثالثاً : لقد جعل الله تعالى نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ رحمةً تامة ، كاملةً في جزئياتها ، شاملةً في فروعها ، عامةً في تعلقاتها ،... وأهداها للعالمين ، لذا قال ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » كما مر .

رابعاً : لقد جعل الله تعالى نبيَّه المصطفى الكريم ﷺ أماناً للبشرية ؛ من عذاب الاستئصال ، الذي كان تعالى يوقعه على الأمم السابقة ، حتى لو كذّبوه ولم يؤمنوا به ، حيث يؤخِّر عذابهم إما إلى الموت أو إلى يوم القيامة ، بخلاف الأمم السابقة ، فقد كان الله تعالى يوقع عليهم العذاب ، ورسلُهم عليهم السلام أحياءٌ ينظرون ،...إلخ.

خامساً : إن كلَّ نبي من الأنبياء السابقين عليهم السلام إذا كذبه قومه ، ولم يؤمنوا به ، أهلكهم الله سبحانه وتعالى ، وعاقبهم بمختلف أنواع العذاب ، من خسف ، أو مسخ ، أو صيحة ، أو غرق ، إلا هو ﷺ ، كما مر قبل قليل .

سادساً : إن رسول الله ﷺ سيد المخلوقات ، فضلاً عن كونه ﷺ سيد ولد آدم ، كيف وقد أخذ الله تعالى له العهد - قبل وجوده ﷺ في عالم الدنيا - على جميع الأنبياء عليهم السلام بالإيمان به واتِّباعه ونصرته ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(١).

كما جعله الله تعالى شاهداً وشهيداً على جميع الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾(٢).

والخصائص التي انفرد بها ﷺ عن جميع الأنبياء عليهم السلام : كثيرةٌ جدّاً ، ذكرتُ الثابتَ منها في (الخصائص) وَ (عظيم قدره ﷺ) وَ (الأمانة

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة النساء (٤١). وانظر الأمانة العظمى ونبيها ﷺ ، فقد توسعت في بيان هذه المسألة .

العظمى) فمن أراد معرفتها فلينظر فيها .

وقد أخبر ﷺ أنه أفضل الخلق ، وسيد الناس .

فعن واثلةَ بنِ الأسقع رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ». رواه مسلم[1].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : كنا مع النبيِّ ﷺ في دعوة ، فرُفعتْ إليه الذّراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسةً ، وقال : « أنا سيدُ الناس يوم القيامة ،...» الحديث بطوله ، في الشفاعة العظمى ، متفق عليه[2].

والنصوص في هذا كثيرة .

ومع هذا فإنه ﷺ لم يرض أن يُفضَّل على الأنبياء عليهم السلام .

فعن أبي هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغي لعبدٍ أن يقول : أنا خيرٌ من يونس بن متى ». متفق عليهما[3].

كما ورد من حديث غيرهما أيضاً في البخاري وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : استب رجلٌ من المسلمين ، ورجل من اليهود ،... الحديث ، فقال [رسول الله ﷺ] : « لا تُخيِّروني على موسى ،... ». الحديث بطوله ، متفق عليه[4].

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب نسب النبيِّ ﷺ ، رقم (١).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الأنبياء : باب قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة ، رقم (٣٢٧ ، ٣٢٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب في ذكر يونس عليه السلام ،... رقم (١٦٦ ، ١٦٧).

(٤) صحيح البخاري : كتاب الخصومات : باب ما يُذكر في الأشخاص ، والخصومة بين =

لذا على المتَّبع ألّا يتفاخر على الخلق ، اللهم إلا إذا علم نجاته في الآخرة ، ويكون قد اطّلع على إحدى المكرمتين ـ السابقة ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾الآيات[1].أو اللاحقة ـ وهي حسن الختام ـ لأن المرء يبعث على ما مات عليه .

فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه ». رواه مسلم[2].

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله ، دخل [وجبت له] الجنة ». رواه أحمد وأبو داود ، والحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وحسّن النووي سند أبي داود ، وصحّح سند الحاكم[3].

فإذا لم يعلم المرء تلك النتيجة فعلام يفخر ؟؟؟

سابعاً : لقد خلق الله تعالى جميع البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما الرجال والنساء .

= المسلم واليهود ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب من فضائل موسى عليه السلام ، رقم (١٦٠) وانظر مكانة النبي الكريم ﷺ (٩ ـ ١٢) لبيان الجواب عن هذه الأحاديث .

(١) سورة الأنبياء (١٠١ ـ ١٠٣).

(٢) صحيح مسلم : كتاب الجنة ونعيمها : باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، رقم (٨٣).

(٣) مسند أحمد (٥ : ٢٣٣ ، ٢٤٧) وسنن أبي داود : كتاب الجنائز : باب في التلقين ، رقم (٣١١٦) والمستدرك (١ : ٣٥١ ، ٥٠٠) وشرح السنة (٥ : ٢٩٦) والمجموع (٥ : ٩٩) وخلاصة الأحكام (٢ : ٩٢٤) وانظر المطالب العالية (١ : ١٩١ رقم ٦٨٥) لرواية أبي يعلى .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾(١) وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾(٢).

فلا تفاضل في أصل الخلق ، اللهم إلا بما يقدّمه الإنسان بين يدي ربّه تعالى ، من تقوى وعمل صالح ، لأن الفضل الحقيقي ما كان من عند الله تعالى ، فهو الذي يكرم به العبد .

قال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس ؛ ألا إن ربّكم واحدٌ ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ؛ إلا بالتقوى ،... ». رواه أحمد بإسناد صحيح(٣). وقد ورد نحوه بكثرة .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم [وفي رواية : أجسادكم] وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ». رواه مسلم(٤).

والناس قسمان ؛ شقي وسعيد .

قال الله تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ

---

(١) سورة النساء (١).

(٢) سورة الحجرات (١٣).

(٣) مسند أحمد (٥ : ٤١١) ومجمع الزوائد (٣ : ٢٦٦) وانظر فيه (٨ : ٨٣ ـ ٨٤).

(٤) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب تحريم ظلم المسلم وخذله ،... رقم (٣٣ ـ ٣٤).

﴿ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[1].

والله تعالى يحب الإيمان، وحبّبه في قلوب المؤمنين، ويحب المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وَ ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾.

والله تعالى لا يحب الكفر والشركَ به، وكرَّهه في نفوس المؤمنين، وأنه تعالى يكره الكافرين ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ وَ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وَ ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾.

والشرك والكفر؛ رجس ونجس ـ نجاسة حكمية ـ وظُلمة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ وَ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾.

بينما الإيمان طيّب وطاهر ونور: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وَ ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ وَ ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ وَ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن لا

(١) سورة هود (١٠٥ ـ ١٠٨).

(٢) سورة إبراهيم (٢٤ ـ ٢٧).

ينجس »[1].

فإذا أسلم العبد، وانتقل من الكفر إلى حظيرة الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، يكون قد انتقل من الظلمة إلى النور، ومن النجاسة إلى الطهارة، ومن البعد إلى القرب، ومن الكراهية إلى المحبة،... فإذا زاد في الطاعة والتقوى، في العبادة والسلوك: نال درجة الكرامة عند الله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، والله تعالى أعلم.

لذا فإن المؤمن لا يُحب الكفار ولا يوادّهم، لأن الله تعالى لا يحبهم، ولا يرضى بفعلهم، لذا فإن المؤمن يكره فعل الكفر ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ فإذا أسلموا كانوا من أحب الناس إليه، أما ترى قولَ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عن عُمير بن وهب ـ وقد مر ذكره ـ: لقد قدم وإنه لأبغض إليَّ من الخِنزير، ثم رجع وهو أحبُّ إليَّ من ولدي. وذلك عندما قدم لقتل النبي المصطفى الكريم ﷺ، فلما جابهه رسول الله ﷺ بما في نفسه وما حصل بينه وبين صفوان بن أمية أسلم[2]. نعم لقد كان أبغض إليه من الخنزير فصار أحب إليه من ولده.

وهكذا شأن المؤمن يكره الكفرَ والمعصية ـ لأن الله تعالى لا يأمر بها ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ولا يكره الذوات، لأنها خلق الله تعالى، فإذا اتصفت بالإيمان كانت محبوبة لديه.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الغسل: باب عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس، وفي غيرهما. وصحيح مسلم: كتاب الحيض: باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، رقم (٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، كما ورد من حديث غيره أيضاً.

(٢) انظر صفحة (٩٢ ـ ٩٣).

ثامناً : لا أعلم أحداً من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام مَن يقارب أو يداني رسولَ الله ﷺ في رحمته بالكفار أو الأعداء المعاندين ، بل حتى الذين آذوه ، أو حاولوا قتله واغتياله ،... وأقتصر على أربعة نماذج ، لسادات الرسل عليهم السلام[1].

أ ـ أما نوح عليه السلام ؛ فقد دعا على قومه الذين لم يؤمنوا به بالهلاك ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[2]. فاستجاب الله تعالى له دعوته ، فكان الطوفان .

كما أنه عليه السلام سيتبرأ من الخلق جميعاً يوم الحشر ، ويطلب من الناس أن يذهبوا إلى غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ويسأل هو نجاةَ نفسه فقط ـ كما مر مفصّلاً ، وستأتي الإشارة إليه إن شاء الله تعالى بعد قليل .

أما النبي المصطفى الكريم الرحيم ﷺ فعلى العكس تماماً ، لم يدع على أمته بالهلاك التام ، بل لم يقبل أن يوقع الله تعالى عليهم العذاب ، ورجا أن يبقيهم الله عز وجل ، فإن لم يؤمنوا ؛ آمن الجيل الذي يلي المعاندين ، أو مَن بعدهم .

لما خرج رسول الله ﷺ من الطائف ـ بعد أن فعلوا ما فعلوا ؛ من ضَرْبٍ وسفكِ دمٍ ، جاءه جبريل عليه السلام ، ومعه مَلَكُ الجبال ، وأخبره أن الله تعالى أمر مَلَكَ الجبال أن يطيعه ، وتقدم ملَكُ الجبال وسلَّم ، ثم قال : « **إن**

---

(١) انظر ما كتبته في (مكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام) فقد ذكرت نماذج كثيرة في ذلك .

(٢) سورة نوح (٢٦ ـ ٢٧).

الله قد سمع قولَ قومك لك ، وأنا ملَكُ الجبال ، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ ؟ إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلي مكة) ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً ». متفق عليه[1].

نعم إنها الرحمة المهداة ، نسي ما فعله به قومه ، ولم يُرد هلاكَهم ، ورجا أن يهدي الله تعالى أعداءَه ومعانديه الكفار ، وكان ما أراد ﷺ . فقد آمن عامَّتُهم ، فضلاً عن ذرِّياتهم .

ب ـ وأما إبراهيم عليه السلام فقد تبرأ من أبيه آزر بعد أن علم أنه مات كافراً[2]. فقال تعالى عنه عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة ، وعلى وجه آزرَ قترةٌ وغبرةٌ ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تُخزني يومَ يبعثون ، فأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين ،...» الحديث بطوله ، رواه البخاري[4].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق : باب إذا قال أحدكم : (آمين) والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى ؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب ما لقي النبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، رقم (١١١).

(٢) انظر (بر الوالدين) فقد توسعت في بيان الفرق بين أبيه ووالده .

(٣) سورة التوبة (١١٤).

(٤) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾، وفي غيرهما .

ولما خرج عليه السلام من قومه لم يعد إليهم . بل جعل الشامَ مستقرَّه ، وإن كان قد سافر إلى مصر ، والحجاز ، ولكنه عاد إلى الشام ، حتى توفِّي عليه السلام فيها .

ثم إنه عليه السلام قصر دعاءه بالرزق من الثمرات على المؤمنين فقط .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ حتى نبّهه الله تعالى أنه يرزق الجميع بما فيهم الكفار ، ثم لهم العذاب الأليم يوم القيامة ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

كما أنه عليه السلام يتبرأ من الخلق جميعاً يوم الحشر ، ويطلب من الناس أن يذهبوا إلى غيره من الأنبياء عليهم السلام ؛ حتى يصلوا إلى النبي المصطفى الكريم ﷺ ، فيشفع للخلق جميعاً ، بما فيهم ساداتهم . وهي (الشفاعة العظمى).

أما النبي المصطفى الكريم الرحيم ﷺ فعلى العكس ، لم يتخلّ عن عمه أبي طالب ، مع أنه رفض أن يقول أمام النبي المصطفى الكريم ﷺ : لا إله إلا الله . وقد برز ذلك في أمرين :

ـ قوله ﷺ في الدنيا : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عن ذلك ». متفق عليه ، من حديث المسيِّب بن حَزْن رضي الله تعالى عنهما[2]. وقد سبق

---

(١) سورة البقرة (١٢٦).

(٢) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ،... رقم (٣٩ـ٤٠).

ذكره .

ـ شفاعته ﷺ له يوم القيامة ، بأن أخرجه من العذاب الشديد .

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه أنه قال : يا رسول الله ؛ هل نفعتَ أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضبُ لك ؟ قال : « نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار ». متفق عليه[1].

وفي رواية لمسلم[2]: « نعم ، وجدتُه في غمراتٍ من النار ، فأخرجتُه إلى ضحضاح ».

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، قال ﷺ : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار ،... » الحديث ، متفق عليه[3].

لذا صار أهونَ أهل النار عذاباً بشفاعة النبي المصطفى الكريم ﷺ .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب ،... » الحديث ، رواه مسلم[4].

نعم هناك فرق بين آزر وأبي طالب ، فقد كان آزر مع قومه ضد إبراهيم عليه السلام ، وقد هدّده بالرجم ، أما أبو طالب فقد كان مع النبي المصطفى

(١) صحيح البخاري : كتاب الأدب : باب كنية المشرك ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب شفاعة النبيِّ ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببها ، رقم (٣٥٧ـ٣٥٩).

(٢) صحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٥٨).

(٣) صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب صفة الجنة والنار ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٦٠).

(٤) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب أهون أهل النار عذاباً ، رقم (٣٦٢).

الكريم ﷺ ضد قومه ، يدافع عنه ويحميه ، وإن كان لم ينطق بالشهادة ، مع اعتقاده بصدق رسول الله ﷺ .

وكذلك لم يترك رسول الله ﷺ مكة حين هاجر إلى المدينة ، بل عاد إليها فاتحاً مطهِّراً ، حتى صارت دارَ إسلام ، ولله الحمد والمنة .

كما أن النبي المصطفى الكريم ﷺ استسقى لكفار قريش ، مع ما فعلوه فيه وفي أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، ولم يقف مكتوفَ اليد وهو يراهم وقد هلكوا ، مع أنهم كفار ـ كما سبق ذكره[1]ـ ولم يرض أن يهلكهم الملَك بإطباق الجبلين عليهم .

كما أنه ﷺ أذن لثمامة بن أثال أن يرسل القوت إليهم عندما منع الميرة عنهم ، حتى يأذن بها رسول الله ﷺ ، كما بينته في رحمة النبيِّ الكريم ﷺ بالكفار .

وأما الشفاعة العظمى . فسيأتي ذكرها عند ذكر عيسى عليه السلام .

ج ـ **أما موسى عليه السلام** ، فقد تبرأ من بني إسرائيل، مع أنها أمته ؛ في الدنيا ، وسيتبرأ منها في الآخرة .

قال الله تعالى عن تبرؤ موسى عليه السلام من قومه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾[2]. وحكم عليهم بالفسق .

وأما في الآخرة فسيأتي الحديث بعد قليل ، إن شاء الله تعالى .

أما النبي المصطفى الكريم الرحيم بالخلق والخليقة ﷺ ، فعلى العكس

---

(١) انظر صفحة (٧٦ ـ ٧٨).

(٢) سورة المائدة (٢٥ ـ ٢٦).

تماماً ، فهو لم يتخلّ عن أمته ، بل لم يتخل عن أحد منها ، وقد كثر قوله ﷺ : « اللهم أمتي ، أمتي » بل حتى الكفار منهم ، لو علم أن الله تعالى يغفر لهم لو زاد من الاستغفار لهم لفعل ، حرصاً منه ﷺ على نجاتهم .

فعن ابن عباس عن عمر رضي الله تعالى عنهم ـ في قصة صلاته ﷺ على عبد الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول ـ وفيه قوله ﷺ لعمر : « إني خُيِّرتُ ، فاخترتُ [قد قيل لي : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾] لو أعلم أني إن زدتُ على السبعين يُغفر له لزدتُ عليها ». رواه البخاري[1].

د ـ **أما عيسى عليه السلام** ، فقد عُبد من دون الله عز وجل ، واتُّخذ وأُمُّه إلهين من دون الله تعالى ، وزعم النصارى ـ كذباً وزوراً ـ أنه عليه السلام هو الذي طلب منهم ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

لذا لعن قومَه ـ من بني إسرائيل ـ كما قال الله عز وجل : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز : باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين ، وفي كتاب التفسير : سورة التوبة .

(٢) سورة المائدة (١١٦ ـ ١١٨).

(٣) سورة المائدة (٧٨).

كما أنه سيتبرأ من قومه يوم القيامة ، كما يأتي في الحديث القادم .

أما النبي المصطفى الكريم الرحيم ﷺ فلم يلعن أمته ، ولم يدع عليها ، كما أنه لم يتبرأ منها ، بل على العكس ، حيث كان ﷺ يدعو لها ، ويترك أمر نفسه لربه عز وجل . حتى إن الله تعالى سيرضيه في أمته ، ولا يسوؤه فيها .

فعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما ، أن النبيَّ ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ الآية . وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه وبكى وقال : « اللهم أمتي أمتي » فقال الله عز وجل : يا جبريل ؛ اذهب إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله عز وجل : يا جبريل ؛ اذهب إلى محمد ، فقل : إنا سنرضيك في أمتك ، ولا نسوؤك ». رواه مسلم[1].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ؛ ادع على المشركين . قال : « إني لم أُبعث لعّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمة ». رواه مسلم[2].

بل كان ﷺ يدعو لقومه الذين آذوه ، وأسالوا دمَه الشريف ، وشجّوا وجنته ، وأرادوا قتله ، بأن يسامحهم الله تعالى ، ويعفو عنهم ، كما في غزوة أُحد ، حيث قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ». متفق عليه[3].

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب دعاء النبيِّ ﷺ لأمته ، رقم (٣٤٦).

(٢) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة : باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ، رقم (٨٧).

(٣) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب (٥٤) حدثنا أبو اليمان . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب غزوة أحد ، رقم (١٠٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

أما حديث الشفاعة العظمى فأقتصر على ذكر رواية واحدة ، ومن أراد الزيادة فلينظر في كتابي (الشفاعة) وإن كنت ذكرت بعضها قبل قليل .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : أُتي رسول الله ﷺ يوماً بلحم ، فرُفعت إليه الذراعُ ـ الحديث في الشفاعة ، وفيه ـ : « فيقول بعضُ الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيقولون : يا آدم ... اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا . فيقول آدم : ... نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : ... اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟... فيقول لهم : ... نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم ، فيقولون : ... اشفع لنا إلى ربك ،... فيقول : ... نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ﷺ ، فيقولون : يا موسى ؛... اشفع لنا إلى ربك ،... فيقول لهم موسى ﷺ : نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى فيقولون : ... اشفع لنا إلى ربك ،... فيقول لهم عيسى ﷺ : ... نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتوني ، فيقولون : يا محمد ؛ أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا عند ربك ،... ثم يقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفَّع » الحديث بطوله ، متفق عليه[1]. وقد سبق ذكره قبل قليل .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه ... وفي آخره قوله ﷺ : « ... فيُؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، فأُوتى ، فأقول : أنا

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير : سورة الإسراء : باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ ... ﴾ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، رقم (٣٢٧).

لها ،...» الحديث بطوله ، متفق عليه(١). وقد سبق ذكرهما كاملين قبل قليل .

تاسعاً : لم يقتل ﷺ أحداً من المشركين أو من أهل الكتاب أو المنافقين ؛ ممن حاول قتله ، أو اغتياله ، أو آذاه ،... ولو حصل ذلك الإيذاء بمحضر أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، بل عفا عنهم جميعاً ، إلا ما كان من قتله لأُبي بن خلف ، وظاهر أنه من باب الدفاع عن النفس ، وإن كان قتله يعتبر معجزة له ﷺ .

وذلك أن أبيّاً كان يقول لرسول الله ﷺ في مكة : إنه يعلف فرسه ليقتل عليها رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى ».

فلما كان يوم أحد وجلس رسول الله ﷺ على الصخرة ومعه عدد من أصحابه ؛ أقبل أُبيٌّ بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فتناول رسول الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصمة ، ثم طعن أبيّاً في ترقوته ، فتهدهد عدو الله ، ثم ولّى هارباً ، حتى وصل قومه وهو يقول : قتلني محمد ،... فلما وصل إلى سرف ؛ مات عدو الله(٢).

فهو يعلم أن رسول الله ﷺ إذا قال قولاً فإنه سيتحقق ، وأن قوله ﷺ لا يتخلف ، ومع هذا فقد كان يعاند ، حتى ساقه قدره إلى حتفه .

فظاهر من السياق أن رسول الله ﷺ أخذ الحربة من الحارث وضرب بها أُبيّاً من باب الدفاع عن النفس .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم . وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٢٦).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣ : ١٢١ ـ ١٢٣) ودلائل النبوة للبيهقي (٣ : ٢١١ ـ ٢١٢). وانظر عامة كتب السير .

مع أن مثل تلك الجرائم توجب عقوبة القتل في عامة قوانين الدول، ولكنه ﷺ أسقط حقَّه، وهذا واضح فيمن عفا عنهم؛ من اليهودي الذي سحره، واليهودية التي سمّته، إلى المنافقين الذين حاولوا اغتياله ﷺ يوم عودتهم من تبوك، مروراً بسراقة وشيبة بن عثمان وفضالة بن عمير وعمير ابن وهب ... وغيرهم، إنما أمر بقتل من كان خطراً على الإسلام والمسلمين، أو ارتكب جريمة عقوبتها الإعدام، والله تعالى أعلم.

عاشراً: لم يكن رسول الله ﷺ يدعو على أعدائه بالاستئصال، إنما قد يدعو عليهم بالتشديد، لعلهم يرجعوا إلى صوابهم ورشدهم، فإذا ضاقت عليهم السبل، وظنوا الهلاك؛ فإنه ﷺ يدعو لهم بالنجاة، كما حصل مع قريش، حين دعا عليهم بالجوع، فلما أيقنوا بالهلاك، دعا لهم فسقوا.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن قريشاً لـمّا استعصت على النبي ﷺ؛ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد،... الحديث، فأتاه أبو سفيان [قبل إسلامه] فقال: يا رسول الله؛ استسق لمضر؛ فإنها قد هلكت فقال: « لمضر؟ إنك لجريء » قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[1].

قال: فمُطِروا. [وفي رواية للبخاري: فاستسقى، فسُقوا] متفق عليه[2].

الحادي عشر: لم يكن رسول الله ﷺ يحب قتل الناس أو إهلاكهم،

(١) سورة الدخان (١٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاستسقاء: باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط، وكتاب التفسير: سورة الدخان: من الباب الثاني حتى الخامس. وصحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين: باب الدخان، رقم (٣٩، ٤٠).

إنما كان يدعوهم ليؤمنوا ، ويسعدوا ويسلموا . مع ما يلاقيه ﷺ من عنت وصلف من المدعوين .

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثل الناس ؛ كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ ، ويغلبنه ، فيتقَحَّمن فيها ، فأنا آخذٌ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحَّمون فيها ». متفق عليه[1].

فالذي يحرص على ألّا يقعوا في النار هو أحرص على نجاتهم ؟ لذا فمن خالف وعصى يقع في النار برغبته واختياره ، والعياذ بالله تعالى .

الثاني عشر : ومما يدل على أن رسول الله ﷺ لم يكن يحب قتل الكفار : أمره ﷺ قوادَ جيوشه رضي الله تعالى عنهم أن يدعو الأعداءَ ـ قبل بدء المعركة ـ إلى الإسلام ، فإن أسلموا نالوا حكمَ المسلمين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، لأنه ﷺ أُرسل لإخراج الناس من عبادة الشيطان إلى عبادة الرحيم الرحمن . لذا قال ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مِن أن يكون لك حُمُر النعم ». متفق عليه[2].

فمن كان هذا وصفه هل يعقل أن يقال عنه : إرهابي ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الرقاق : باب الانتهاء عن المعاصي . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب شفقته ﷺ على أمته ، رقم (١٧ ، ١٨).

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة : باب مناقب علي بن أبي طالب ،... رضي الله عنه ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، رقم (٣٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما .

الثالث عشر : ومما يدل على أن رسول الله ﷺ لم يكن يحب قتل الكفار : كونه ﷺ لم يُجِز قتلَ من نطق بالشهادتين ، ولو قتلَ مسلماً أو قطع يدَه ، كما مر في حديثي أسامة بن زيد والمقداد ابن الأسود رضي الله تعالى عنهم . المتفق عليهما ، وحديث جندب رضي الله تعالى عنه في صحيح مسلم .

الرابع عشر : حرصه ﷺ على هداية الكفار وإسلامهم ، وعطفه عليهم ، فإن ماتوا أو قُتلوا كفّاراً فإنه يتأثر على ذلك ،...

أما ترى مخاطبته ﷺ لقتلى قريش وهم في القليب يوم بدر ، وكذا قوله ﷺ لأبي سفيان عندما أبطأ في إسلامه ، وقوله ﷺ لحكيم بن جبير في أبيه ؛ الذي مات ولم يسلم ؟ وقد مر ذلك كله .

الخامس عشر : ومما يدل على عدم رغبته ﷺ في قتل الكفار ، وعلى حسن معاملته لهم بالحسنى : حثه ﷺ الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ومَن بعدهم من أئمة هذه الأمة على اليسر والسماحة ، والتبشير ، والعفو والصفح ، والابتعاد عن التعسير والتعقيد .

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يسِّروا ولا تُعسِّروا ، وبشِّروا ولا تُنفِّروا ». متفق عليه .

ورويناه[1] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه . وقد سبق ذكرهما ، والتعليق عليهما .

فالإسلام كله دين السماحة واليسر والسهولة ، لأنه دين الفطرة ، ولم

---

(١) صحيح البخاري : كتاب العلم : باب ما كان النبيُّ ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ، وكتاب المغازي : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير : باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ، رقم (٦ ـ ٨).

يكن رسول الله ﷺ هو الرحيم فحسب ، بل انعكس ذلك على دينه أيضاً . وانظر المفارقات ـ بين الإسلام وغيره ـ وقد مرت قبل ذلك .

السادس عشر : إن مهمة رسول الله ﷺ التي رسمها الله تعالى له ، وجعله تعالى قائماً بها : هي هداية الخلق ، وذلك بإنذارهم وبشارتهم ، وقد قام ﷺ بها خير قيام ، وشهد الله تعالى له بذلك ، لذا كان حريصاً على هداية الكفار ، لا على قتلهم والقضاء عليهم ، والله تعالى أعلم .

السابع عشر : هذه الرحمة المهداة أُرسلت لإسعاد البشرية ونجاتها من الهلاك ، بشرط اتِّباعه وإطاعته ، لذا جعله الله عز وجل حادياً يحدو بقلوب العباد ، في غياهب بيداء الدنيا وشعابها : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ فمن اتَّبعه وأطاعه سلِم ونجا ، ووصل شاطئ السلامة ، وهذا الكافر الذي تنكب وعارض إنما يريد ألّا يحدو هذا الدليل بقلوب العباد ، فصار قاطعاً للطريق ، لذا لا بد من إقناعه ليطيع ويتَّبع فيَسلَم ، وإن أبى فلا مناص من إزاحته لتسير القافلة ، والله تعالى أعلم .

الثامن عشر : لقد كان رسول الله ﷺ كثير التحمل ، شامل الرحمة بالخلق ، طويل الصبر ، واسع الصدر ، لذا كان ﷺ حريصاً على هداية الخلق ، لا على إفنائهم ، وقد ظهر صبرُه وتحمُّلُه في كثرة من آمن به مع قصر المدة ، بينما لو نظرنا إلى الرسل السابقين عليهم السلام فقد عاشوا أضعاف عمره الشريف ، ولم يؤمن معهم إلا القليل النادر .

التاسع عشر : إن قوانين جميع الدول المختلفة في العالم تحكم على المجرم بالعقوبة الجسدية حسب ضخامة الجريمة ، فما الذي حملها على قتل القاتل العمد ؟ أو على الخائن لبلده ؛ المتعاون مع عدوه في خيانة وطنه ؟ وعلى

الجاسوس الذي يفشي الأسرار الهامة الخطيرة للعدو ؟ فلِم تُقدم هذه الدول على قتله أو سجنه عشرات السنين ؟ أليس لما في فعله من خطورة على المجتمع ، مع دعوى كثير من تلك الدول بالحرية والعدالة والمساواة (والديمقراطية)؟ ولكنها الحرية التي تجاوزت الحد المتفق عليه بين العقلاء .

بينما النبي المصطفى الكريم ﷺ يعمل على عدم وقوع الناس في الجريمة أولاً ، وذلك بتكريهها ، وببيان قبحها ، ثم ذكر عقوبتها ،... وفي الأخير إقامة الحد على الفاعل ، فمن سلك إلى آخر الطريق في الضلال ، وأصر على ذلك ؛ يكون هو السبب في إقامة الحد عليه .

العشرون : إن رسول الله ﷺ لم يقطع رجاءه من الكفار في هدايتهم وإسلامهم ، حتى لو بلغوا الغرغرة ، كما مر في قصة الغلام اليهودي ، وفي قصة أبي طالب وغيرهما . فإذا كان كذلك فكيف هو معهم ؟ اللهم إلا أن يكون قد أُخبر من ربه تعالى ألّا فائدة من ذلك الكافر ، لذا كانت الراحة منه راحة ، والتخلص منه سعادة ، والله تعالى أعلم .

الحادي والعشرون : لا أعلم - في البشرية - من يدانيه ﷺ في الرحمة العامة والخاصة ، لذا جعله الله تعالى رحمةً للعالمين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بل لا يقاربه أحد في هذه الرحمة ، لذا جعله الله تعالى رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾.

الثاني والعشرون : ومن مظاهر هذه الرحمة المهداة بالكفار : رضاءُ رسول الله ﷺ بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، مع أن كل الديانات نُسخت ببعثته ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

كُلِّهِۦ ﴾[1] ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2].

ثم إن أهلَ الكتاب غيّروا وبدّلوا وحرّفوا في دينهم وكتبهم ،... سواء في العقيدة أو العبادة أو التشريع أو الكتاب ،... ولم يسلم من دينهم إلا النادر ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[3]. ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[4].

لذا أُمر ﷺ أن يقاتِل الناسَ حتى يؤمنوا بالله تعالى وحده وبرسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي ، وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك ؛ فقد عصموا مني دماءَهم وأموالَهم ؛ إلا بحقها ، وحسابهم على الله ». متفق عليه[5].

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

كما أُمر ﷺ أن يقاتِل الكفارَ ليجدوا في المومنين غلظة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة التوبة (٣٣) وسورة الفتح (٢٨) وسورة الصف (٩).

(٢) سورة المائدة (٤٨).

(٣) سورة البقرة (٧٩).

(٤) سورة المائدة (١٣). وانظر سورة النساء (٤٦) وسورة البقرة (٧٥) وسورة المائدة (١٥).

(٥) صحيح البخاري : كتاب الجهاد : باب دعاء النبيّ ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ،... وصحيح مسلم : في الكتاب والباب السابقين ، رقم (٣٣ ـ ٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

﴿ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ ﴾[1].

ومع هذا كله فقد أقرَّهم على دينهم ، وأبقاهم في ديار المسلمين ، وتركهم بين ظهراني المؤمنين ، مع كفرهم ، وشركهم بربهم ، ومع عدم إيمانهم بالنبي الكريم ﷺ ، مع أنهم قد أُخذ عليهم العهد بالإيمان به ، واتباعه ، وترك ما هم عليه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾[2] كلُّ ذلك لوجود شبهة الكتاب عندهم - مع أنه منسوخ - وشبهة الدِّين - مع أنه منسوخ - ولم يقتلهم - لكفرهم - ولم يصلبهم - لشركهم - وأبقاهم في بلاد المسلمين - مع مخالفتهم لدينهم ورسلهم الذين يأمرونهم بالإيمان برسول الله ﷺ واتباعه وترك ما هم عليه - وأقر عليهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، للدفاع عنهم إذا دهمهم عدو ، وإبقائهم في بلاد المسلمين على دينهم ، وعدم التدخل في شؤونهم الخاصة ، شريطة التزامهم بالعهود والمواثيق التي يلتزمون بها . لذا جاءت الوصاية بهم ، والتشديد على الاعتداء عليهم - كما مر - فإن خالفوا فقد نقضوا العهد ، وجاز لولي المسلمين أن يعاملهم حسب المصلحة العامة ، كما ذكرت سابقاً .

الثالث والعشرون : هذا فعل الرحمة المهداة ﷺ مع الكفار ، فكيف يُعامل المسلمين من أمته الصالحين ؟ ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾.

هذا فعله ﷺ مع الأعداء الألداء ، فكيف يعامل أحبابَه ومحبيه المطيعين المتبعين ؟ ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾.

هذا فعله ﷺ مع المعاندين المستكبرين ، فكيف يعامل المخلصين - ولو

---

(١) سورة التوبة (١٢٣).

(٢) سورة الأعراف (١٥٧).

كانوا مقصِّرين ؟ ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ .

لذا على المسلمين الذين يدّعون الطاعة والمحبة والاتباع أن يتبعوه ﷺ في حسن معاملة المسلمين أولاً ، فلا يخرجوهم من الملة ، وفي حسن التعامل مع الكفار ثانياً ، فلا يصدوهم عن دين الله تعالى ، والله تعالى هو الهادي إلى الصراط المستقيم .

الرابع والعشرون : هذه الرسالة :

* ـ هي للمسلمين المطيعين المتبعين ، لتنبههم : إذا كانت هذه رحمة النبي الكريم ﷺ بالكفار ، فكيف يتعامل المسلمون فيما بينهم ؟ والله تعالى يقول : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ويقول : ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ حتى لو كانوا عصاة ، كما في قوله ﷺ ـ للذي أُتي به وهو سكران ، وأمر ﷺ بإقامة الحد عليه ـ وكان قد تكرَّر ذلك منه ، ويقام الحد عليه في كل مرة ـ ولعنه بعضهم ـ : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ أنه يحب الله ورسوله » وقال ﷺ : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » . رواهما البخاري(1) .

* ـ هي للكفار ، حتى يعلموا أن رسول الله ﷺ كله رحمة ، وبُعث بالرحمة ، ودعا إلى الرحمة والتيسير والسماحة ، والعفو والصفح ، وقدَّم الأيسر . لا كما قال قسيسُهم ، عامله الله تعالى بعدله .

فعن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين ، إلا أخذ أيسرَهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تُنتهك حُرمةُ الله ، فينتقم

(1) صحيح البخاري : كتاب الحدود : باب ما يكره من لعن الشارب وأنه ليس بخارج من الملة ، وباب الضرب بالجريد والنعال .

لله بها . متفق عليه[1].

* كما تُنبه الكفار إلى أن الإسلام هو دين الرحمة واليسر والسهولة ، فكما أن رسول الله ﷺ هو رحمة مهداة ، وبُعث بالرحمة : كان دينُه ﷺ دينَ السماحة واليسر والسهوله ، وقد سبق بيان ذلك ، وأشير إلى بعض النصوص القليلة للتذكير .

قال جل شأنه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2].

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[3].

* وعن جابر رضي الله تعالى عنه ـ في قصة سؤال أمهات المؤمنين رضي الله عنهن الزيادة في النفقة ، وفي آخره قال ﷺ : « إن الله لم يبعثني معنِّتاً ولا متعنِّتاً ، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً ». رواه مسلم .

لذا حث ﷺ أُمَّتَه على التيسير وعدم التعسير ، وعلى التبشير وعدم التنفير ، وكل ذلك يقتضي وجودَ الرحمة في القلب .

* وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يسِّروا ولا تُعسِّروا ، وبشِّروا ولا تُنفِّروا ». متفق عليه .

ورروياه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه .

فلو اقتصر على قوله : « يسِّروا » لصدق على من يسَّر مرةً ، وعسَّر كثيراً ، فلما قال ﷺ : « ولا تعسِّروا » نفى التعسيرَ في جميع الأحوال . أفاده

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المناقب : باب صفة النبيّ ﷺ ، وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الفضائل : باب مباعدته ﷺ للآثام ، رقم (٧٧ ، ٧٨).

(٢) سورة البقرة (١٨٥).

(٣) سورة الحج (٧٨) وانظر سورة المائدة (٦).

الإمامُ النووي رحمه الله تعالى .

* وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ـ في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ـ وفيه قوله ﷺ : « دعوه ، وأهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء ـ أو ذَنوباً من ماء ـ فإنما بُعِثْتُم مُيسِّرين ، ولم تُبعثوا مُعسِّرين ». رواه البخاري .

* ويتضح الفارق الكبير ، بين فعله وشرعه ﷺ وبين ما كان عليه الحال في الأمم السابقة ؛ وقد ذكرتُ نماذج متعددة في : الأمانة العظمى ، ومكانة النبي الكريم ﷺ ، وعظيم قدره ﷺ ،...

مثل : إلغاء عقوبة القتل عن التائب ، والصلاة حيث كان ، ولا يشترط مكان مخصَّص ، ويُكتفى بالتوبة والندم ، ومشروعية التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله ، وعقوبة قرض ما أصاب البولُ من ثوب أو جلد المرء ، ويُكتفى بغسله بالماء ، ورفع الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، والترخيص في مخالطة الحائض ،... وغير ذلك كثير مما كان محظوراً في الأمم السابقة .

لذا اتضح أنه ﷺ لمّا جعله الله تعالى رحمة وبعثه بالرحمة جعل دينَه دينَ اليسر والسماحة ، والتبشير والهداية ، والمودة والتقريب ، والرحمة والعطف ،... وليس دينَ العسر والتعسير ، والإبعاد والتنفير ، والتطرف والغلو ، والعنف والإرهاب ، كما يزعم العدو ، والله تعالى أعلم .

هذا هو رسول الله ﷺ ، ليس كما زعم قسّيسُهم ، وإلا فليقارنوا بين ما ذكرتُ بعضَه ولم أستوعب ، وما فعلتْه وتفعله الدولُ النصرانية واليهودية ، وخير مثال : ما يوجد في جوانتنامو ، وصربيا ، وروسيا ، وسجن أبي غريب ، وإسرائيل ، والحبشة ـ يوم هيلاسيلاسي ـ وسجون أوربا الشرقية التي تشرف عليها مخابرات القطب المتنمرد ، وغيرها من السجون المخفية .

وفي خاتمة هذه الرسالة أذكِّر القسيس ـ إن كان من أهل الذكرى ـ بأمور ثلاثة ، هي :

أولاً : رأي الرهبان الذين كانوا في زمان النبي الكريم ﷺ .

الثاني : رأي الحكام النصارى الذين كانوا في زمن النبيّ الكريم ﷺ

الثالث : ـ وهو خاتمة الرسالة ـ رأي عيسى عليه السلام وتعظيمه وتوقيره للنبي المصطفى الكريم ﷺ ، كما نصت عليه الأناجيل .

الخامس والعشرون : إذا كان القسيس يتبع ما عليه أسياده القدامى من الرهبان والقسيسين ، وأنه على قدمهم ، وأنه لا يخرج عما كانوا عليه ، فلينظر إلى حال هؤلاء الرهبان ؛ عندما أتوا رسولَ الله ﷺ ، وقرأ عليهم القرآن الكريم ، حيث بلّلوا لحاهم ، بل بلَّلوا الأرض من دموعهم ، لما عرفوا من الحق .

قال الله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1].

هؤلاء هم أتباع المسيح عليه السلام حقيقة ، وهم أنصاره الحقيقيين ،

(١) سورة المائدة (٨٢ـ٨٦).

وعلى منهاجه ، فإذا سمعوا القرآن الكريم ، ووَصْفَ النبي الكريم ﷺ الذي وُجد في الإنجيل ، فاضت عيونُهم من الدمع ، مما عرفوا من الحق الذي جاءهم به عيسى عليه السلام ، وكيف لا يؤمنون بالنبي الكريم ﷺ وعيسى عليه السلام هو الذي بشّر به ، وهو موجود في إنجيل برنابا ، في أكثر من موضع ، بل توجد الإشارة إليه ﷺ في الأناجيل الأخرى أيضاً .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فإذا كان عيسى عليه السلام ـ نبي النصارى ـ قد بشَّر به ، ونادى بأعلى صوته بأن محمداً ﷺ رسول الله ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ فهل يصح وصفُ ذلك الرسول بأنه إرهابي ؟ إلا إذا كذّب ذلك القسيسُ ـ ومن على شاكلته ـ عيسى عليه السلام .

لذا فبدلاً من طاعة عيسى عليه السلام ـ إن كانوا مطيعين صادقين ـ فيؤمنوا بهذا النبي الكريم ﷺ ، يقولون هذا القول ! هذا هو البهتان المبين .

السادس والعشرون : لقد بُعث رسول الله ﷺ ويوجد عدة دول يحكمها زعماء نصارى ، فالشام فيها هرقل ملك الروم ، والحبشة فيها النجاشي ، ومصر فيها المقوقس . وأشهرهم هرقل والنجاشي ، لذا فإني أقتصر عما ورد عنهما .

* عن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ. قال : فبينا أنا بالشام ، إذ جيء بكتابٍ من رسول الله

---

(١) سورة الصف (٦).

ﷺ إلى هرقل - يعني : عظيمَ الروم ،... الحديث بطوله ، وفيه : قال فدُعيت في نفر من قريش ، فدخلنا على هرقل ، فأجلَسنا بين يديه ،... فقال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ،... قال : فهل يغدر؟ قلت : لا ،... قال : وسألتُك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا ، فقد عرفتُ أنه لم يكن لِيدع الكذبَ على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ،... وسألتُك : هل يغدر ؟ فزعمتَ أنه لا يغدر ، وكذلك الرُّسُلُ لا تغدر ،... قال : **إن يكن ما تقول حقّاً ، فإنه نبيٌّ . وقد كنتُ أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنّه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه ، لأحببتُ لقاءَه ، ولو كنتُ عنده لغسَلْتُ عن قدميه ، ولَيَبْلغَنَّ ملكُه ما تحت قدمَيَّ** . متفق عليه(١).

زاد البخاري في روايته : ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومِيَة - وكان نظيرَه في العلم - وسار هرقل إلى حمص ، فلم يرِم حمصَ حتى أتاه كتابٌ من صاحبه ، يوافق رأيَ هرقل ، على خروج النبيِّ ﷺ وأنه نبيٌّ ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت ، ثم اطَّلع فقال : يا معشر الروم ؛ هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبُت ملكُكم فتبايعوا هذا النبيِّ ﷺ ؟ ...إلخ.

هذا قول هرقل عظيم الروم ، وقد سبق ذكر رسالته لرسول الله ﷺ .

* عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : لما نزلنا أرضَ الحبشة جاورنا بها خيرَ جار ؛ النجاشيَّ ، أَمِنَّا على ديننا ، وعَبَدنا ربَّنا ، لا نُؤذى ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي : الباب (٧) وفي غيرهما . وصحيح مسلم : كتاب الجهاد : باب كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، رقم (٧٤).

ولا نسمع شيئاً نكرهه ،... الحديث بطوله في قصة هجرة الحبشة ، وإرسال قريش عَمْرَو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة لاستردادهم ، وفي آخره ، قالت : ثم أرسل - أي النجاشي - إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا ، ثم قال بعضُهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ ، كائن في ذلك ما هو كائن .

فلما جاؤوه ، وقد دعا النجاشيُّ أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال : ما هذا الدِّين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في دين أحد من هذه الأمم ؟

قالت : فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك ؛ كنا قوماً أهلَ جاهلية ، نعبد الأصنام ،...

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشيُّ : فاقرأه عليَّ . فقرأ عليه صدراً من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ قالت : فبكى والله النجاشيُّ حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم . ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ،...

قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا ؛ هو عبد الله ورسولُه وروحُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشيُّ يدَه إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى ابنُ مريم ما قلتَ هذا العودَ ،... الحديث بطوله ، رواه ابن إسحٰق وأحمد وابن خزيمة وأبو نعيم والبيهقي ، وإسناد

أغلبهم صحيح[1].

زاد في حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : **قال ـ أي النجاشي ـ : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ؛ والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ﷺ ، فإنه الذي نجد في الإنجيل ، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك ؛ لأتيتُه حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه وأُوَضِّئه** ،... الحديث ، رواه أحمد والطيالسي والطبراني ، وصححه الحاكم ، وحسنه الحافظ ، وقال ابنُ كثير : هذا إسناد جيد قوي ، وسياق حسن[2].

ورواه الطبراني بإسناد صحيح ـ وصححه الحاكم والبيهقي ـ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه[3].

لذا لما مات رضي الله تعالى عنه صلّى عليه رسول الله ﷺ صلاةَ الغائب ،

---

(١) مسند أحمد (١ : ٢٠١ ـ ٢٠٣) (٥ : ٢٩١ ـ ٢٩٣) والسيرة النبوية لابن هشام (١ : ٤١٣ ـ ٤١٨) وصحيح ابن خزيمة (٤ : ١٣ولم يتمه) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ٣٢٣ ـ ٣٢٥ رقم ١٩٤) وحلية الأولياء (١: ١١٥ ـ ١١٦) ودلائل النبوة للبيهقي (٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٤) والسنن الكبرى له (٩ : ٩ ولم يسقه كاملاً) ومجمع الزوائد (٦ : ٢٤ ـ ٢٧).

(٢) مسند أحمد (١ : ٤٦١) ومسند الطيالسي (٤٦رقم ٣٤٦) والمستدرك (٢ : ٦٢٣ مختصراً) ودلائل النبوة (٢ : ٢٩٧ ـ ٢٩٨) والبحر الزخار (٥ : ١٦٨) والسنن الكبرى (٢ : ٣٦١) ولم يسوقاه كاملاً ، ومجمع الزوائد (٦ : ٢٤) والسيرة النبوية لابن كثير (٢ : ٩ ـ ١١) وفتح الباري (٧ : ١٨٩).

(٣) المستدرك (٢ : ٣٠٩ ـ ٣١٠) ودلائل النبوة (٢ : ٢٩٩ ـ ٣٠١) ومجمع الزوائد (٦ : ٣٠ ـ ٣١) وانظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (١ : ٣١٧ ـ ٣٣١) وللبيهقي (٢ : ٢٩٨ ـ وما بعد) والسيرة النبوية لابن كثير (٢ : ٣ ـ ٣١).

في المدينة ، في اليوم الذي مات فيه ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وجابر وغيرهما ، رضي الله تعالى عنهم .

السابع والعشرون : لقد كنت قرأت ـ قبل نحو من خمسين سنة : الأناجيل الخمسة ، الأربعة التي تمثل العهد الجديد ، وهي إناجيل (لوقا ، ويوحنا ، ومتّى، ومرقس) بالإضافة إلى إنجيل برنابا في طبعته المصرية الأولى ، ترجمة خليل سعادة ، ووجدت فيها من التناقض والأغاليط والكذب والتشويه ، ما لا تقبله العقول السامية والفطر السليمة ، خاصة في الأربعة التي تمثل العهد الجديد ، ولست هنا بصدد نقض الأناجيل ، فذاك له وقت آخر إن مدّ الله تعالى في العمر ، إنما أنقل هنا بعض ما جاء في إنجيل برنابا مما بقي فيه ، ولم يحوّر ولم يبدّل مما يتعلق بنظرة المسيح عليه السلام تجاه النبي الكريم ﷺ ،...

لكني سأقتصر على مورد الشاهد ولا أذكر كل العبارة ، لأنه يطول ، ومن أرادها كاملة ، فلينظر في الترجمة المذكورة . ولن أعلِّق على تلك النقول ، بل أنقلها بنصها كما هي من غير تعليق ، وعلى القارئ الفطن استخلاص العِبر والدروس .

في الفصل السادس والثلاثين : قد جاءت الأنبياء كلهم إلا رسول الله ، الذي سيأتي بعدي ، لأن الله يريد ذلك ، حتى أُهيءَ طريقه.اهـ.

في الفصل التاسع والثلاثين : لما انتصب آدم على قدميه ، رأى في الهواء كتابةً تتألق كالشمس ، نصُّها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ففتح حينئذ آدمُ فاه ، وقال : أشكرك أيها الرب إلهي ، لأنك تفضّلت فخلقتني ، ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات (محمد رسول الله) فأجاب الربُّ : (مرحباً بك يا عبدي آدم ، وإني أقول لك : إنك أولُ إنسان خلقتُ .

وهذا الذي رأيتَه إنما هو ابنُك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولي ، الذي لأجله خلقتُ كلَّ الأشياء ، الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم ،...إلخ.

في الفصل الثاني والأربعين : لست أحسب نفسي نظيرَ الذي تقولون عنه ، لأني لستُ أهلاً أن أحلَّ رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله ، الذي تسمونه مسيا ، الذي خُلق قبلي ، وسيأتي بعدي ، وسيأتي بكلام الحق ، ولا يكون لديه نهاية.اهـ.

وقوله : مسيا : أي رسول ، ومسيا الله ، أي رسول الله .

وفي الفصل الثالث والأربعين : الحق أقول لكم ، إن كلَّ نبيٍّ متى جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامةَ رحمة الله ، ولذلك لم يتجاوز كلامُهم الشَّعبَ الذي أُرسلوا إليه ، ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده ، فيحمل خلاصاً ورحمةً لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمَه ، وسيأتي بقوةٍ على الظالمين ، ويُبيدُ الأصنامَ ، بحيث يخزي الشيطان ،...اهـ.

وفي الفصل الرابع والخمسين إلى الفصل السادس والثلاثين بعد المائة ، يتحدَّث عن شفاعة النبي المصطفى الكريم ﷺ يوم القيامة ، أشير إلى بعض العبارات التي فيها التصريح باسم رسول الله ﷺ :... ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ، ويحيطون برسول الله ، ثم يحيي الله بعد ذلك سائرَ أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم ، فيُقَبِّلون يدَ رسول الله ، واضعين أنفسهم في كنف حمايته ، ثم يحيي الله بعد ذلك سائرَ الأصفياء الذين يصرخون : أذكرنا يا محمد . فتتحرك الرحمةُ في رسول الله لصراخهم ،...

ثم قال يسوع : أرجو الله أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم . إن

رسول الله وحده لا يتهيّب هذه المناظر ، لأنه لا يخاف إلا الله وحده .

ويذهب رسول الله ليجمع كلَّ الأنبياء ؛ الذين يكلمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين ، فيعتذر كلُّ أحدٍ خوفاً ولعمر الله أنا لا أذهب إلى هناك ، لأني أعرف ما أعرف ، وعندما يرى اللهُ ذلك يذكر رسولَه كيف أنه خلق كلَّ الأشياء محبةً له ، فيذهب خوفه ويتقدم إلى العرش بمحبة واحترام ،... ثم ذكر ما يفتح الله تعالى على رسوله الكريم ﷺ ، وتشفيعه ﷺ بالخلائق ،... ثم يقول :

وبعد هذه السنين يجيء الملاكُ جبريل إلى الجحيم ، ويسمعهم يقولون : يا محمد ؛ أين وعدُك لنا أنَّ من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد ... فحينئذ يكلّم الرسولُ اللهَ ويقول : ربي وإلهي ، اذكر وعدَك لي ، أنا عبدُك ، بأن لا يمكث الذين قَبِلوا دِيني في الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله : اطلب ما تريد يا خليلي ، لأني أهبك كل ما تطلب ،... فيأمر الله حينئذ الملائكةَ الأربعةَ المقربين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ، ويخرجوا كلَّ من كان على دِين رسوله ويقودوه إلى الجنة ، وهو ما سيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله ؛ أن كلَّ من آمن به يذهبُ إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلّمتُ عنها ، حتى ولو لم يعمل عملاً صالحاً ، لأنه مات على دينه.اهـ.

وفي الفصل الثاني والسبعين : أجاب يسوع : لا تضطرب قلوبكم ، ولا تخافوا ، لأني لست أنا الذي خلقكم ، بل الله الذي خلقكم يحميكم . أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيء الطريقَ لرسول الله ، الذي سيأتي بخلاص العالَم ،... إنه لا يأتي بزمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ، في ذلك الوقت يرحم الله العالَمَ فيرسل

رسولَه ، الذي تستقر على رأسه غمامةٌ بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله ، وهو سيظهره للعالم ، وسيأتي بقوة على الفجار ، ويبيد عبادةَ الأصنام من العالم.اهـ.

وفي الفصل الثامن والتسعين : أجاب الكاهن : إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيا... لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظره ؟

أجاب يسوع : حقّاً إن الله وعد هكذا ، ولكني لستُ هو ، لأنه خُلق قبلي ، وسيأتي بعدي .

أجاب الكاهن :...أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حبّاً في الله بأية كيفية سيأتي مسيا ؟

أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيا الذي تنتظره كلُّ قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم ،... ولكن عندما يأخذني الله ،... يرحم الله العالمَ ، ويُرسلُ رسولَه ، الذي خلق كلَّ الأشياء لأجله ، الذي سيأتي من الجنوب بقوة ، وسيبيد الأصنام وعبدةَ الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطتَه على البشر ،...إلخ.

وفي الفصل السابع والتسعين : ومع أني لست مستحقّاً أن أَحلَّ سير حذائه... ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كلَّ رأي كاذب فيَّ ، وسيمتد دينُه ، ويعم العالَمَ بأسره ، لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ،...

قال الكاهن : ماذا يُسمى مسيا؟ وما هي العلامة التي تعلن مجيئَه ؟

أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سمّاه لما خلق نفسَه ووضعها في بهاء سماوي . قال الله : اصبر يا محمد ؛ لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنةَ والعالَمَ وجمّاً غفيراً من الخلائق ،... ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك

رسولي للخلاص ،...

وفي الفصل الثاني عشر بعد المائة : اعلم يا برنابا إنه لأجل هذا يجب التحفظ عليَّ ، وسيبيعني أحدُ تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود ، وعليه فإني على يقين من أن مَنْ يَبيعني يُقتل باسمي ، لأن الله سيُصعِدني من الأرض ، وسيغيِّر منظرَ الخائن ، حتى يظنَّه كلُّ أحد إيايَ ، ومع ذلك فإنه لما يموت شرَّ مِيتة ؛ أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم ، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدّسُ ، تُزال عني هذه الوصمة ، وسيفعل الله هذا لأني اعترفتُ بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء

وفي الفصل الثالث والستين بعد المائة : أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه ، الذي سيأتي إلى العالم ؟

أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعةً للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ،...

وقال في الفصل الثامن بعد المائتين : أجاب يسوع : إن غَيْرةَ شَرَفِك يا الله تؤججني ، ولا أقدر أن أسكت ، الحق أقول : إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كلُّ قبائل الأرض.اهـ.

وقال في الفصل الثاني عشر بعد المائتين : أيها الرب الجواد والغني في الرحمة ؛ امنح خادمك أن يكون بين أمة رسولك يوم الدين ، وليس أنا فقط ، بل كل من قد أعطيتَني مع سائر الذين سيؤمنون بي بواسطة بشيرهم.اهـ.

هذا بعض ما في إنجيل برنابا ، فماذا يقول القسيس بعد ذلك ؟ أيكذِّب المسيحَ عليه السلام فيكون كافراً بدينه ، أم يصدِّقُ المسيحَ عليه السلام فيما

يقول فيلزمه الإيمان بالنبي المصطفى الكريم ﷺ وبطاعته ومحبته واتباعه ، وعدم الخروج عن منهجه ، والعنود عن مذهبه ... ؟ فليختر لنفسه ما يصطفي .

وأما ما في الأناجيل الأربعة الأخرى وغيرها من العهد القديم فأحيل القسيسَ على ما كتبه الكاهن الخبير الأستاذ في علم اللاهوت ، وقسيسُ الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانيين الموحِّدة ، البروفسور دافيد بنجامين كلداني ، والذي صار اسمه بعد إسلامه (أ.د. عبد الأحد داود) في كتابه الذي كتبه بعد إسلامه[(١)]. (محمد في الكتاب المقدس).

الثامن والعشرون : أهمس في أذن القسيس ومن كان على شاكلته بما يلي :

إذا كان رسول الله ﷺ لم يدع على الأحزاب يوم الخندق بالهلاك ، إنما دعا عليهم بالزلزلة والهزيمة ـ كما في الصحيحين ـ فإنه غزا (٢٧) غزوة ، ولم يُقتل من الكفار إلا نحو (٣٠٠) ، بينما غزوة واحدة ليوشع عليه السلام يوم فتح أريحا قتل (٤٠٠٠٠) في يوم واحد ، وكذا عند فتح بيت المقدس ، وقتل اليهود من الآراميين ـ كما في سفر الملوك الأول : الإصحاح (٢٠) ـ (مائة ألف) وسقط السور على (٢٧ ألفاً) فماذا يقول القسيس المتصهين ؟!!!

أسأله جل شأنه أن أكون قد وُفِّقتُ في إظهار الصورة الحقة للرحمة المهداة ، وشمولها للكفّار والأعداء ، ليظهر زيف أعداء الله عز وجل وأعداء رسوله ﷺ ، فإن ظهرت وفيها نفع لقارئها ؛ فهذا ما أريد ، وإلا فحسبي ما كتبتُ ، راجياً منه تعالى قبولَها ، وأن تكون دالّة على المقصود ، وأن ينفع بها عباده .

(١) لقد أسلم بعد نقاش استمر عدة جلسات بينه وبين شيخ الإسلام جمال الدين أفندي وعلماء آخرين رحمهم الله تعالى ، في اسطانبول . أثناء عودته من بريطانيا إلى إيران . وكان قد سبق له التفكر فيما يقرأ مما لا يدخل في عقل العاقل الفطن ، ولا يسلِّم به اللبُّ المنوَّر .

كما أسأله تعالى المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها ، المديمها علينا بإفضاله مع تقصيرنا ، الجاعلنا في خير أمة أُخرجت للناس ؛ أن يأخذ بأسماعنا وأبصارنا وألسنتنا وجميع جوارحنا إلى طاعته ، وأن يملك لنا أنفسنا وألسنتنا وجميع جوارحنا عمّا يخالف طاعتَه ، ومتابعة نبيه الكريم ﷺ ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

كما أسأله تعالى الصدقَ في القول ، والإخلاصَ في العمل ، والنجاح في المقصد ، وأن يكرمنا برضاه ، ويجعل سائرَ أعمالي خالصةً لوجهه الكريم ، ويتقبلها مني ، ويحفظني فيما بقي من العمر ، ويحضرني عند حلول الأجل بالحفظ والتوفيق وحسن الختام ، من غير ابتلاء ولا محنة ، ويغفر لي ولوالِدَيّ ولوالِد والِدَي وزوجي وأهلي وأولادي وأحفادي ومشايخي ومن يلوذ بي ، وأن يحفظنا جميعاً بعنايته ، ويتولانا برحمته ، ويحشرنا جميعاً تحت لواء النبي الكريم ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا محمد وعلى آله الطّيبين الطّاهرين ، وصحابته الكرام المبجّلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين ، وسلّم تسليماً كثيراً ، كلما ذكره الذّاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

والحمد لله رب العالمين .

وكتب

أبو إبراهيم

خليل بن إبراهيم مُلّا خاطر العَزّامي

نزيل المدينة المنورة

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

مصادر الرسالة

ـ القرآن الكريم .
ـ الآحاد والمثاني ، لابن أبي عاصم ، ت فيصل الجوابرة ، دار الراية ، الرياض .
ـ الآداب ، للإمام البيهقي ، ت محمد عبد القادر عطا ، مكتبة الباز ، مكة المكرمة .
ـ إتحاف الخيرة المهرة ، للإمام البوصيري ، ت عبد الرحمن سعد والسيد محمود إسماعيل ، مكتبة الرشد ، بالرياض .
ـ إتحاف المهرة ، للحافظ ابن حجر ، مركز خدمة السنة ، بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة .
ـ أحكام أهل الذمة ، للعلامة ابن القيم الجوزية ، ت يوسف البكري وشاكر العاروري ، رمادي للنشر ، الدمام .
ـ الأحكام السلطانية ، للإمام الماوردي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
ـ الأحكام السلطانية ، للقاضي أبي يعلى ، ت محمد حامد الفقي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
ـ الأحكام الوسطى ، للإمام الإشبيلي ، ت حمدي السلفي والسيد صبحي السامرائي ، مكتبة الرشد ، الرياض .
ـ اختلاف الحديث ، للإمام الشافعي ، ط بيروت .
ـ أخلاق النبيّ ﷺ وآدابه ، لأبي الشيخ ، ت أحمد محمد موسى ، القاهرة .
ـ الأدب المفرد ، للإمام البخاري ، ت كمال يوسف الحوت ، عالم الكتب ، بيروت .
ـ أسباب النزول ، للواحدي ، ت الأستاذ سيد صقر ، دار القبلة .
ـ الاستيعاب ، للحافظ ابن عبد البر ، ت على معوض وعادل عبد الموجود ، مؤسسة مناهل العرفان .
ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير ، دار الفكر ، بيروت .
ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، للحافظ ابن حجر ، ت البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

ـ الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الأخبار ، للإمام الحازمي ، ت محمد راغب الطباخ ، المطبعة العلمية ، بحلب .
ـ إعراب القرآن ، لأبى جعفر النحاس .ت . د . زهير غازي زاهد ، عالم الكتب .
ـ أعلام الحديث ، للإمام الخطابي ، ت . د . محمد سعد عبد الرحمن ، مركز إحياء التراث ، مكة المكرمة .
ـ الأم ، للإمام الشافعي ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .
ـ الأمانة العظمى ونبيها ﷺ ، خليل إبراهيم ملا خاطر ، دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
ـ الأمثال ، للإمام الرامهرمزي ، ت أمة الكريم القرشية ، باكستان .
ـ الأموال ، لابن زنجويه ، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، بالرياض .
ـ الأموال ، لأبي عُبيد ، ت محمد خليل هراس ، دار الكتب العلمية .
ـ أمية النبي الكريم ﷺ ، خليل إبراهيم ملا خاطر ، نشر دار القبلة ، جدة .
ـ إنجيل برنابا ، ترجمة خليل سعادة ، وتحقيق سيف الله أحمد فاضل ، دار القلم بالكويت .
ـ أوضح المسالك ، لابن هشام الأنصاري ، ت الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، م السعادة ، بمصر .
ـ البحر الزخار = مسند البزار ، ت . د . محفوظ الرحمن زين الله ، مؤسسة علوم القرآن ومكتبة العلوم والحكم .
ـ بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن ، للبنا الساعاتي ، دار الأنوار ، مصر .
ـ بر الوالدين ، خليل إبراهيم ملا خاطر . دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
ـ بصائر ذوي التمييز ، للفيروزأبادي ، ت الأستاذ محمد علي النجار ، تصوير المكتبة العلمية ، بيروت .
ـ بلوغ المرام ، للحافظ ابن حجر ، ت . رضوان محمد رضوان ، بيروت .

ـ البناية شرح الهداية ، للإمام العيني ، دار الفكر ، بيروت .
ـ بيان الوهم والإيهام ، للإمام ابن القطان ، ت . د . حسين آية أحمد ، نشر دار طيبة ، الرياض .
ـ تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، الخانجي ، مصر .
ـ تاريخ الطبري ، تصوير دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ التاريخ الكبير ، للإمام البخاري ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .
ـ تاريخ مدينة دمشق ، للحافظ ابن عساكر الدمشقي ، ت . عمر العمروي ، دار الفكر ، بيروت .
ـ تجريد التمهيد ، للحافظ ابن عبد البر ، مكتبة القدسي ، القاهرة .
ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ، للحافظ المزي ، ت عبد الصمد شرف الدين ، الدار القيمة .
ـ التذكرة في الأحاديث المشتهرة ، للإمام الزركشي ، ت مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ الترغيب والترهيب ، للحافظ المنذري ، دار الفكر ، بيروت .
ـ تغليق التعليق ، للحافظ ابن حجر ، ت سعيد عبد الرحمن القزقي ، المكتب الإسلامي ودار عمار .
ـ تفسير الإمام البغوي ، ت خالد العك ، ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت .
ـ تفسير الإمام الخازن = لباب التأويل ، دار الفكر ، بيروت .
ـ تفسير الإمام الرازي ، تصوير دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ـ تفسير الإمام الطبري ، ت الشيخين أحمد ومحمود شاكر ، وتتمتها .
ـ تفسير الإمام عبد الرزاق ، ت . د . محمود محمد عبده ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ تفسير الإمام القرطبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .
تفسير الإمام ابن كثير . دار الفكر ، بيروت .
ـ تفسير الإمام الماوردي ، ت السيد بن عبد المقصود ، مكتبة المؤيد ، الرياض
ـ تفسير الإمام النسائي . ت سيد الجليمي ، وصبري الشافعي ، مكتبة السنة ، القاهرة .

ـ التلخيص الحبير ، للحافظ ابن حجر ، نشر السيد عبد الله هاشم يماني .
ـ تلخيص المستدرك ، للحافظ الذهبي ، بحاشية المستدرك .
ـ التمهيد ، للحافظ ابن عبد البر ، نشر وزارة الأوقاف ، بالمغرب .
ـ تهذيب تاريخ دمشق ، لابن بدران ، دار المسيرة ، بيروت .
ـ تهذيب التهذيب ، للحافظ ابن حجر ، دائرة المعارف النظامية ، الهند .
ـ تهذيب الكمال ، للحافظ المزي ، ت . د. بشار عواد ، مؤسسة الرسالة .
ـ الثقات ، لابن حبان ، دائرة المعرف العثمانية ، الهند .
ـ جامع الأصول ، لابن الأثير الجزري ، ت الشيخ عبد القادر الأرناؤوط .
ـ الجامع الصغير ، للحافظ السيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
ـ الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم ، دائرة المعرف العثمانية ، الهند .
ـ الجهاد ، لابن أبي عاصم ، ت مساعد الحميد ، مكتبة دار العلوم والحكم .
ـ الخراج ، للقاضي أبي يوسف .
ـ الدر المصون ، للسمين الحلبي ، ت . د . أحمد خراط ، دار القلم ، دمشق .
ـ الدر المنثور ، للحافظ السيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
ـ الدراية في تخريج أحاديث الهداية ، للحافظ ابن حجر ، ت السيد عبد الله هاشم اليماني ، المدينة المنورة .
ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، للحافظ ابن حجر .ت . محمد سيد جاد الحق .
ـ الدرر المنتثرة ، للحافظ السيوطي ، ت محمد عبد القادر عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة .
ـ الدعاء ، للإمام الطبراني ، ت . د . محمد سعيد البخاري ، دار البشائر الإسلامية .
ـ دلائل النبوة ، للإمام البيهقي ، ت . د . عبد المعطي القلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ دلائل النبوة ، للحافظ أبي نعيم ، ت . د . رواس القلعجي ، المطبعة العربية ، حلب .
ـ الدولة العثمانية ، عوامل النهوض والسقوط ، د . علي محمد الصلابي .
ـ الذخيرة ، للإمام القرافي ، ت . محمد بو خبزة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت
ـ ذكر أخبار أصبهان ، للحافظ أبي نعيم ، نشر الدار العلمية ، الهند .

ـ الرحمة المهداة ﷺ ، خليل إبراهيم ملا خاطر (تحت الطبع) .
ـ الرسالة ، للإمام الشافعي ، ت الشيخ أحمد شاكر ، مصطفى البابي الحلبي .
ـ الروضة ، للإمام النووي ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
ـ سبل الهدى والرشاد ، للإمام الصالحي ، ت عادل عبد الموجود وعلي معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، للإمام محب الدين الطبري ، ت محمد راغب الطباخ ، المطبعة العلمية ، حلب .
ـ سنن الترمذي ، ت الشيخ أحمد شاكر وآخرين ، المكتبة الإسلامية ، بيروت
ـ سنن الدارقطني ، ت السيد عبد الله هاشم يماني ، المدينة المنورة .
ـ سنن الدارمي ، ت السيد عبد الله هاشم اليماني ، المدينة المنورة .
ـ سنن أبي داود ، ت الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية .
ـ سنن سعيد بن منصور ، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، الهند .
ـ سنن سعيد بن منصور ، ت . د . سعد عبد الله آل حُميد ، نشر دار الصميعي .
ـ السنن ، للإمام الشافعي ، ت خليل إبراهيم ملا خاطر ، دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
ـ السنن الكبرى ، للإمام البيهقي ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .
ـ السنن الكبرى ، للإمام النسائي ، ت . د . عبد الغفار البنداري وسيد كسروي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ سنن ابن ماجه ، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
ـ سنن النسائي ، بحاشيتي السيوطي والسندي ، دار إحياء التراث العربي .
ـ السير والمغازي ، للإمام ابن إسحٰق ، ت . د . سهيل زكار ، دار الفكر .
ـ السيرة النبوية ، للإمام ابن كثير ، ت مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت .
ـ السيرة النبوية ، لابن هشام ، بشرح أبي ذر ، ت . د . همام سعيد ، ومحمد عبد الله أبو صُعيليك ، مكتبة المنار .
ـ شرح السنة ، للإمام البغوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

ـ شرح صحيح مسلم ، للإمام النووي ، مطبعة حجازي ، القاهرة .
ـ شرح مشكل الآثار ، للإمام الطحاوي ، ت الشيخ شعيب أرناؤوط ، مؤسسة الرسالة .
ـ شرح معاني الآثار ، للإمام لطحاوي ، ت محمد زهدي النجار .
ـ شعب الإيمان ، للإمام البيهقي ، ت بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ شمائل الرسول ﷺ ، لابن كثير ، نشر دار القبلة .
ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ، للعلامة ابن تيمية ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد .
ـ صحيح البخاري ، بشرح فتح الباري ، ط السلفية ، القاهرة .
ـ صحيح ابن حبان ، ت الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة .
ـ صحيح ابن خزيمة ، ت . د . محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي .
ـ صحيح مسلم ، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، عيسى البابي الحلبي .
ـ الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ت . د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
ـ طرح التثريب ، للحافظ العراقي ، دار الفكر العربي .
ـ العداوة بين الإنسان والشيطان ، خليل إبراهيم ملا خاطر (تحت الطبع).
ـ عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل ، خليل إبراهيم ملا خاطر .
ـ عمدة القاري ، للإمام العيني ، الطبعة المنيرية .
ـ عمل اليوم والليلة ، لابن السني ، ت . د . عبد الرحمن كوثر البرني ، دار الأرقم ، بيروت .
ـ عمل اليوم والليلة ، للإمام النسائي ، ت . د . فاروق حمادة ، الرباط .
ـ عيون الأثر ، لابن سيد الناس ، دار المعرفة ، بيروت .
ـ فتح الباري ، للحافظ ابن حجر ، المطبعة السلفية ، القاهرة .
ـ الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ، للعلامة محمد بن علان الصديقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ـ الكاشف ، للحافظ الذهبي ، ت الشيخ محمد العوامة .
ـ كتاب التوحيد ، لابن خزيمة ، ت . د . عبد العزيز الشهوان ، مكتبة الرشد ، الرياض .

ـ الكتاب المقدس ، عند النصارى .
ـ كتاب الناسخ والمنسوخ ، لأبي جعفر النحاس ، نشر مؤسسة الكتب الثقافية .
ـ كشف الأستار بزوائد البزار ، للحافظ الهيثمي ، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت .
ـ كشف الخفاء ، للإمام العجلوني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ـ الكشاف ، للإمام الزمخشري ، دار المعرفة .
ـ كنز العمال ، للعلامة علي المتقي الهندي ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب .
ـ مجمع البحرين ، للحافظ الهيثمي ، ت عبد القدوس محمد نذير ، مكتبة الرشد ، الرياض .
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ الهيثمي ، دار الكتاب ، بيروت .
ـ المجموع ، للإمام النووي ، ت محمد نجيب المطيعي ، المكتبة العالمية ، القاهرة .
ـ محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجهاد ، خليل إبراهيم ملا خاطر
ـ المحلى ، للإمام ابن حزم الظاهري ، ت الشيخ أحمد شاكر ، المكتب التجاري ، بيروت .
ـ المختارة ، للحافظ الضياء المقدسي ، ت . د . عبد الملك بن دهيش ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة .
ـ مختصر تاريخ دمشق ، لابن منظور ، دار الفكر ، دمشق .
ـ مختصر المزني ، للإمام المزني ، بهامش كتاب الأم ، ط الشعب .
ـ مختصر المقاصد الحسنة ، للإمام الزرقاني ، ت . د . محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي .
ـ مراتب الإجماع ، لابن حزم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ المستدرك ، للإمام الحاكم ، تصوير أمين دمج ، بيروت .
ـ مسند أحمد ، المكتب الإسلامي ، ودار صادر ، بيروت .
ـ مسند إسحٰق بن راهويه ، ت . د . عبد الغفور البلوشي ، مكتبة الإيمان ، المدينة المنورة .
ـ مسند الحميدي ، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، باكستان .
ـ مسند الشاشي ، للهيثم بن كليب الشاشي ، ت . د . محفوظ الرحمن زين الله ، نشر مكتبة العلوم الحكم ، المدينة المنورة .

ـ المسند ، للإمام الشافعي ، ط بيروت .
ـ مسند الشاميين ، للإمام الطبراني ، ت الشيخ حمدي السلفي ، مؤسسة الرسالة .
ـ مسند الشهاب ، للإمام القضاعي ، ت حمدي السلفي ، مؤسسة الرسالة .
ـ مسند الإمام ابن أبي شيبة ، ت عادل الغزاوي وأحمد المزيدي ، دار الوطن .
ـ مسند الطيالسي ، دار الكتاب اللبناني ودار التوفيق ، بيروت .
ـ مسند عبد بن حُميد = المنتخب ، ت السيد صبحي السامرائي .
ـ مسند أبي عوانه ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .
ـ مسند أبي يعلى ، ت الأستاذ حسين أسد ، دار المأمون للتراث ، دمشق .
ـ مصباح الزجاجة على زوائد ابن ماجه ، للإمام البوصيري ، ت محمد المنتقى الكشناوي ، الدار العربية ، بيروت .
ـ مصنف عبد الرزاق ، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، مؤسسة الرسالة .
ـ مصنف ابن أبي شيبة ، الدار السلفية ، الهند .
ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ـ النسخة المسندة ـ للحافظ ابن حجر .
ـ معالم السنن ، للإمام الخطابي ، ت الشيخ أحمد شاكر ، وحامد الفقي .
ـ المعجم ، لابن الأعرابي ، ت . د . أحمد البلوشي ، مكتبة الكوثر .
ـ المعجم الأوسط ، للإمام الطبراني ، ت طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة .
ـ معجم الصحابة ، للإمام البغوي ، ت محمد أمين الجكني ، مكتبة البيان ، الكويت .
ـ معجم الصحابة ، لابن قانع ، ت صلاح المصراتي ، المدينة المنورة .
ـ المعجم الصغير . للإمام الطبراني = الروض الداني ، ت محمد شكور إمرير ، المكتب الإسلامي ، ودار عمار .
ـ المعجم الكبير ، للإمام الطبراني ، ت الشيخ حمدي السلفي .
ـ معرفة السنن والآثار ، للإمام البيهقي ، ت سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
ـ معرفة الصحابة ، للحافظ أبي نعيم ، ت . د . محمد راضي عثمان ، مكتبة الدار ، ومكتبة

الحرمين .
- المعرفة والتاريخ ، للإمام الفسوي ، ت . د . أكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة .
- المغني ، للعلامة ابن قدامة المقدسي ، ت . د. عبد الله التركي ، د. عبد الفتاح الحلو . هجر للطباعة والنشر ، القاهرة .
- المقاصد الحسنة ، للحافظ السخاوي ، ت الشيخ عبد الله بن الصديق ، مكتبة الخانجي ، والمثنى .
- مكارم الأخلاق ، للإمام الخرائطي ، ت . د . سعاد الخندقاوي ، مطبعة المدني ، القاهرة .
- مكارم الأخلاق ، لابن أبي الدنيا ، ت مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة القرآن .
- مكانة الصحيحين ، خليل إبراهيم مُلا خاطر ، دار القبلة .
- المنتقى ، لابن الجارود ، نشر السيد عبد الله هاشم اليماني ، المدينة المنورة .
- المهذب ، للإمام الشيرازي ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
- المهذب في اختصار السنن الكبير ، للحافظ الذهبي ، دار المشكاة للبحث العلمي .
- الموطأ ، للإمام مالك ، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة .
- ميزان الاعتدال ، للحافظ الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار ، للحافظ ابن حجر ، ت الشيخ حمدي السلفي ، عدة دور .
- نصب الراية ، للإمام الزيلعي ، ط القاهرة .
- نظم الدرر ، للإمام البقاعي ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .
- نيل الأوطار ، للشيخ الشوكاني ،
- هدي الساري ، للحافظ ابن حجر ، المطبعة السلفية ، القاهرة .

*****

فهرس الرسالة

* * * * *

قائمة بأسماء كتب المؤلف

أ ـ المدرسة المدنية :

١ ـ الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن سائر الأنبياء عليهم السلام .

٢ ـ عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل ، الطبعة الحادية عشرة ، وترجم لعدد كبير من اللغات .

٣ ـ شمائل الرسول الأمين ﷺ (تحت الطبع).

٤ ـ سيرة الرسول ﷺ ـ العهد المكي ـ كما وردت في كتب السنة .

٥ ـ الإشارة ، للحافظ مغلطاي (تحقيق).

٦ ـ فضائل النبي الكريم ﷺ كما وردت في القرآن العظيم (تحت الطبع).

٧ ـ الأمانة العظمى ونبيها ﷺ ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن . الطبعة الثانية ، وقد ترجم لبعض اللغات .

٨ ـ الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان .

٩ ـ مع رسول الله ﷺ في رمضان (تحت الطبع).

١٠ ـ الصلاة على النبي ﷺ . مكانتها ، أحاديثها ، مواطنها ، حكمها ، فوائدها ، وثمراتها .

١١ ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما ؛ الخليفة الراشد الخامس .

١٢ ـ فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، نشر دار القبلة . وقد ترجم لبعض اللغات .

١٣ ـ فضائل المدينة المنورة ، الطبعة الخامسة . وقد ترجم لبعض اللغات .

١٤ ـ مختصر فضائل المدينة المنورة ، الطبعة الرابعة . نشر دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن .

١٥ ـ فضائل مكة المكرمة .

١٦ ـ مكانة الحرمين الشريفين ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن . وقد ترجم لبعض اللغات .

١٧ ـ أمية النبي المصطفى ﷺ ، نشر دار القبلة .

١٨ ـ مكانة النبي الكريم ﷺ بين الأنبياء عليهم السلام . الطبعة الثانية .

١٩ ـ الشفاعة ، والرد على منكريها (تحت الطبع).
٢٠ ـ ساكن المدينة المنورة ، منزلته ومسؤوليته . طبعة ثالثة . نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
٢١ ـ مختصر فضائل مكة المكرمة (تحت الطبع).
٢٢ ـ ساكن مكة المكرمة ، منزلته ومسؤوليته ، دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن . طبعة ثانية .
٢٣ ـ الآيات المنيفة في الأعضاء الشريفة (تحت الطبع).
٢٤ ـ الرحمة المهداة ﷺ ، نشر دار القبلة .
٢٥ ـ الآيات الربانية في السيرة النبوية (حلقات ، وبعضها تحت الطبع).
٢٦ ـ الحب المتبادل (بين رسول الله ﷺ والمدينة المنورة) ، نشر دار القبلة . طبعة ثالثة
٢٧ ـ فضائل بلاد الشام (تحت الطبع).
٢٨ ـ رحمة النبي الكريم ﷺ بالكفار (بين يديك).
٢٩ ـ واجب الأمة نحو نبيّ الرحمة ﷺ ، نشر دار القبلة .
٣٠ ـ مناقب الأصحاب كما وردت في آي الكتاب (تحت الطبع).

ب ـ مدرسة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

٣١ ـ الإمام الشافعي وأثره في الحديث وعلومه (تحت الطبع).
٣٢ ـ مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه ، والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه ، للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى (تحقيق) طبعة ثانية .
٣٣ ـ بيان خطأ من أخطأ على الشافعي ، للإمام البيهقي (تحقيق) نشرتها رئاسة الإفتاء بالرياض .
٣٤ ـ حجية الحديث المرسل عند الإمام الشافعي . طبعة ثانية ، دار القبلة .
٣٥ ـ مناقب الإمام الشافعي ، لابن الأثير ، وهو من كتابه الشافي ، نشر دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن .
٣٦ ـ الشافي في شرح مسند الشافعي ، لابن الأثير (تحقيق ، تحت الطبع).
٣٧ ـ ثلاثيات الإمام الشافعي ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
٣٨ ـ السنن للإمام الشافعي ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .

٣٩ ، ٤٠ـ المسند للإمام الشافعي ، ومعه شافي العي ، للحافظ السيوطي (تحقيق).

٤١ ـ الإمام الشافعي وعلم مختلف الحديث ، ستعاد طباعته إن شاء الله تعالى .

٤٢ ـ مناقب الإمام الشافعي ، للحافظ ابن كثير ، نشر مكتبة الإمام الشافعي بالرياض

٤٣ ـ مناقب الإمام الشافعي ، للآبري (تحقيق).

٤٤ ـ تخريج أحاديث الأم ، للإمام البيهقي (تحقيق).

ج ـ علوم الحديث رواية :

٤٥ ـ مجموع الحديث ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (تحقيق) بالاشتراك مع الأخ الأستاذ الدكتور محمود طحان ، نشر جامعة الإمام ، بالرياض .

٤٦ ـ سبل السلام ، تعليق وتصحيح ـ بالاشتراك ، طبعة رابعة ، نشر جامعة الإمام .

٤٧ ـ شرح أربعين حديثاً مما في الصحيحين (تحت الطبع).

٤٨ ـ سلسلة الذهب (الشافعي ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما) جمع ، وتخريج ، وتعليق . نشر دار القبلة ، بجدة .

٤٩ ـ صحيفة (أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه) جمع ، وتخريج ، وتعليق ، نشر دار القبلة .

٥٠ ـ شرح أربعين باباً من سنن الترمذي ـ قسم العبادات ـ (تحت الطبع).

د ـ علوم الحديث دراية :

٥١ ـ بدعة دعوى الاعتماد على الكتاب دون السنة .

٥٢ ـ مكانة الصحيحين ، طبعة ثانية ، نشر دار القبلة .

٥٣ ـ السنة النبوية وحي (تحت الطبع).

٥٤ ـ مختصر السنة النبوية وحي ، نشر دار القبلة . طبعة ثانية .

٥٥ ـ شبهات حول السنة ودحضها ، نشر دار القبلة .

٥٦ ـ نشأة علوم الحديث (تحت الطبع).

*** المبسوط في علوم الحديث ، وطبع منه :**

٥٧ ـ الحديث المتواتر .

٥٨ ـ الحديث الآحاد . الحلقة الأولى .

٥٩ ـ الحديث المعلل ، طبعة ثانية ، نشرتها كلها دار الوفاء ، بجدة .
٦٠ ـ مقدمة شرح صحيح مسلم ، للإمام النووي ، شرح وتعليق ، نشر دار المدينة المنورة . بالمدينة المنورة .
٦١ ـ الإسناد من الدين ، والرد على الطاعنين فيه (تحت الطبع).
٦٢ ـ الإمام البخاري وصحيحه والرد على الطاعنين فيهما (تحت الطبع).
٦٣ ـ مختصر علوم الحديث (تحت الطبع).
٦٤ ـ خطورة مساواة الحديث الضعيف بالموضوع . نشر دار القبلة .
٦٥ ـ تدوين السنة من العهد النبوي إلى زمن التابعين (تحت الطبع).

هـ ـ الأجزاء الحديثية :

٦٦ ـ الإصابة في صحة حديث الذبابة ، دار القبلة . والثانية تحت الطبع .
٦٧ ـ مشروعية صيام ست من شوال ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .
٦٨ ـ تحريم نكاح المتعة (تحت الطبع).

و ـ الحديث الموضوعي :

٦٩ ـ من صفات المؤمنين في ضوء السنة النبوية .
٧٠ ـ الجهاد في ضوء السنة النبوية .
٧١ ـ تحريم الخمر والمسكرات في ضوء السنة النبوية .
٧٢ ـ تنبيه الذات بهادم اللذات (الموت والقبر في ضوء السنة النبوية).
٧٣ ـ علاج الإسلام لمشكلة البطالة في ضوء السنة النبوية .
٧٤ ـ صلة الأرحام في ضوء السنة النبوية .
٧٥ ـ الرفق بالحيوان في ضوء السنة النبوية .

ز ـ بين الإنسان والجماد :

٧٦ ـ الإدراك عند الجمادات .
٧٧ ـ معرفة الله عز وجل بين الإنسان والجماد .
٧٨ ـ شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ .
٧٩ ـ محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد ، ط ثالثة ، دار القبلة .

ح ـ بحوث مهمة في الكتاب والسنة :

٨٠ ـ حقوق الوالدين (القسم الأول : وهو بر الوالدين) نشر دار القبلة .

٨١ ـ حقوق الزوجين .

٨٢ ـ المرأة في القرآن .

٨٣ ـ الإحسان في القرآن .

٨٤ ـ زواج السيدة عائشة رضي الله عنها ومشروعية الزواج المبكر ، نشر دار القبلة . وستعاد طباعته قريباً إن شاء الله تعالى .

٨٥ ـ النظافة بين العلم والإيمان .

٨٦ ـ العلوم والإيمان ، نشر دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن .

ط ـ الفتن وأشراط الساعة :

٨٧ ـ العداوة بين الإنسان والشيطان وأثر ذلك على الجريمة . (تحت الطبع).

٨٨ ـ كيف أرسى الإسلام قواعد الأمن في الأرض .

٨٩ ـ أشراط الساعة .

٩٠ ـ مختصر أشراط الساعة ، نشر دار القبلة .

٩١ ـ أخبار الدجال .

٩٢ ـ الردة قديمها وحديثها .

٩٣ ـ الردة قديمها وحديثها (المحاضرة).

٩٤ ـ المسيح عليه السلام ، قطعية رفعه ، وتواتر نزوله .

* * * * *